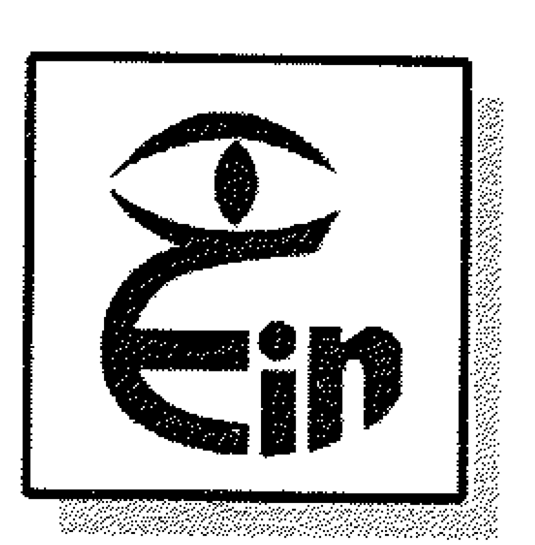


دكتور محمد مؤنس عوض

الحروب الصليبية

السياسة .. المياه .. العقيدة

الحروب الصليبية

قضايا، السياسة، المياه، العقيدة



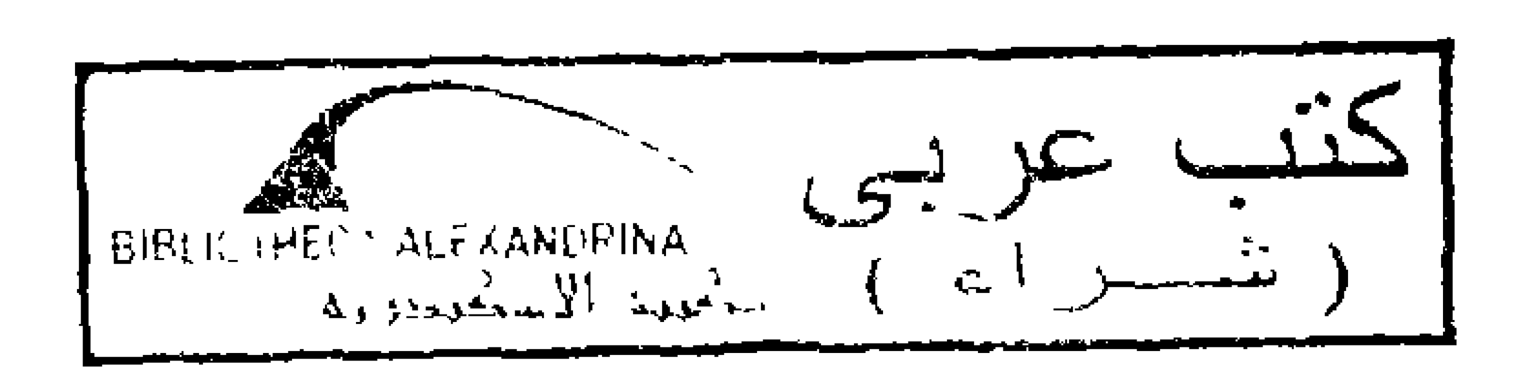
تاليف

د. محمد مؤنس عوض

كلية الآداب - جامعة عين شمس

الطبعة الأولى

٢٠٠١م







عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

ĒIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

تصميم الغلاف : محمد أبوطالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

– ٥ شارع ترعة المريوطية – الهرم – ج.م.ع – تليفون – فاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St ., Alharam - A.R.E. Tel : 3871693

الإهــداء

إلى شـهداء انتـفاضـة الأقـصى الذين واجـهوا بصـدورهم إرهاب الدولة الإسرائيلى، أحـيـاء عند ربهم يرزقون .

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــة

يحتوى هذا الكتاب على ستة فصول تتناول عدة جوانب من تاريخ المواجهة بين الشرق والغرب خلال القرنين ١٢ ، ١٣م / ٦ ، ٧هـ فيما عرف بعصر الحروب الصليبية ، وهى تتعرض لتلك الحروب من خلال قضايا السياسة والمياه والعقيدة حينذاك.

وقد اختص الفصل الأول بتناول مشكلات دراسة تاريخ الحروب الصليبية؛ إذ أن تلك المرحلة التاريخية الثرية بالصراع تعبر عن طابع إشكالى حقيقى، ويتجه الفصل المذكور إلى التعرض لعدد منها مثل الطابع الرسمى للمصادر التاريخية المعاصرة. ومشكلة الكاريزما Charisma أو التأثير الشخصى ، والتعاطف الشديد للقيادات المعاصرة وتأثر المعاصرين بها وانعكاس ذلك على التراث التاريخى الذى وصل إلينا من ذلك العصر، كذلك نذكر هنا التناحر المذهبى، وأثره على الكتابة التاريخية ، وتغييب دور المرأة حينذاك، ولاريب فى أن تلك العناصر المتعددة تكشف لنا عن جانب من إشكاليات الكتابة التاريخية عن ذلك العصر.

ونجد أن الفصل الثانى عنى بتناول فكرة «الشام ومصر» على اعتبار كونها مدخلاً حقيقيًا لدراسة الاستجابة الإسلامية للتحدى الصليبى، ولاريب فى أن الوحدة الجغرافية والتاريخية القائمة بين بلاد الشام ومصر؛ مثلت الركيزة التى قامت عليها حركة الجهاد الإسلامى فى ذلك العصر، مع عدم إغفال الارتباط الأصيل جغرافيا ، وتاريخيًا بين شمال العراق، وشمال الشام.

وبالنسبة للفصل الثالث: نجده يتعرض لعدد من العوامل التى أدت إلى إخفاق المشروع الصليبى، ويلاحظ أن هناك عوامل عدة شاركت فى ذلك سواءً العوامل الداخلية أو الخارجية، وتعاونت معًا من أجل إلحاق الاخفاق بذلك المشروع الكبير الذى قاده الغرب الأوربى الكاثوليكى فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى.

أما الفصل الرابع : فيلاحظ أنه اهتم بتناول أثر المياه فى تاريخ الصليبيين ببلاد الشام خلال المرحلة من ١٠٩٩ إلى ١١٨٧م / ٤٩٢-٥٨٣هـ وكيف ارتبط تاريخهم بالمنطقة بالسيطرة على الأنهار الحيوية فيها خاصة المنابع، والمصبات قدر الاستطاعة ، على نحو

يكشف لنا عن أن الصراع بين الصليبيين الغزاه ، والمسلمين أصحاب الأرض الأصليين كان - فى أحد جوانبه بالطبع- صراعًا على المياه التى هى أساس الحياة ، والبقاء للجنس البشرى.

من ناحية أخرى؛ اتجه الفصل الخامس إلى تناول أمر الديانتين المسيحية والإسلام بين الاعتناق والارتداد عصر الحروب الصليبية ، وهو بالتالى يتناول زاوية على جانب كبير من الأهمية على اعتبار أن الإسلام تعرض للمرة الأولى فى تاريخه لاستعمار استيطانى هدف إلى الاستقرار فى بلاد الشام ، غير أن الملفت للانتباه : اتجاه بعض الصليبيين إلى اعتناقه على نحو أقرت به المصادر التاريخية الصليبية ذاتها، وهكذا : فقد تمكن الإسلام كدين من خلال أبعاده الروحية الخاصة من غزو قلوب أعدائه دون وسائل قسرية ، وبصورة جماعية فى بعض الحالات .

زد على ذلك : اتجه الفصل السادس ، إلى تناول أمر «النبوية»؛ وهى تنظيم فروسى سنى ضد العناصر الشيعية الاسماعيلية فى بلاد الشام فى ذلك العصر، وذلك من خلال رحلة أمير الرحالة المسلمين فى عصر الصليبيات وأعنى به ابن جبير، ولاريب فى أهمية المواجهة السنية- الشيعية على مسار أحداث الصراع الإسلامى- الصليبى حينذاك .

ختامًا؛ أتوجه بباقات الشكر ، والعرفان ، والتقدير لعدد من الأصدقاء فى مصر ، وفلسطين، والأردن والعراق أخص منهم بالذكر أ.د. قاسم عبده قاسم بكلية الآداب- جامعة الزقازيق الذى أفدت من مناقشاتى العلمية مع سيادته بشأن بعض الزوايا التى عالجها الكتاب. وكذلك المؤرخ الرائد أ.د. حسن حبشى الذى أدين له بالفضل لتشجيعه المستمر لى وما هذا الكتاب إلا ثمرة نقاش مع سيادته، ولا أغفل ذكر أستاذى الراحل أ.د. رأفت عبد الحميد محمد أستاذ التاريخ البيزنطى بكلية الآداب- - جامعة عين شمس الذى رحل عن عالمنا فى ٢٥ يونيو ٢٠٠١م رحمه الله تعالى رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته، وأشكر صديقى العزيز د. حاتم الطحاوى بكلية الآداب- جامعة الزقازيق ، ود. سرور عبد المنعم الباحث فى مجال الحروب الصليبية، ود. سعيد البيشاوى بكلية العلوم التربوية برام الله بالضفة الغربية بفلسطين ، والأستاذ فؤاد الدويكات باربد بالأردن ، والأخت الباحثة / ميسون عبايجى بالموصل بالعراق الشقيق ، فلهم جميعًا خالص التقدير، وأختتم هذه المقدمة بترديد قوله عز وجل : «وفوق كل ذى علم عليم».

د. محمد مؤنس عوض

مساكن شيراتون - مصر الجديدة

٢٠٠١م

الفصل الأول

من مشكلات دراسة تاريخ الحروب الصليبية

يتناول هذا الفصل بالدراسة ؛ موضوعًا حيويًا فى صورة عدد من مشكلات دراسة تاريخ الحروب الصليبية على مدى القرنين ١٢ ، ١٣م / ٦ ، ٧هـ ، ومن الأهمية بمكان إدراك ضرورة دراسة ذلك العصر أى عصر الحروب الصليبية بأحداثه المتلاحقة وصراع الشرق والغرب خلاله، والخليط البالغ التنوع من الأمم ، والأعراق ، والأقوام، والمصالح والأهداف المتباينة- دراسته من خلال طبيعة الاشكلاتية، إذ أن ذلك من شأنه معاونتنا على فهم وقائعه بصورة أكثر موضوعية.

والواقع أن من مشكلات دراسة عصر الحروب الصليبية ما يمكن إبرازه فى صورة الطابع العدائى المتبادل لمصادر تاريخ الطرفين المتصارعين ونعنى بهما المسلمين، والصليبيين ، ثم المؤرخون المعاصرون ومشكلة الكاريزما Charisma ، والطابع الرسمى للروايات التاريخية، وتغييب الدور الشعبى فى الأحداث، ثم الصراع المذهبى وأثره على الكتابة التاريخية ، وتغييب دور المرأة فى المصادر التاريخية ، واستئثار المراكز الحضارية الكبرى بالتأليف التاريخى على حساب الأطراف، وكذلك مشكلة المركزية الأوربية فى الكتابة التاريخية الحديثة، وسوف اتجه إلى تناول كل مشكلة من المشكلات السابقة على حدة.

وبداية ؛ من الممكن إدراك الطابع العدائى لمصادر تاريخ كل من المسلمين والصليبيين على نحو وضّاح من خلال مطالعة النصوص التاريخية لمصادر كل طرف ، حيث نجد أن كتابات المؤرخين المعاصرين مثل ما ألفه ابن القلانسى (ت ١١٦٠م / ٥٥٥هـ) فى صورة كتابه ذيل تاريخ دمشق[١] ، ووليم الصورى William of Tyre (ت ١١٨٥م / ٥٨١هـ) وكتابه تاريخ الأعمال Historia Rerum وغيرهما كثيرون ؛ تفيض بالعداء المتبادل ، ويمكن وصف التاريخ الذى وصل إلينا من ذلك العصر بأنه كتب بمداد العداء والكراهية المتبادلة ، ومن الممكن - بموضوعية - تصوير الأمر على أن الصليبيين بالمذابح التى اقترفوها - خاصة خلال العقد الأول

من تاريخ استقرارهم فى بلاد الشام- ساهموا فى إيجاد الفجوة النفسية بينهم وبين المسلمين، وظلت الأجيال المتلاحقة تروى تفاصيلها الدامية وما ترتب عليها من نزوح جماعى من المناطق المنكوبة بالغزو الصليبى إلى المدن الإسلامية التى لم تصب بذلك المصير المأساوى، وهكذا ؛ قدم المؤرخ المعاصر . وبالتالى من نقل عنه- لنا فى الواقع تاريخًا عدائيًا فى المقام الأول.

ولانغفل كذلك ؛ أن كل طرف من الطرفين المتصارعين من المسلمين والصليبيين كان يجهل جوانب عدة فى تكوين الطرف الآخر - على الأقل- خلال الأعوام الأولى من استقرار الغزاه فى المنطقة وتحقيقهم لنجاحات غير مسبوقة خلال مدة زمنية قصيرة بمقاييس عديدة، وهكذا نصل إلى فكرة مؤداها أن من الصعوبة بمكان كتابة تاريخ تلك المرحلة التى شهدت الصراع العالمى بين الشرق والغرب على أرض بلاد الشام- مع عدم إغفال النطاق الجغرافى المتسع لتلك الظاهرة التاريخية من الأندلس غربًا إلى بلاد الشام شرقًا- من خلال المصادر الصليبية لتناول المسلمين أو العكس بمعنى التعامل مع المصادر العربية لتناول تاريخ الصليبيين فكل طرف لم يكن يملك القدرة على تقديم إلا قسمًا محدداً من الحقيقة التاريخية ولايمكن تعويض ذلك النقص - جزئيًا - إلا من خلال التعامل مع المصادر التاريخية المخالفة، وكل ذلك مع عدم إغفال عنصر العداء المتبادل ، ونقص المعلومات لدى الجانبين، ناهيك عن طابع المبالغة فى تقدير الخسائر البشرية، والغنائم التى حققها جانب ما ضد الجانب الآخر فى المعارك التى كانت تنشب بين الحين والآخر.

وأود أن أقرر هنا: أن من أكثر فترات الصراع الإسلامى - الصليبى صعوبة فى الكتابة التاريخية العقد الأول من تاريخ استقرار الصليبيين فى المنطقة؛ حيث كان الطابع العدائى للمصادر التاريخية لدى الجانبين على أعلى قدر من الخصومة، والكراهية المتبادلة ، مما يشكل مشكلة حقيقية أمام المؤرخ الحديث الذى يريد أن يدلى بدلوه فى ذلك النطاق الزمنى الشائك بحكم طبيعته التاريخية ، وطبيعة مصادره ذاتها .

ولانغفل زاوية أخرى؛ وهى أن كل مرحلة كانت ذات طابع دموى فى تاريخ العلاقات الإسلامية - الصليبية على أرض بلاد الشام وغيرها من المناطق تمثل مرحلة من الصعوبة بمكان تناولها بالكتابة التاريخية الحديثة بحكم الطابع الأكثر عداءً للمصادر التى وصلت إلينا من ذلك العصر ، ناهيك عن قواعد منهجية البحث التاريخى ذاتها وتطبيقاتها .

أما المشكلة الثانية : فتتمثل فى المؤرخين المعاصرين ومشكلة الكاريزما Charisma [٣]، إذ أننا نلاحظ أن اعتمادنا الأكبر على كتابات المؤرخين المعاصرين للأحداث التاريخية والذين

كانوا قريبين من مراكز صنع القرار السياسى فى ذلك العصر سواءً لدى المسلمين أو الصليبيين وهنا تظهر كتابات مجموعة من المؤرخين من المسلمين مثل ابن القلانسى ، والعماد الأصفهانى(٤)، وبهاء الدين بن شداد(٥)، وابن الأثير(٦)، وابن العديم(٧)، وابن عبد الظاهر(٨)، وأبو الفداء (٩)، وبيبرس الدواداري(١٠) وغيرهم ، وكذلك مجموعة من المؤرخين الصليبيين مثل فوشيه الشارترى Fulcher of Chartres(١١) ومؤرخ الجستا Gesta(١٢)، المجهول وروبرت الراهب Robert The Monk(١٣)، وبطرس توديبود Peter Tudebode(١٤)، ووليم الصورى William of Tyre ، وريموند اجيل Raymond d' Aguilers (١٥). وغيرهم كثيرون .

ومن الملاحظ أن عنصر «المعاصرة» قدم لهم ميزة كبرى فى كتاباتهم من خلال إطلاعهم على بواطن الأمور، ومطالعتهم للوثائق الرسمية للدولة، واتصالهم بالسياسيين الكبار الذين صنعوا مع شعوبهم تاريخ تلك المرحلة التاريخية الصاخبة ؛ إلاّ أن المعاصرة على الرغم من مميزاتها - خاصة لدى شهود العيان- لها جانبها السلبى فى صورة التأثر بل ، والإنبهار أحيانًا بأولئك القادة الذين اتصفوا بطابع الكاريزما أو المحبوبية أو التأثيرية البالغة فى الآخرين، وفى عصر شهد ظاهرة القائد أو البطل الواحد، خلال أحداث المواجهة بين أبناء ديانتين يتصارعون من خلال استفحال الخطر الصليبى الداهم الذى حل بالمسلمين على أرضهم، من الطبيعى والمنطقى تمامًا أن يقع أولئك المؤرخون فى نطاق الكاريزما الخاصة بالقائد التاريخى، وخير مثال وضّاح على ذلك ما نجده لدى السلطان صلاح الدين الأيوبى، الذى وقع فى سحر شخصيته تقريبًا غالبية من اتصلوا به ، ويستوى فى ذلك بهاء الدين بن شداد ، والعماد الأصفهانى، والقاضى الفاضل ، وغيرهم، وتفاوت الأمر لديهم من مؤرخ لآخر حسب درجة اتصاله بذلك القائد التاريخى للمسلمين ، وكذلك إمكاناته الشخصية بطبيعة الحال ، لايفهم من ذلك إلحاق النقص والتقصير بأولئك المؤرخين ، فالتقصير جزء لايتجزأ من طبيعة الفعل البشرى، ولكننا ندرك أن شخصية السلطان الأيوبى الآثرة ؛ جعلت المؤرخين يقعون فى سحرها ، وهى بالتأكيد كان من الصعب الفكاك منها، بل إن الصليبيين أنفسهم وقعوا فى نطاقها ؛ فلاعجب أن نسجت حوله أسطورة ظلت لدى العقل الجمعى الأوربى بعد طرد الصليبيين من بلاد الشام فى أخريات القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى، ووصل الأمر أن ظهرت فى القرن الرابع عشر الميلادى/ الثامن الهجرى قصيدة طويلة، عرفت باسم «صلاح الدين »، وأعيدت خلالها صياغة الأساطير القديمة السابقة، وفيه نجد تصوير صلاح الدين بأخلاقه الرفيعة مسيحيًا .

وهكذا: قيل أن أمه هي كونتيسة بونثيو Countess of Ponthieu التي تحطمت سفينتها على ساحل مصر[١٦].

وحقيقة الأمر : أن كاريزما صلاح الدين وجدت استثناء لدى بعض المسلمين المعاصرين ممن وصلت إلينا كتاباتهم سواءً من المؤرخين أو الأدباء مثل المؤرخ ابن الأثير، أو الشاعر ابن عنين[١٧]، إلا أنه بصفة عامة : تظل شخصية ذلك السلطان الأيوبي لها تأثيرها حتى بالنسبة للمؤرخ الحديث على الرغم من مرور تسعة قرون على عصره مع تعدد رجاله، وقادته، وأبطاله.

أما المشكلة الثالثة : فتتمثل في الطابع الرسمي للروايات التاريخية وتغييب الدور الشعبي في الأحداث، ويلاحظ في هذا الصدد أن المصادر التاريخية سواءً لدى المسلمين أو الصليبيين التي وصلت إلينا من ذلك العصر، توصف بالفعل بأنها مصادر رسمية ألفها مؤرخون - في الغالب الأعم ولاسيما كتاب السير- ارتبطوا بالسلطة السياسية ، ومنهم من كان بوقًا دعائيًا لها، وبصفة عامة: عبروا عن وجهة النظر الرسمية في الأحداث، وهكذا نستطيع القول أننا كمؤرخين محدثين نكرر الأمر ونكتب - دون قصد منا بالطبع- ذات الرؤية التي سمح بها أولئك المؤرخون الرسميون لنا!!!! .

وقد يرد البعض بأن هناك مصادر أخرى لاتوصف بالطابع الرسمي، مثل كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين ، والأوربيين ، ومن أمثلة الأولين الإدريسي[١٨] (ت ق١٢م / ٦هـ) وياقوت الحموي[١٩] (ت ١٢٢٨م - ٦٧٦هـ) والقزويني[٢٠] (ت ١٢٨٣م / ٦٨٢هـ) وعز الدين بن شداد[٢١](ت ١٢٨٥م / ٦٨٤هـ) وأبو الفداء (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) [٢٢]، وابن جبير[٢٣] (ت حوالي ١٢١٧م / ٦١٤هـ) ، ومن أمثلة الأخيرين: سايولف Saewulf [٢٤]، ودانيال Daniel [٢٥]، وفتيلوس Fetellus ، ويوحنا الورزبرجي John of Wurzburg [٢٧]، وأبوفروزين Euphrosine [٢٨]، وبنيامين التطيلي Benjamin of Tudela[٢٩]، وثيودريش Theoderich[٣٠]، وبتاحيا الراتسبوني Petachia de Ratisbon[٣١]، ويوحنا فوكاس Joannes phocas[٣٢]، وغيرهم عديدون .

وعلى الرغم من أن أولئك الجغرافيين والرحالة سواءً لدى المسلمين أو الصليبيين قدموا لنا تصوراً غير رسمي لواقع بلاد الشام خلال مرحلة الصراع الإسلامي- الصليبي، إلا أننا نلاحظ أن كتاباتهم جاءت غالبًا بعد إقامة لم تطل بتلك المناطق التي تناولوها، ولذلك نجد الخبرة بالمكان وواقعه التاريخي أحيانًا افتقدت لدى البعض منهم، كذلك من الملاحظ أن الكم

التأليفى الذى بلغنا من ذلك العصر نجد الجانب الرسمى فيه له القدح المعلى، بل من الصعوبة بمكان إغفال المصادر الرسمية لدى كل طرف من الطرفين عند كتابة تلك الأحداث الجسام فى تاريخ المواجهة بين الشرق والغرب فى القرون الوسطى .

ومن ناحية أخرى ؛ كان لزاوية المصادر التاريخية الرسمية انعكاساتها، إذ أن المؤرخين الذين ارتبطوا ببلاط الساسة، وكتبوا مؤلفاتهم لتعكس جهودهم دون سواهم ، صاحب دورهم تغييب البعد الشعبى [٣٣] ، وعلى هذا الأساس ؛ لم يرد فى كتاباتهم إشارات وافية عن قطاعات الفلاحين، وصغار الصناع، والتجار التى حصلت من جانب بعضهم على الاحتقار، والإزدراء، ووصفوا من جانبهم أحيانًا على أنهم من «الحرافيش»، و«الصعاليك» ، و«الدهماء» ، وهكذا؛ وجدنا أن حجم الإشارات عن تلك القطاعات العريضة من السكان لايتفق البتة مع حجم ما أورده أولئك المؤرخون عن الملوك ، والحكام، الذين وجهوهم أصلاً نحو تصنيف كتاباتهم التاريخية لحفظ تاريخهم من الزوال في غياهب النسيان، وهكذا كانت رؤية أولئك المؤرخين للأمر، وبذلك يصدق القول بأن الشعوب تصنع التاريخ، وينسبه المؤرخون للحكام عادة.

والأمر المؤكد ؛ أن تاريخ الصراع الإسلامي- الصليبى صنعته الجماهير، والحشود البشرية لدى كل من الطرفين بلااستثناء، لقد كانت الجماهير الحاشدة فى الغرب الأوربى بمثابة الوقود لحركة الحروب الصليبية، وقد حركتها البابوية بدهاء شديد من خلال التدين العاطفى الانفعالى لضمان نجاح ذلك المشروع الجديد، وعلى الرغم من التعتيم الذى نجده حيال فعالية البعد الشعبى إلا أننا نلمح مظاهره أحيانًا فى صورة الحملة الشعبية[٣٤] أو حملة الفلاحين التى أصابها الإخفاق المبين خلال أحداث الصليبية الأولى عام ١٠٩٦م / ٤٩٠ هـ والتى دفع الآلاف من الفلاحين البؤساء ثمن المشاركة فيها على نحو فادح ، وفى الجانب الإسلامي؛ هناك غضبة الجماهير على اتفاقية يافا بين كل من السلطان الكامل الأيوبى ، والإمبراطور فردريك الثانى الألمانى عام ١٢٢٩م / ٦٢٧هـ [٣٥]؛ نظراً لشعور تلك الجماهير بأن القيادة الأيوبية خذلتهم، وقدمت القدس على طبق من ذهب للصليبيين وأطاحت بعقود من التضحيات من أجل استعادتها من قبضة الصليبيين عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ، وباستثناء مثل تلك الأحداث البارزة نجد تاريخًا للملوك ، والسلاطين ، والأباطرة ولانجد غالبًا تاريخًا فعليًا للجماهير ، وليس من اليسير التقليل من شأن تلك المشكلة المؤرقة خاصة أن افتقاد نبض الجماهير فى حركة التاريخ، من شأنه إفقاد تلك الحركة روحها الفاعلة.

ومن الإنصاف القول ؛ أن تلك القطاعات صنعت بالفعل تاريخ تلك الأحداث سواءً لدى المسلمين أو الصليبيين، ووقفت لتشكل الجبهة الداخلية التى دعمت القوات المحاربة، وعلى الرغم من ذلك لم يعرها المؤرخون إلا أقل اهتمام، وهكذا ؛ نملك - غالبًا- تاريخًا لأفراد قياديين ، ولانملك تاريخًا للشعوب التى أنجبتهم إلا فى القليل النادر.

زد على ذلك؛ أن هناك مشكلة الصراع المذهبى وأثره على توجيه الكتابة التاريخية فى ذلك العصر ، فقد اتسم عصر الحروب الصليبية بأنه عصر الصراع بين العقائد ، والأديان ، وأتباعها سواءً لدى المسلمين أو الصليبيين، أو حتى فرق كل من الجانبين المتصارعين، ويلاحظ أن الكتابات التاريخية التى وصلت إلينا من ذلك العصر؛ انتمت إلى كيانات سياسية متمذهبة قضت على كيانات أخرى خالفتها وناصبتها العداء ؛ على نحْو كان له أثره بلاريب على الكتابة التاريخية ذاتها، وهكذا لم يعد لنا امتلاك وجهة النظر المغايرة التى توافرت للكيانات السياسية التى تم القضاء عليها إلاّ ما ندر، وزاد الأمر سوءًا من خلال التبديد المتعمد لآثار الدول المتصارعة من أجل الإبقاء على وجهة نظر الطرف المنتصر، والفتك بوجهة نظر الفريق المهزوم، وهى ناحية مؤثرة تدفع بنا أحيانًا إلى أحادية الرؤية ، ومخاطرها على الموضوعية التاريخية الواجبة.

وتتضح لنا الصورة على نحو أكثر جلاءً من خلال إدراكنا لمثال الدولة الفاطمية ، وهى دولة شيعية إسماعيلية ، سقطت على أيدى الأيوبيين عام ١١٧١م / ٥٦٧هـ، وتم تبديد تراث الفواطم على نحو متعمد، ومنه مكتبة القصر الفاطمى التى احتوت على مئات الآلاف من الكتب النفيسة ، وهكذا؛ تم القضاء على وجهة النظر الفاطمية ، خاصة مع ظهور مؤرخين كبار لدى العصر الأيوبى أبرزوا وجهة النظر الأيوبية بنجاح كامل، وتوارت الرؤية الفاطمية بعيداً لا لشيء سوى لأن الفاطميين ثم إلحاق الهزيمة السياسية بهم، نقول ذلك على الرغم من إدراكنا الكامل لإخفاق الفاطميين فى التعامل مع الخطر الصليبى، وكفاءة الدولة الأيوبية -لاسيما فى عهد مؤسسها- فى مواجهة ذلك الخطر الداهم .

وكامتداد للزاوية السابقة؛ من الملاحظ أننا لانملك على الصعيد الإسلامى إلا وجهة النظر التاريخية السنية، ولانملك وجهة النظر الشيعية باستثناء حالات نادرة مثل ما ألفه المؤرخ ابن أبى طيء [٣٦] ، وهو مؤرخ شيعى حلبى فقدت مؤلفاته، ونقلها مؤرخون آخرون سنيون فى صورة مقتطفات كما نجد لدى المؤرخ أبى شامة المقدسى فى كتابه الروضتين فى تاريخ الدولتين النورية والصلاحية، وابن الفرات فى كتابه تاريخ الدول والملوك وغيرهما ، ومع ذلك ؛ من

الممكن ألاتغفل هنا المواقف المؤسفة التى وقفتها عناصر الاسماعيلية النزارية تجاه قادة حركة الجهاد الإسلامى فى ذلك العصر فى صراعهم المرير ضد الغزاه الصليبيين.

زد على ذلك ، بالنسبة للغرب الأوربى؛ نجد أن الحركات المناوئة للبابوية مثل عناصر الولدنسيين والكتاريين فى جنوب فرنسا والذين قاوموا السيادة البابوية وشن البابا إنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨-١٢١٦م / ٥٩٥-٦١٣هـ) عليهم ما عرف بالحملة الألبيجنسية [٣٧]، ويلاحظ هنا أننا نعرف وجهة نظر البابوية ، ولانملك من يدافع عن وجهة نظر الفريق المعارض والذى شنت عليه تلك الحرب الشعواء، وفى هذا الصدد نجد أن المصادر المعبرة عن وجهة النظر البابوية وصفتهم على أنهم هراطقة خرجوا عن الإيمان المسيحى الحق، وهى اتهامات كثيراً ما دفع أصحابها ثمنًا فادحًا من جرائها.

ويضاف إلى ما سبق ؛ هناك مشكلة تغييب دور المرأة فى الكتابات التاريخية المعاصرة بصفة عامة ، فيلاحظ أن مؤرخى ذلك العصر كانوا من الرجال، الذين أرخوا للرجال أيضًا ، وأغفلوا أمر المرأة إلا فى النادر، وهو أمر نجده فى الكتابات العربية أو الصليبية على حد سواء، وذلك باستثناء قيادات نسائية بارزة مثلما نجد لدى المسلمين فى صورة ضيفة خاتون[٣٨] ابنة العادل الأيوبى(ت ١٢٤٢م / ٦٤٠هـ) ، وست الشام أخت صلاح الدين [٣٩] (ت ١٢١٩م / ٦١٦هـ)، وشجر الدر[٤٠] زوج الصالح نجم الدين أيوب(ت ١٢٥٨م / ٦٥٦هـ) ، وكذلك ميلزندا Melisende [٤١] ، والدة بلدوين الثالث، وإليانور Eleanor[٤٢] زوج لويس التاسع وغيرهما لدى الجانب الصليبى، وقد أدى هذا الوضع إلى أن صارت الكتابة التاريخية عن ذلك العصر تدور فى نطاق الرجال، ومعاركهم ، وصراعاتهم فى الغالب الأعم، وندر وجود دور للمرأة من خلال المادة التاريخية التى وصلت إلينا من ذلك العصر .

وقد يرد البعض ؛ بأن هناك إشارات لدى كتب الطبقات، والتراجم ، والوفيات لدى الجانب الإسلامى إلى عناصر نسائية من الفقيهات، والعالمات ، كذلك لاتخلو كتب الحوليات الصليبية من إشارات متناثرة هنا، وهناك لأدوار ملكات مملكة بيت المقدس، أو حتى مظاهر إنحراف وانحلال تنسب لنساء صليبيات [٤٣]، إلا أن ذلك أجمعه لايتفق البتة مع الحجم الفعلى الذى لعبته المرأة فى ذلك العصر ، الذى لايرتاب الباحث لحظة فى أنه كان من الفعالية بحيث عكس أهميته التاريخية على الرغم من الصمت المتعمد للمؤرخين الرجال حيال ذلك الدور من خلال طبيعة العصر، والطابع المحافظ للمجتمعات الإسلامية من ناحية، ونظرة الكنيسة للمرأة فى

الغرب الأوربى من ناحية أخرى وهى نظرة لم تخل من عداء طبيعى متأصل شارك فى صنعه آباء الكنيسة أنفسهم ، وصار جزءاً من آليات تراث الغرب الأوربى فى العصور الوسطى عمومًا والعقل الجمعى هناك.

ويضاف إلى المشكلات السابقة : ما يتصل باستئثار المراكز الحضارية الكبرى بالتأليف التاريخى على حساب الأطراف ، فمن الملاحظ أن عصر الحروب الصليبية شهد الاهتمام الكبير بالمراكز الحضارية الكبرى فى بلاد الشام ، ومصر ، والعراق مثل بيت المقدس، ودمشق ، وحلب وأنطاكية ، والقاهرة، والإسكندرية ، ودمياط ، والرها ، والموصل وغيرها، وفى المقابل لم تحظ مناطق الأطراف الأخرى بذات القدر من الاهتمام ، ولذلك توصف محتويات التراث التاريخى الذى بلغنا من ذلك العصر بأنها عبرت بصدق عن المركزية السياسية ، وهكذا لم تجد مناطق الريف البعيدة عن تلك الحواضر إلا أندر الإشارات من جانب المؤرخين المعاصرين ، وهو أمر انتقل - بطبيعة الحال- إلى المصادر المتأخرة.

لقد أدى الوضع السابق : إلى أن أصبح الريف فى تلك الأقاليم مهمشًا فى مقابل تنامى ظاهرة التأليف التاريخى للحواضر الكبرى، ولاريب أن المؤرخ المنصف يدرك عند تناوله لذلك العصر أنه يعانى من ما يوصف بالفجوة المصدرية حيال القطاع الريفى الذى لايظهر الاهتمام به إلا فى حالات نادرة مثل حدوث القلاقل ، والاضطرابات الأمنية المضرة بمصلحة الدولة مثلاً ، وهكذا يمكن القول- وبحق- أن المادة التاريخية التى وصلت إلينا من ذلك العصر ليست موزعة بصورة عادلة على المناطقة الجغرافية الشامية.

وقد يقول قائل إن المناطق الريفية لم تعدم وجود إشارات مصدرية لاسيما من خلال الجغرافيين والرحالة، الذين جابوا الآفاق على اعتبار أن الرحلة هى عين الجغرافيا المبصرة، ونجد صدى لذلك فى وصف الرحالة الأندلسى البارز ابن جبير(٤٤) لمناطق ريفية لدى المسلمين والصليبيين وكذلك هناك وصف الإدريسى لمناطق أخرى تتصف بذات الصفة فى بلاد الشام(٤٥) ، غير أن مثل أولئك الرحالة، والجغرافيين كانوا يصفون المناطق الريفية بصورة عرضية ، وأتت إشاراتهم ضمن إشارات أعم ، وأشمل، وأكبر خاصة بالحواضر الكبرى، ثم لانغفل أن الرحالة والجغرافيين على الرغم من أهمية مؤلفاتهم - إلا أنهم لم يمكثوا فى تلك البقاع إلا أيامًا يسيرة - كما أسلفت - وغالبًا ما اتسمت إشاراتهم بالاقتضاب والإيجاز.

ولم تكن لتشفى غليل الباحث الذى يتحرق شوقًا إلى معرفة ما كان يحدث بالمناطق الريفية التى مثلت الدعم الحقيقى لمدن الأقاليم المتصارعة بالنسبة للجانبين الإسلامى، وكذلك الصليبى.

ويضاف إلى تلك المشكلات السابقة؛ هناك مشكلة «المركزية الأوربية» وأثرها على كتابة تاريخ الحروب الصليبية فالملاحظ أن الكتابة التاريخية الحديثة عن الصراع بين الشرق والغرب خلال تلك المرحلة ظهرت فى الغرب الأوربى خاصة لدى فرنسا، وانجلترا، وألمانيا ثم الولايات المتحدة الأمريكية بحكم التبعية التاريخية، وهكذا كتب المؤرخون الغربيون المحدثون تاريخ تلك الأحداث من خلال تصوراتهم لها من خلال ارتباطاتهم الدينية والسياسية أحيانًا، وانعكست عليها وجهة نظرهم الخاصة بهم، بل أن منهم من دافع عن الدور التاريخى للصليبيين فى شرق البحر المتوسط فى العصور الوسطى خاصة خلال القرنين ١٢ ، ١٣ م / ٦ ،٧هـ ، ومن الممكن التقرير بأن التصورات الأوربية والأمريكية لتاريخ الحروب الصليبية اختلفت عن تصورات المؤرخين العرب ، والمسلمين المحدثين الذين حرصوا على إبراز الزوايا المتصلة بالجهاد فى مواجهة الغزاة .

ومما يجدر ذكره هنا أن مؤرخًا عربيًا رائداً فى مجال دراسة الحروب الصليبية ، وأعنى به الراحل أ.د. محمد مصطفى زيادة قد أدرك تلك الفجوة فى المعالجة بين الفريقين ، فذكر فيما يتصل بحملة لويس التاسع على مصر وهزيمته عام ١٢٥٠م / ٥٤٧هـ ما نصه : «لايستطيع المؤرخ الفرنسى الحديث، على سبيل المثال ، أن يرى فى حملة الملك لويس التاسع وهزيمته فى المنصورة ما يراه المؤرخ العربى المصرى : إذ الأول معتد والثانى معتدى عليه ، والاثنان لايتفقان ، مع العلم بأن الجانب العربى المصرى هنا هو الجدير بالتقدير والاعتبار»[٤٦]. والمثال الذى أورده مؤرخنا المفضال ما هو إلا جزءاً يسيراً من زوايا عديدة يمكن أن تعالج بصورة لدى المؤرخ الغربى، وبصورة أخرى مغايرة لدى المؤرخ المسلم الحديث وذلك يكشف لنا عن اختلاف تصورات كل فريق فى التعامل مع نفس التجربة التاريخية، ومن الضرورى التأكيد على الحذر فى التعامل مع التصورات الأوربية، والأمريكية لتلك التجربة : إذ أن تلك التصورات ما هى إلا جزءاً لايتجزأ من إسهامات استشراقية بكل مشكلات الكتابة الغربية عن الشرق ، وبناءً على ذلك من الممكن القول أن كل فريق يكتب من خلال تصوراته التى أملتها عليه ارتباطاته العقائدية والسياسية، ويلاحظ أننا نجد فى الغرب ظاهرة تزايد الاهتمام بتجربة الصليبيات فى

صورة تحقيق، ونشر النصوص المصدرية، وكذلك التأليف فى الدراسات الحديثة دون أن يتوازن نفس الاهتمام فى الغرب بما لدى الشرق فى عصرنا الحالى مما دعم المركزية الأوربية، وأتصور أن الأمر يحتاج إلى خلق وإيجاد مركزية شرقية تعكس رؤية وتصور خاص لايرتبط بالتبعية لدى الغرب لأن لكل تصوراته ، وتوجهاته ، وبدون ذلك سيظل الغرب يكتب تاريخنا عن مرحلة الحروب الصليبية ويصبغها بتوجيهاته «ونستورد» نحن تلك الكتابات ونتأثر بها عن قريب أو بعيد، ولايفهم من ذلك التصادم مع الاتجاهات الغربية فى الكتابة التاريخية عن تلك المرحلة الفعالة والمؤثرة فى العلاقات بين الشرق والغرب، غير أن الذى يمكن الاعتراض عليه هنا هو التبعية دون وعى.

ويكفى للتدليل على التباين بين اتجاهات الباحثين المسلمين المحدثين والمؤرخين الأوربيين، ما نجده لدى كتابات أحد المستشرقين الفرنسيين البارزين، عندما سخر من كتابات الأولين موضحًا ما نصه : «باستثناء بعض الحالات النادرة لم يفعل الشرقيون سوى استخدام الأبحاث الغربية فى دراساتهم بعد تغيير رموزها بحيث تصبح الانتصارات هزائم والعكس بالعكس»[٤٧] ، وعلى ما فى مثل تلك العبارة من سخرية لاذعة فإنها ، لاتتفق مع الموضوعية العلمية، والنقد الأكاديمى لتلك الكتابات التى ألفها أولئك المؤرخين الذين وصفهم «بالشرقيين»، كذلك ، تقدم لنا دليلا وضاحًا دالاً على الاستعلائية الأوربية التى توهم قطاعًا من المؤرخين هناك بأنهم وحدهم القادرون على كتابة تاريخنا طالما أننا لسنا ندًا لهم معرفيًا، وتكنولوجيًا ، ومع إدراكنا للفجوة المعرفية ، والتكنولوجية القائمة بيننا وبينهم، إلا أن ذلك ينبغى ألا يفقدنا حقنا فى كتابة تاريخنا النابع من هويتنا ومن مركزيتنا الإسلامية والعربية ، ويصور أحد المؤرخين الموقف قائلاً: «على الرغم من مقولة الشاعر الإنجليزى رديار كبلنج (١٨٦٥-١٩٣٦م) « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » إلا أننا نرى أن إمكانية اللقاء الحضارى وارده ولابد من تواصلها ، ولكن بمنظور مختلف متخل عن نزعة السيطرة وفرض التراث ... إذا غير الغرب من سلوكياته وتخلى عن نظرية الاستعلاء الحضارى والعنصرية والابتزاز الاقتصادى»[٤٨]. وهو أمر بعيد المنال بطبيعة الحال.

ومهما يكن من أمر؛ فقد يتصور البعض أن مثل تلك المشكلات السابقة توجه نظائر لها فى العديد من الحقب التاريخية قديمًا ، ووسيطًا ، وحديثًا ؛ غير أن من المهم هنا ؛ رصد الأمر من خلال الخصوصية التاريخية وهى زاوية تؤدى بنا إلى حصاد متباين، فلاتغفل الطبيعة

الجدلية والحيوية لعصر الحروب الصليبية ، وهى تكشف بجلاء أن ذلك العصر حركته التاريخية توصف بالتشابك والتعقيد ، بحكم اختلاق الشعوب ، والأمم ، والأجناس التى شاركت فى صنعه ، وكذلك تباين مستوياتها الحضارية ، وتصارع المصالح، والأطماع، والأهواء ، وتعدد الأخلاق السياسية والأخلاق المضادة ، كذلك لانغفل تباين وجهات نظر أبناء الفريقين الإسلامى والمسيحى، وانعكاس كافة تلك الزوايا على المؤرخين أنفسهم؛ وهم أبناء عصورهم الذين كتبوا مؤلفاتهم التى مثلت التراث التاريخى الذى من خلاله كانت معرفتنا بذلك العصر.

وفى حقيقة الأمر؛ أن من المشكلات السابقة ما ارتبط بمنهجية الكتابة التاريخية، ومن الممكن - فى تصورى المتواضع- التعامل معها جزئيًا من خلال أحكام منهجية بحثية دقيقة، والتفسير الشمولى لحركة التاريخ، وعدم اعتساف الأحكام أو القولبة إلى نحو ذلك من مزالق الكتابة التاريخية ذاتها، غير أن بعض المشكلات السابقة- مثل ما اتصل بالمرأة والريف - يتمثل أصلاً فى التعتيم المصدرى أو ما يوصف بالفجوة المصدرية ، وهو أمر يعد أكثر مشقة أمام المؤرخ ، ولعل هناك مخطوطات لم تر ضوء النشر بعد من شأنها إلقاء الأضواء الكاشفة فى المستقبل، أما ما اتصل بالمركزية الأوربية وتعامل الغرب مع تلك التجربة التاريخية الثرية، وتباين ذلك مع تعامل الشرق على صعيد الكتابة التاريخية، فهو أمر قائم ، ومستمر ، ويعبر وبحق عن الافتراق بين الجانبين .

ذلك عرض لعدد من مشكلات دراسة تاريخ الحروب الصليبية خلال القرنين ١٢ ، ١٣م / ٦،٧هـ .

الهوامش

١- أنظر : ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق أميدروز، ط. بيروت ١٩٠٨م.

٢- أنظر : الترجمة الإنجليزية لتاريخ وليم الصورى:

William of Tyre, History of deeds done beyond The Sea, 2 vols ., Trans . by Beb-cock and krey, New York 1943 .

٣- عن زاوية الكاريزما وأثرها حينذاك انظر: ممدوحه محمد سلامة ، «الكارزمية - القدرة على التأثير على الآخرين»، مجلة علم النفس العدد (١٤) أبريل- مايو - يونية ١٩٩٠م، ص١٥٨- ص١٦٤ .

٤- أنظر : العماد الأصفهانى ، الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق محمد صبيح، ط. القاهرة ١٩٦٥م.

٥- أنظر : ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٦٤م.

٦- انظر : ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ط. بيروت ١٩٧٩م ، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر طليمات ، ط. القاهرة ١٩٦٣م.

٧- أنظر : ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ٣ أجزاء ، تحقيق سامى الدهان ، ط . دمشق ١٩٥٤-١٩٦٨م.

٨- أنظر : ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل، ط. القاهرة ١٩٦١م، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط. الرياض ١٩٧٦م.

٩- أنظر : أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، ط. بيروت ١٩٦٠م.

١٠- أنظر : بيبرس الدوادارى ، زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة ، تحقيق زبيدة عطا، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب- جامعة القاهرة عام ١٩٧٦م، مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى ٧٠٢هـ ، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، ط. القاهرة ١٩٩٣م.

١١- أنظر : Fulcher of Chartres , A History of the Expedition to Jerusalem , Trans. by Rita Rian , Tennessee 1969 .

١٢- أنظر : Anonymous, The Deeds of the Franks and other pilgrims to Jerusalem, Trans. by R. Hill, London 1962 .

١٣- أنظر : Robert the Monk , in Peters, The First Crusade the chronicles of Fulcher of Chartres and other Source Materials , Philadelphia 1971 .

١٤- أنظر : Peter Tudebode , Histoira de Hierosolymitano Itinere , Teans. by John Hug Hill and laurita L. Hill .

١٥- أنظر : Raymond d'Aguilers, Historia Francorum qui ceperuni Iherusalem, Trans. by John Hugh Hill and laurita Hill, Philadelphia 1968 .

١٦- مكسيم رودنسون ، «الصورة الغربية والدراسات الغربيـة الإسلامية»، ضمن كتاب تراث الإسلام ، جـ١ ، ت السمهورى وحسين مؤنس وإحسان صدقى العمد، عالم المعرفة، العدد (٢٣٣)، ط. الكويت ١٩٩٨م، ص٤٦ .

وعن أسطورة صلاح الدين لدى الفكر الغربى بالتفصيل أنظر :

كارول هيلنبراند ، «صلاح الدين : تطور أسطورة غربيـة » ضمن كتاب ٨٠٠ عام حطين صلاح الدين والعمل العربى الموحد، ط. القاهرة ١٩٨٩م، ص٩٦ ص١١٠ .

١٧- أنظر : ديوانه : ابن عنين، ديوان ابن عنين، باعتناء خليل مردم ، ط. بيروت ١٩٤٦ م.

١٨- أنظر : الإدريسى، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، تحقيق دى لافيلا وجابريلى واخرين، ط. نابولى ١٩٦٥-١٩٧٧م والمنشور تحت عنوان Opus Geographicum أى صورة الأرض.

١٩- أنظر : ياقوت الحموى، معجم البلدان، تحقيق وستنفيلد ، ط. لبزج ١٨٨٩م.

٢٠- أنظر : القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد، ط. بيروت ١٩٦٠م.

٢١- أنظر : ابن شداد، الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامى الدهان، ط. دمشق ١٩٥٦م.

٢٢- انظر : أبو الفداء، تقويم البلدان ، تحقيق رينو ودى سلان، ط. باريس ١٨٤٠م.

٢٣- أنظر : ابن جبير، الرحلة ، ط. بيروت ١٩٨٠م.

وعن أولئك الجغرافيين والرحالة انظر:

محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون فى بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ، ط. القاهرة، ١٩٩٥م، ص١٧-ص٣٢٩ .

٢٤- أنظر : Saewulf , Pilgrimage of Saewulf , Trans. by Bishop of Clifton , P.P.T.S, vol . IV , London 1896 .

٢٥- أنظر : Daniel, Pilgrmage of the Russian Abbot Daniel in the Holy Land , Trans. by Wilson , P.P.T.S., vol . IV, London 1895 .

٢٦- أنظر : Fetellus, Description of the Holy Land , Trans . by J.R. Macpherson, P.P.T.S., vol . V, London 1897 .

٢٧- أنظر : Fetellus , Description of the Holy Land , Trans. by J.R. Macpherson, P.P.T.S., vol . V, London 1897 .

٢٨- أنظر : Euphrosine, Pelerinage en palestine, Trans. by De Khitrow , R.O.L., T. III, Année 1895 .

٢٩- أنظر : Benjamin of Tudela, in Wright, Early Travels in Palestine , London 1848 .

٣٠- أنظر : Theoderich , Description of the Holy Places, Trans. by Aubrey Stewart , P.P.T.S., vol . V, London 1896 .

٣١- أنظر : Péthacia de Ratisbonne , Tour du Monde Ou Voyages du Rabbin Pethachia de Ratisbonne dans Le XII Siecle , J.A., Année 1881 .

٣٢- Joannes Phocas, A Brief Description of the Holy Land , Trans. by Aubrey Stewart , P.P.T.S., vol . V, London 1896 .

وعن أولئك الرحالة انظر:

محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧ميلادية ، ط. القاهرة ١٩٩٢م، ص٤٢ - ص٢٣٢ .

٣٣- خيرية قاسمية ، «إعادة النظر في كتابة التاريخ العربي لماذا ؟ وكيف؟»، شؤون عربية، العدد (١٠٣)، سبتمبر ٢٠٠٠م ، ص٦٨ .

٣٤- عن تلك الحملة أنظر: Albert d'Aix, in R.H.C., Hist Occ., T.IV, Paris 1879, p. 284-289.

جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ط. الاسكندرية ١٩٨٣م، ص١٤١- ص١٧٠ .

٣٥- عن اتفاقية يافا المثيرة للجدل انظر: ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ٤ ، تحقيق حسنين ربيع، ط. بيروت ب-ت، ص٢٤١- ص٢٤٣ ، ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٣ ، تحقيق سامي الدهان، ط. دمشق ١٩٦٨م، ص٢٠٥ ، ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تحقيق أبو العيد دودو، ط. دمشق ١٩٨٢م، ص١٧٦، نظير حسان سعداوي . الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي، ط. القاهرة ١٩٦١م، ص٩٦-ص٩٧ .

Van Cleve , "The Crusade of Frederick II, " in Setton , A History of the Crusades, vol . II, Madison 1969 , p. 455 .

ومن المؤيدين للاتفاقية المذكورة أنظر إسهام أستاذي الراحل أ.د. رأفت عبد الحميد ، قضايا من تاريخ

الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٨م، ص١٩١- ص٢٠١ . ومن المعارضين أنظر: محمد مؤنس عوض ، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ، ص٢٩٣- ص٣٠٠ .

٣٦- من مؤلفات ابن أبي طي : معادن الذهب في تاريخ الملوك والخلفاء وذوي الرتب، كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين، عقود الجواهر في سيرة الملك الظاهر (غازي)، حوادث الزمان على حروف المعجم، الذيل على معادن الذهب، مختار تاريخ المغرب، تاريخ مصر، سيرة ملوك حلب، رسائل صنفها عن العرب في الجاهلية وعن النبي صلى الله عليه وسلم، تراجم الأدباء والشعراء، اسماء رواة الشيعة والمصنفين ، اشتقاق أسماء البلدان، عن ابن أبي طئ انظر:

نظير حسان سعداوي، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي، ط. القاهرة ١٩٦٢م، ص٣ ، السيد الباز العريني، مؤرخو الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٦٢م، ص٢٣٤ - ص٢٣٦ ويلاحظ أن الباحثة شيرين شلبي عشماوي تقوم بعمل أطروحة من منهج ابن أبي طئ في الكتابة التاريخية باشراف أ.د. سيدة كاشف في كلية البنات - جامعة عين شمس، وهي للحصول على درجة الدكتوراه .

٣٧- عن الحملة الألبيجنسية أنظر:

Evans, "The Albigensian Crusade " in Setton , A History of the Crusades, vol . II, Wisconson 1969, pp. 277-324 .

٣٨- عن ضيفة خاتون انظر: الحنبلي ، شفاء القلوب في مناقب بن أيوب ، تحقيق مديحة الشرقاوي، ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص٢٨٢-٢٨٣ ، الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب ، جـ٣ ، ط. حلب ١٣٤٥هـ، ص١١٦ .

Al- Azhari, Daifa Khatun , Ayyubid queen of Aleppo 634-640 A.H.I 1236 - 1242, A. D., Cairo 1998 .

محمود الحويري، العادل الأيوبي صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص١١٧- ص١١٨ .

٣٩- عن ست الشام أنظر: ابن نظيف الحموي، المصدر السابق، ص١٤٨ .

٤٠- عن شجر الدر انظر: ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ٢ ، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٥٣م، ص٣٧٦ ، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ط. القاهرة ، ص٣٧٣ ، عائشة التهامي، «المنشآت المعمارية للسلطانة شجر الدر بمدينة القاهرة» المؤرخ المصري، العدد (١٨) ، يوليو ١٩٩٧م، ص٢٧ - ص٧٧ .

٤١- عن ميلزندا أنظر:

William of Tyre, vol . II pp. 135-139 . Mayer , " Studies in the History of queen Melisende of Jerusalem ", D. O. P., , vol . XXVI , 1972 , pp. 93-182 .

Philips, " The latin East 1098-1291", in the Oxford Illustrated History of The Crusades, Oxford 1995 , p. 120 .

أسامة زكي زيد، «ملكات من بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادى / القرن السادس الهجرى»، مجلة كلية الآداب- جامعة طنطا ، العدد (٨) يناير ١٩٩٥م، ص٢١-ص٦٦ .

٤٢- عن اليانور انظر:

Odo of Deull, De Profectione Ludovici VII in Orientem, Trans. by V. G. Berry, New York Mc MXLVIII, p. 116 .

William of Tyre, vol . II, p. 179-180 .

Brooke , A.History of Europe, From 911 to 1198 , London 1938 , p. 308 .

Painter , History of the Middle Ages 284-1500, New York 1954 , p. 249-253 .

سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، التاريخ السياسى، ط. القاهرة ١٩٨١م، ص٢٥٧- ص٢٥٨ .

٤٣- عن ذلك انظر : العماد الأصفهاني ، الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ط. القاهرة ب-ت ، ص١٧٠ .

Jacques de Vitry , History of Jerusalem , Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., vol . IX , London 1896, p. 64 .

Brundage, " Prostitution , Miscegenation and Sexual purity in the First Crusade" in Crusade and Settlement ", ed. by P.W. Edbury , Cardiff 1985 , pp. 57-65 .

يوشع براور ، عالم الصليبيين، ت. د. قاسم عبده قاسم ود. محمد خليفة حسن ، ط. القاهرة ١٩٨١م، ص٢٢١ .

٤٤- الرحلة ، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص٢٣٠ .

٤٥- نزهة المشتاق، ص١٣ .

٤٦- حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ، ط. القاهرة ١٩٦١م ، ص«ز» من المقدمة .

٤٧- كلود كاهن ، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ت. أحمد الشيخ ، ط. القاهرة ١٩٩٥م، ص٣٢٢ .

وأود الإشارة هنا إلى أن المفكر المصرى د. حسن حنفى نادى بما يوصف بالاستغراب رداً على الاستشراق ، وطالب بضرورة أن ندرس الغرب من وجهة نظرنا ولاينفرد أبناؤه بدراستنا تحقيقًا لأهداف سياسية واقتصادية معروفة سلفًا ، تقول ذلك على الرغم من التحسن الذى طرأ على اتجاهات قطاعات من الاستشراق الأوربى مثل الاستشراق الألمانى على نحو خاص .

عن ذلك أنظر : حسن حنفى، الاستغراب ، ط. القاهرة ١٩٩٥م.

٤٨- نعمان محمود جبران ، جوانب من صورة الآخر (الغرب) فى التاريخ الإسلامى، ط. اربد ب-ت، ص١٥ .

الفصل الثانى

«الشام ومصر» : مدخل لدراسة

الاستجابة الإسلامية للتحدى الصليبى

يتناول هذا الفصل بالدراسة ؛ ظاهرة «الشام ومصر» أو الوحدة الجغرافية والتاريخية بين بلاد الشام ومصر باعتبارها عنصراً محورياً لعب دَوراً فعَّالاً فى صنع الاستجابة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية على مدى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين/ السادس والسابع الهجريين ، ويتجه إلى دراسة تطورها التاريخى ، ومدلولاتها خلال العصر المذكور.

وبداية ؛ من الضرورة بمكان تقرير زاوية أساسية خلال عصر الحروب الصليبية، وتتمثل فى أن الحروب الصليبية التى شنها الغرب الأوربى على المسلمين فى بلاد الشام، والجزيرة فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى ؛ هدفت - فيما هدفت- إلى تمزيق المنطقة، وتفكيك ارتباطها الجغرافى والتاريخى . ومنع أية إمكانية للتعاون المشترك بين أبنائها فى مواجهة الأخطار المشتركة، على الرغم من أن هناك ارتباطًا وثيقًا لاتنفصم عراه بين العراق وبلاد الشام، أو ما يوصف بالهلال الخصيب ، وكذلك بين بلاد الشام ومصر ، وهكذا وجدنا الغزاة يحاولون بكل الوسائل أن تكون كياناتهم السياسية التى زرعت فى المنطقة أثناء تمزق المسلمين سياسيًا ومذهبيًا وفى خلال غياب وعيهم التاريخى بضرورة الاتحاد والصمود أمام الغزاة ، ذات طبيعة إعاقية وتفكيكية ، وهذا يبين لنا أن الأمر لم يكن فقط مجرد ارتباط دينى ما بموقع من المواقع الجغرافية، بل أن الأمر تعداه إلى دهاء المستعمر الوافد الجديد الذى يريد تقسيم المنطقة إلى أجزاء منعزلة لايربطها رابط ، ويجد أبناؤها صعوبة بالغة فى توحيد جهودهم السياسية والحربية من أجل مواجهة الخطر الداهم الذى حل ببلادهم، والذى تمكن فى غضون أعوام قليلة من صنع واقع جيوبولوتيكى جديد أضر أشد الضرر بهوية المنطقة، وتاريخها الذى تكون على مدى نطاق زمنى يوصف بالامتداد على مدى خمسة قرون كاملة.

وهكذا؛ يتضح لنا أن إمارة الرها Edessa [1] زرعت فى موقعها المعروف بين شمال العراق وشمال الشام ، ليس فقط على اعتبار أن منديل السيد المسيح عليه السلام وجد بها ؛ بل

أيضًا على اعتبار أن تكون بمثابة إمارة أو دولة حاجزة Buffer State بين سلاجقة آسيا الصغرى، وسلاجقة العراق ، وكذلك بلاد فارس[٢] ، ولكى تكون بمثابة محطة إنذار مبكر للصليبيين فى مواجهة أية أخطار عسكرية قادمة لهم من ناحية الشرق ، كذلك فأنها غدت فيما بعد رأس البلطة الصليبية[٣]، أما ذراعها فقد تمثل فى إمارتى أنطاكية، وطرابلس ، ثم بيت المقدس التى كانت بمثابة عاصمة الكيان الصليبى السياسية والدينية فى آن واحد، وقد تمت الإفادة من الوجود السريانى فى إمارة الرها من أجل دعم المهام الموكلة بها من جانب الصليبيين.

زد على ذلك : أن إمارة أنطاكية Antioch الصليبية[٤] أقيمت فى موقعها فى شمال الشام ليس لأنها أول موقع أطلق على المسيحيين تعبير مسيحيين فيه؛ ولكن لكى تكون مفتاح هذه المنطقة الحيوية ، والبالغة الأهمية الاستراتيجية ، ثم أن موقعها يمكن من خلاله تهديد حلب حاضرة شمال الشام المسلمة الحيوية. ومن الممكن إقامة خط دفاعى استراتيجى بين الرها شرقًا، وأنطاكية غربًا من خلاله يتم تهديد الخط الدفاعى الاستراتيجى الإسلامى فى صورة الموصل- حلب[٥] ، ولامراء فى أن وجود إمارة أنطاكية فى الموقع الذى أقيمت فيه، كان من شأنه تفتيت وحدة المنطقة الواقعة بين بلاد الشام وآسيا الصغرى، وكذلك جعل تلك الإمارة الصليبية مركزاً لوضع قبضة الصليبيين على مفتاح الساحل الشامى من جهة الشمال ، ومعنى ذلك أن إمارة أنطاكية الصليبية قامت بدور قامت به من قبل إمارة الرها كما أسلفنا، وستقوم به كافة الكيانات الصليبية الأخرى من خلال رؤية شمولية صليبية عامة نحو التمزيق، والتجزئة لمناطق المسلمين.

أما إمارة طرابلس Tripolis الصليبية [٦]؛ فهى فى الموقع المحدد فى شمال لبنان كى تكون عنصراً مواجهًا لمدن الظهير الشامى فى مقابلها مثل حمص وحماه وغيرها ، أو بمعنى أدق الحواضر الإسلامية الواقعة فى حوض نهر العاصى، وهكذا تكون إمارة طرابلس عنصراً مهمًا من أجل مواجهة المناطق الإسلامية التالية مباشرة لتلك التى واجهتها إمارة انطاكية فى الشمال ، والواقعة إلى الجنوب منها، وتمت الإفادة من الوجود المسيحى المارونى المحلى فى تلك الإمارة الصليبية من أجل تدعيم فكرة التجزئة والاعتماد على الكيانات المحلية المتقوقعة والمتحوصلة المعتمدة على واقع جغرافى جبلى يدعم تمردها على السلطة الإسلامية التى كانت موجودة فى المنطقة من قبل مقدم الحملات الصليبية .

أما المملكة الصليبية فى بيت المقدس Jerusalem فقد كانت جزءاً لايتجزأ من رؤية التجزئة الصليبية لإخضاع جنوب بلاد الشام وتكوين كيانات جزئية تابعة للمدينة المقدسة سواءً فى الساحل الشامى بقسمه الجنوبى أو بالسيطرة على نهر الأردن شرقًا أو بالوصول بالحدود السياسية الصليبية جنوبًا إلى إيلات (أم الرشرش) الواقعة على رأس خليج العقبة لضمان وجود حدود بحرية صليبية على البحر الأحمر مثلما لها حدودها على البحر المتوسط.

ومعنى ذلك : أن مملكة بيت المقدس الصليبية لم تكن فقط تعتمد على الميراث العقائدى المسيحى الذى يعود إلى ذكريات المسيحية المبكرة فى فلسطين كما توحى لنا بذلك كتب الحوليات الصليبية لاسيما الباكرة، وإنما كانت تلك المملكة تقوم بدورها المحدد لها فى تجزئة وتفتيت جنوب الشام ليشارك باقى الإمارات الصليبية فى تحقيق الدور المحدد الذى عليها القيام به، وينبغى أن نلاحظ أن التجزئة ، والتفتيت هنا لم تكن على المستوى السياسى والعسكرى فقط ؛ بل على المستوى الاقتصادى ، والاجتماعى، والنفسى كذلك ، بمعنى أن التفتيت هنا شامل ، وكامل لإشعار المسلمين بخطورة الضغط الاستعمارى (أى الاستخرابى)[٧] للمنطقة، فمع وجود الكيانات الصليبية وسيطرة الغزاة على الساحل الشامى صارت الكيانات الإسلامية فى بلاد الشام كيانات برية حبيسة تعتمد على الصليبيين اقتصاديًا لتصريف فائض الإنتاج الزراعى، والصناعى الداخل فى النطاق التجارى، كما أن الكيان الصليبى أدى إلى وجود ضحايا للصراع الحربى الإسلامى- الصليبى وظهور ظواهر اجتماعية مثل الترمل، والتيتم ، والإعاقات البدنية لدى المسلمين ثم وجود أسر مشردة فارة من السيطرة الصليبية إلى مناطق أكثر أمنًا أو وجود أسر منها ما خضع للسيادة الصليبية ومنها ما خضع جزئيًا للسيادة الإسلامية على نحو أدى إلى تفكك دائم لمثل تلك الأسر المسلمة، ثم على المستوى النفسى كان وجود الغزاة على الأرض المسلمة لايعنى تفكيكًا سياسيًا ، واقتصاديًا ، واجتماعيًا فقط بل نفسيًا من خلال شعور المسلمين عامة بالإذلال، والمهانة ، والإحباط ، والاكتئاب ؛ وهو أمر لاحظناه تمامًا فى نصوص الرحالة المسلمين عندما كانوا يصفون المناطق الخاضعة للسيادة الصليبية فنجد أن «نفسية النص» تتغير إلى نوع من الانزواء ، والحسرة المريرة على ما وصل إليه حال المسلمين من الخضوع لبطش قوة أجنبية غازية[٨].

وفى تصورى : أن من مظاهر خطورة المشروع الصليبى بوصفه مشروعًا تفكيكيًا وتمزيقيًا؛ نجاحه فى تحقيق هدفه فى وقت قياسى، وساعد المسلمون بتصارعهم على أن يحقق الغزاة ذلك

الهدف بصورة غير مسبوقة، وفى غضون عقدين من الزمان وجدنا كيانات صليبية مركزية قوية توجّه ضرباتها لكيانات إسلامية مجزأة ، وقد أقيمت القلاع الصليبية فى كافة أنحاء الكيان الدخيل على نحو زاد من تمزق الواقع الشامى جغرافيًا، وعلى ذلك ، قامت القلاع بأدوار بالغة الأهمية هجوميًا ودفاعيًا ، ولعل أخطرها ما نحن بصدده ، وهو تثبيت أقدام الكيانات الصليبية، ثم دعم تجزئة المنطقة من خلال حدود جديدة تدعمها كأمر واقع معاش مفروض على المسلمين فى صورة وجود تلك القلاع الصليبية التى تناثرت على مدى طول، وعرض المملكة الصليبية.

ولكن على الرغم من كل تلك التغيرات الجديدة الحادثة التى حلت بالمنطقة؛ إلا أن الواقع الصليبى الجديد لم يكن يستطيع بأى حال من الأحوال تغيير الواقع الجغرافى، والتاريخى لمنطقة قدر لها أن تلعب دوراً محوريًا فى تاريخ العالم قديمًا وحديثًا .

وواقع الأمر ؛ ارتبطت بلاد الشام ارتباطًا جغرافيًا وتاريخًا لاتنفصم عراه مع الإقليم المجاور لها جنوبًا فى صورة مصر، ومن قبل مقدم الصليبيين إلى المنطقة بآلاف السنين؛ تأكد للدارسين أن الشمال الشرقى لأفريقية فى صورة مصر ؛ اتصل بتلك المنطقة الواقعة من الغرب الآسيوى، وهى منطقة حدودية ذات أهمية خاصة من خلال أنها مثلت نقطة الاتصال بين النطاقين الآسيوى، والأفريقى ، وكانت منطقة عبور للعديد من الهجرات الآسيوية إلى أفريقيا، وينبغى ألا يغيب عن أذهاننا مقولة العالم الجغرافى المصرى الراحل جمال حمدان الذى أشار إلى أن مصر وإن كانت جغرافيًا أفريقية إلا أنها على المستوى التاريخى صنيعة آسيوية(٩)، وهو أمر منطقى تمامًا من خلال موجات الهجرات القادمة من آسيا صوب مصر سواءً هجرات سلمية أو محاربة ومثلت شبه جزيرة سيناء فى كل ذلك المعبر الذى على أرضه الرملية عبرت كافة تلك الهجرات المارة ببلاد الشام.

والجدير بالذكر ؛ أن الارتباط بين بلاد الشام ومصر كان قائمًا - ولايزال- على أساس الواقع الجغرافى نفسه قبل أن يكون من خلال الواقع التاريخى، وفى هذا الصدد نجد أن سهل العريش بشمال سيناء يعد امتداداً طبيعيًا للسهل الساحلى بفلسطين وغيرها من أقطار بلاد الشام فى لبنان وسوريا ، كذلك تعد شبه جزيرة سيناء نفسها الامتداد الجغرافى لصحراء النقب بجنوبى فلسطين، ومن المهم ملاحظة أن بعض الرواسب المتراكمة على الساحل الشامى والتى وقفت عائقًا يحول دون الملاحة (غير أنها تمثل تربة صالحة للزراعة) تأتى أصلاً من مصب نهر

النيل، إذ تطفو مياه النهر المذكور العذبة حاملة معها ذرات الطين الخفيفة والمكونة عن طريق شظايا الميكا الرقيقة التى جلبت فى الأصل من بلاد الحبشة وتطفو المياه العذبة الخفيفة فوق سطح مياه البحر ذات الطبيعة المالحة، وتتجه مع التيار صوب الشرق والشمال الشرقى، حتى تصل إلى سواحل فلسطين وترسب هناك ، ويعلق أحد كبار الباحثين الجغرافيين عن ذلك الموقف قائلاً : «لعل فى ذلك بعض ما يزيد من الرابطة الطبيعية بين وادى النيل الأسفل، وهذا القسم من سواحل الجزيرة العربية»(١٠).

زد على ذلك ؛ أن بلاد الشام ومصر من الناحية المناخية تتبعان إقليم البحر المتوسط الذى يوصف بأنه حار وجاف صيفًا دفيء وممطر شتاءً ، والأمطار الشتوية تسقط من خلال الرياح الغربية العكسية، وقد أدت الظروف المناخية المتشابهة إلى تشابه الروابط الإنسانية والاجتماعية ، وأنماط التفكير ، والميول بين الشعوب القاطنة لتلك المنطقة سواءً فى بلاد الشام أو فى مصر ، ولذلك لم يكن من العسير على شعوب المنطقة الارتحال، والاستقرار، والتزاوج دون كبير عناء بل كان من الممكن الاندماج والتعايش على مر عصور التاريخ.

ويضاف إلى ما سبق ؛ احتوت بلاد الشام ومصر على ظاهرة جغرافية لها شأنها الفعال كعامل ربط بين أبناء المنطقة فى صورة تعدد الأنهار مثل النيل ، والفرات، والعاصى، والأردن، والليطانى ، والحاصبانى، والزيدانى ، واليرموك ، وغيرها، ونجد أن من تلك الأنهار ما كون سهول وديان فيضية غنية عمل سكانها بحرفة الزراعة منذ أقدم العصور، ومن الملفت للانتباه: أن أقدم الحضارات البشرية وجدناها فى تلك المنطقة كما الأمر فى مصر ، وبلاد الشام من خلال توافر موارد المياه بغزارة فى صورة الأنهار المذكورة ، وكذلك من خلال إرادة الإنسان ذاته التى أخضعت تلك المصادر المائية لاحتياجاته، وطموحاته، ومن هنا ؛ كان مشيداً لمثل تلك الحضارات واستحق بذلك - بالنسبة لمصر- العبارة القائلة بأن مصر هبة الإنسان المصرى وليست فقط هبة النيل .

أضف إلى ذلك ؛ هناك ظاهرة جيمور فولوجية لها شأنها ربطت بين بلاد الشام ومصر ونعنى بها الزلازل التى كانت تحدث بين بلاد الشام ومصر ونعنى بها الزلازل التى كانت تحدث بين الحين والآخر لتترك، آثارها المدمرة والمأساوية لتوحد القطرين حتى فى المآسى والأحزان !!!، وفى هذا المجال ينبغى أن نذكر ما يعرف بالأخدود الأفريقى African rift Valley ، وهو يعد أكبر أخدود عازل بين القارات Continental graben وقد نشأ من جراء تمدد شرق القارة

الأفريقية من خلال تكدس التيارات المتصاعدة فى البحر الأحمر، ثم تبع ذلك تمزق القارة على نحو أدى إلى نشوء البحر الأحمر، واتخذ ذلك الأخدود امتداداً طوليًا من الشمال إلى الجنوب، وهو يمثل نقطة ضعف فى القشرة الأرضية على نحو كبير، ويلاحظ أن امتداده الجغرافى يبدأ من وادى البقاع فى لبنان بين جبال الأنصارية فى الغرب، وجبال لبنان الداخلية فى الشرق ثم يتجه جنوبًا ليظهر فى فلسطين فى جنوب بحيرة طبرية ثم يمتد إلى غور الأردن ، والبحر الميت، ووادى عربة ثم يسير إلى خليج العقبة والبحر الأحمر، ثم عدن حتى هضبة أثيوبيا ، ومنها إلى وسط كينيا، وتنجانيقا حتى ملاوى[١١].

وهكذا يتضح لنا على نحو جلى ؛ أن الجغرافية - وهى التى توجه التاريخ وما التاريخ ذاته إلا صراعًا على الجغرافيا فى جوانب عدة- صنعت القاعدة المكانية بكافة ظروفها وأحوالها التى من خلالها قامت روابط «التاريخ المشترك» بين بلاد الشام ومصر[١٢] على قاعدة «الجغرافيا المشتركة» ، ويلاحظ هنا : أن ما يمكن وصفه بالتاريخ المشترك تتعدد بصورة وضاحة وأمثلته فى العصور القديمة والوسيطة على نحو يصعب أحصاؤه من فرط كثرته على نحو يؤكد فكرة وحدة بلاد الشام ومصر أو ما يوصف على أنه «الشام ومصر» ، وفى هذا المجال من الممكن القول- دون اعتساف مفتعل فى الأحكام أو سعيًا ممجوجًا نحو القولبة- أن تلك المراحل التاريخية لم تشهد منطقتان ارتبطتا ببعضها البعض ارتباطًا يكاد يكون كليًا كما فى بلاد الشام ومصر إلا ما ندر ، ويلاحظ أن الهكسوس أو الحقاوسوت الرعاة الذين قدموا من آسيا عبروا شبه جزيرة سيناء إلى قلب وادى النيل، وبعد استقرارهم تمكن المصريون بعد قرابة ثمانين عامًا بقيادة كاموس ، وأحمس من طردهم ، وطاردهم الأخير خارج حدود مصر إلى شاروهين بفلسطين فى أول محاولة لإثبات ارتباط الشام ومصر فى التاريخ القديم كما لاحظ العلامة جمال حمدان [١٣]، وفيما بعد كانت لمصر الفرعونية امبراطوريتها الواسعة شملت مصر، وبلاد الشام ، وأعمال العراق ، ويعد عهد فرعون مصر الكبير رمسيس الثانى نموذجًا دالاً على قوة سياسة مصر الخارجية فى ذلك العصر؛ على نحو أثبت أن المجال الحيوى للتوسع الخارجى المصرى كان بالضرورة منذ أبكر العصور صوب بلاد الشام ، ثم جاء الغزو الفارسى المتبربر ليضم مصر إلى أملاك الإمبراطورية الفارسية على يد قمبيز ، وفيما بعد دخلت بلاد الشام ومصر ضمن أملاك الإسكندر الأكبر المقدونى وتوالت القوى الرومانية والبيزنطية واتحد تاريخ القطرين تمامًا حينذاك ، وعندما سطع الإسلام بنوره على الدنيا فتح المسلمون بلاد الشام واتجهوا إلى مصر التى تم فتحها بالفعل لتصبح من بعد أرض الكنانة ،

وكل متغلب على بلاد الشام تطلع إليها والعكس صحيح ونجد ذلك فى عهود الطولونيين والاخشيديين، وفيما بعد نجد أن الفاطميين بعد أن أقاموا دولتهم فى المغرب عملوا على الاتجاه إلى مصر ومنها توسعوا فى بلاد الشام.

وفيما بعد : حدثت أحداث الحروب الصليبية لتشمل بلاد الشام ومصر، ويلاحظ أن الصليبيين خلال حصار انطاكية قدمت لهم سفارة فاطمية تعرض عليهم إمكانية عقد حلف مشترك أساسه أن يكون شمال الشام للغزاة ، وجنوبه- أى فلسطين- للفاطميين، وكشفت تلك السفارة التى أشارت إليها المصادر التاريخية الصليبية مثل وليم الصورى(١٤) William of Tyre عن حجم جهل الفاطميين بطبيعة الصليبيين ، لقد أراد الفاطميون التحالف معهم ضد السلاجقة السنيين ، ولم يدروا أن الغزاة الجدد أرادوا تكوين كيانهم السياسى على حساب الجميع سنيين وشيعة ، وفيما بعد اتجه الصليبيون إلى الجنوب ، وأخضعوا بيت المقدس، وحدثت معركة عسقلان أغسطس ١٠٩٩م / ٤٩٢هـ(١٥) وحاول الفواطم مواجهة الغزو الصليبى خلال تلك المرحلة المبكرة دون جدوى حيث حلت بهم الهزيمة النكراء وجاءت هذه الهزيمة لتكشف لنا عن إخفاق أول محاولة مصرية لإنقاذ الشام من براثن الصليبيين، وفيما بعد توالت المدن الساحلية فى التساقط، وفشلت إمكانيات الفواطم البحرية فى دعم المدن الإسلامية هناك، وسقطت صور عام ١١٢٤م / ٥١٩هـ، كذلك عسقلان عام ١١٥٣ م / ٥٤٨هـ، وخطورة سقوط المدينة الأخيرة فى قبضة الصليبيين أن فقدت مصر الفاطمية آخر أملاك لها فى بلاد الشام (١٦)، وعادت السيادة الفاطمية للإنكماش الأفريقى باستثناء شبه جزيرة سيناء بطبيعة الحال.

وجدير بالذكر : أن تاريخ تلك المرحلة أثبت لنا أن بلاد الشام بمفردها لم تستطع مواجهة الصليبيين أو تحقيق مكاسب استراتيجية على حسابهم ، كما أن مصر منفردة عجزت هى الأخرى، ولذلك لم يكن هناك مفر من عودة وحدة مصر والشام كى يتم تحقيق الإنجازات العسكرية والسياسة لأمر يسير وهو أن الانفصال بين الإقليمين ضد صيرورة التاريخ ومن قبل الجغرافيا كما أشرت من قبل.

على أية حال؛ وجدت فكرة الشام ومصر مهندسها البارع فى صورة نور الدين محمود الذى استطاع استغلال التصارع الوزارى فى مصر الفاطمية بالتدخل فى شئون الأخيرة على نحو أدى إلى بسط نفوذه فيها من خلال دور بارز لأسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبى . ومما يجدر الانتباه إليه هنا : أن أسد الدين شيركوه يعد وبحق «القائد العسكرى الفذ للشام

ومصر» ، ويكفى أن نقدر له براعتـه فى حرب الصحراء ، والاحتفاظ بخطوط تموين لقواته وكذلك كفاءتها القتالية ، ونجاحه الباهر فى مواجهة مملكة بيت المقدس الصليبية، والتسابق مع ملكها عمورى الأول، لقد تمكن ذلك القائد الفذ من قيادة قواته على مدى الطريق الشاق، والمرهق من دمشق إلى القاهرة، وكذلك إلى صعيد مصر- فى إحدى المرات- من أجل تثبيت أقدام الدولة النورية على أرض مصر الفاطمية. وجاءت نجاحاته فى النهاية لتؤكد براعة نور الدين محمود الذى اختار الرجل الجدير بالموقف التاريخى ، ومن المؤسف أن تلك القيادة البارزة لم تجد من المؤرخين من يظهرها على النحو الجدير بها على الرغم من عدم وجود من يستطيع القيام بذلك الدور التاريخى حينذاك إلا تلك الشخصية العسكرية الفريدة وأعنى بها أسد الدين شيركوه .

ولانغفل هنا بالطبع ؛ دور صلاح الدين الأيوبى ابن أخى القائد السابق، وواقع الأمر أن هناك ثلاثة أعلام قامت بدور محورى فى تنفيذ فكرة الشام ومصر كواقع تاريخى لصالح المعسكر الإسلامى فى صورة نور الدين محمود، وأسد الدين شيركوه ، وصلاح الدين الأيوبى ولاريب فى أن أعظم إنجازاته تمثل فى إسقاط الدولة الفاطمية عام ١١٧١م / ٥٦٧هـ وقد أدى ذلك إلى دخول مصر بكل إمكاناتها المادية والبشرية إلى معسكر الجهاد الإسلامى بعد عودتها إلى الوجهة السنية ، ومن بعد ذلك ظهر دور توحيدى خالد لصلاح الدين الأيوبى الذى وحد مصر مع بلاد الشام ، وشمال العراق فى أحداث ما بعد وفاة نور الدين محمود عام ١١٧٤م / ٥٧٠هـ ، والأمر المؤكد ؛ أن دور ذلك السلطان الأيوبى كان تتويجًا وتدعيمًا لظاهرة الشام ومصر بعد أن غابت من خلال الهوان الفاطمى الذى كشفه بجلاء الغزو الصليبى لبلاد الشام ويلاحظ أن الجبهة الإسلامية الموحدة بقيادته صارت تمثل مصر، وبلاد الشام، بمناطقها الإسلامية ، وشمال العراق بكل الإمكانات المادية والبشرية تحت سيادة سيد واحد عشق الجهاد ونذر نفسه له بتفان كامل ، وهكذا؛ جاءت معركة حطين عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ[١٧] فى حقيقتها تتويجًا لنجاح صلاح الدين فى إعادة الروح لظاهرة الشام ومصر ، ومن ثم كان إسقاط القلاع الصليبية، وفتح مدن الساحل الشامى ثم سقوط مدينة بيت المقدس فى أيدى المسلمين بعد أن ظلت فى الأسر الصليبى خلال المرحلة من ١٠٩٩ إلى ١١٨٧م / ٤٩٢-٥٨٣هـ .

على أية حال؛ تعرضت « الشام ومصر » لانتكاسة خطيرة فى عهد الكامل الأيوبى من خلال مشروع التسوية الذى وقعه مع الإمبراطور فردريك الثانى عام ١٢٢٩م / ٦٢٥هـ، والذى عرف باتفاقية يافا[١٨]، والذى خلاله قدم بيت المقدس لقمة سائغة للصليبيين على اعتبار

احتفاظه بمصر قلب الدولة الأيوبية ، ولا مراء فى أن قصر نظر ذلك السلطان الأيوبى تمثل فى الفصل بين مصر والشام ، والتضحية بموقع من أجل الاحتفاظ بموقع آخر؛ دون إدراك منه للوحدة الجغرافية، والتاريخية الأبدية بين الإقليمين الشقيقين .

مهما يكن من أمر؛ سقطت الدولة الأيوبية عام ١٢٥٠م / ٦٤٦هـ، ووصل المماليك البحرية إلى السلطة فى مصر ، ووضعوا نصب أعينهم جهاد الصليبيين فى بلاد الشام، وهكذا أسقط المسلمون بقيادة الظاهر بيبرس أنطاكية عام ١٢٦٨م / ٦٦٦هـ[١٩] ، والمنصور قلاوون إمارة طرابلس عام ١٢٨٩م / ٦٨٧هـ [٢٠] ، أما عكا- آخر معاقل الصليبيين الكبرى فى بلاد الشام- فقد قاد إسقاطها الأشرف خليل بن قلاوون عام ١٢٩١م / ٦٩٠هـ [٢١].

والأمر المؤكد ؛ أن إسقاط عكا فى قبضة المماليك أكد على نحو جلى عودة بلاد الشام إلى حضن مصر فى عناق تاريخى حقيقى ومتجانس بعد طرد آخر الغزاة الصليبيين، ولانزاع ؛ فى أن إسقاط عكا فى قبضة المسلمين عام ١٢٩١م / ٦٩٠هـ لم يكن مجرد إسقاط مدينة عادية، بل إنه كان يعنى انتصار فكرة «الشام ومصر » التى حاول الصليبيون على مدى قرنين كاملين من الزمان تمزيقها بكل الوسائل العسكرية، والسياسية الممكنة دون جدوى؛ فلم تستطع الإمارات الصليبية بمواقعها الفريدة القضاء على تلك الوحدة الجغرافية والتاريخية، كما عجزت أيضًا القلاع الصليبية عن تحقيق ذات الهدف ، ولذلك لاعجب إذا وصفنا مرحلة الوجود الصليبى فى بلاد الشام بأنه كان أشبه شئ بالاستثناء الجغرافى والتاريخى بحكم تنافيه مع الواقع السياسى والحضارى لوحدة مصر والشام عبر حقب التاريخ وقدرة الإقليميين على الامتصاص والاحتواء والفلترة ثم لفظ الأعداء.

وفى تقديرى المتواضع : أن من أكبر العوامل التى دعمت التواصل بين عنصرى «الشام ومصر » أنها لم تأت كظاهر «فوقية رسمية» من جانب القيادات العليا الإسلامية التى حرصت على تنفيذها خلال ذلك العصر بصفة عامة؛ بل أنها كانت مطلبًا شعبيًا عارمًا ، ولم يستطع الصليبيون بآلة الحرب التى امتلكوها والدعم الغرب الأوربى المادى، والبشرى، والأدبى . وقف الاتصال الشعبى بين أبناء الإقليمين.

وفى تقديرى ؛ أن الطابع الشعبى هذا هو الذى قضى- فعليًا وعمليًا - على محاولات الفصل بين الإقليمين الشقيقين ، وهو أمر وجدناه على كافة الأصعدة، والمستويات فى صورة التجار، وطلاب العلم، والرحالة، والصوفية ؛ إذا انتقل التجار بين الإقليمين المذكورين من

أجل عقد الصفقات التجارية لنقل سلع مصر إلى بلاد الشام والعكس ، وبصفة عامة؛ كان من السهل أن تتواجد المنتجات الزراعية والحرفية فى أسواق كل منهما ، أما رحلة العلم، فنجد أن العديدين من طلاب العلم تنقلوا بين مصر وبلاد الشام، من أجل تلقى العلم على أيدى العلماء والفقهاء هنا وهناك لاسيما فى المراكز العلمية البارزة فى صورة المدارس والمساجد خاصة مع إدراكنا أن عصر الحروب الصليبية شهد تزايد تشييد تلك المؤسسات لاسيما المدارس ، وهكذا كان كل إقليم يكمل الآخر على المستوى العلمى، ومن خلال مطالعة كتب الطبقات ، والتراجم، والوفيات ؛ من اليسير ملاحظة أمر العلماء الذين تنقلوا بين النطاقين الجغرافيين المذكورين ، ويضاف إلى ذلك جميعه؛ أن الرحالة أنفسهم سواءً من المشرق أو من المغرب - وبصورة أوضح لدى الأخيرين- زاروا الإقليمين المتجاورين، وسجلوا ما شاهدوه على نحو كشف لنا بجلاء عن أن التجاور الجغرافى أدى إلى نوع من «الوحدة» بين بلاد الشام ومصر، وتدعم الأمر أيضًا من خلال نشاط الصوفية ؛ وهم الذين كانت لهم شعبية كبيرة لدى العامة من خلال الاعتقاد فى الكرامات التى نسبت إلى كبار شيوخهم، وقد توافرت الطرق الصوفية لدى النطاقين الجغرافيين، وتبادلت التأثير والتأثر، مما دعم الاتصال بينهما.

وهكذا ؛ وجدت وحدة شعبية حقيقية بين أبناء الإقليمين على نحو دعم الوحدة، الجغرافية والتاريخية ، وأدى ذلك الحراك الشعبى إلى تأكيد أجنبية واستثنائية الوجود الصليبى فى بلاد الشام الذى كان مختلفًا تمام الاختلاف عن أبناء المنطقة ديانة، ولغة، وفكراً ، وكذلك فى أساليب الحياة ذاتها ، ناهيك عن دمويته وتعصبه على نحو دعم بصورة ذاتية أمر الاختلاف والتباين الشديد عن واقع الشام ومصر، وجعلته ينتظر الوقت للرحيل عنها حتى يعود لها تجانسها الذى وجد من قبل مقدم الصليبين للمنطقة ، واستمر على الرغم من محاولات التمزيق، والتفتيت.

وقد يرد البعض بأن التجانس ، والتماثل الجغرافى بين بلاد الشام ومصر توجد له أمثلة أخرى فى الأقاليم المتجاورة جغرافيًا، وبالتالى يعد الحديث عن الشام ومصر بكل نماذجه التاريخية المتعددة جانبًا من الاعتساف والقولبة ، غير أن القضية هنا هى الخصوصية التاريخية التى وحدت بين بلاد الشام ، ومصر بصورة كونت ما يمكن وصفه بالوحدة الفعلية جغرافيًا ، وتاريخيًا ، وقد شهد عصر الحروب الصليبية جانبًا منها، وهكذا؛ يمكن القول أن مرحلة الحروب الصليبية تعد مرحلة وسطى بين المرحلة التاريخية السابقة عليها واللاحقة فيما

بعد، غير أن أهميتها تمثلت فى أن التحدى الخارجى من جراء تلك الحملات العسكرية الغرب أوربية أظهر تلك الرابطة القوية بين بلاد الشام ومصر بصورة أكثر جلاء عن ذى قبل ؛ مما يؤكد فكرة أن تلك الرابطة تتأكد بصورة وضاحة مع ظهور التحدى الخارجى المشترك.

وقد يثار تساؤل حيوى بشأن أيهما كان أكثر تأثيراً على تاريخ حركة الجهاد الإسلامى فى ذلك العصر، هل ارتباط الجزيرة الفراتية ببلاد الشام أم ارتباط الشام بمصر؟، وواقع الأمر؛ أنه لاتوجد هناك مفاضلة بين الاتجاهين الجغرافيين البارزين اللذين سارت من خلالهما حركة الجهاد الإسلامى حينذاك، ومع ذلك ؛ من المفترض أن ارتباط الجزيرة الفراتية ببلاد الشام يظهر بصورة أكبر خلال النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى / القرن السادس الهجرى، لاسيما من خلال فعاليات أتابكية الموصل والأدوار التاريخية التى قامت بها ووصلت بها إلى «الذروة فى صورة إسقاط إمارة الرها الصليبية عام ١١٤٤م / ٥٣٩هـ. أما الارتباط بين بلاد الشام ومصر بصورة فاعلة سواءً بالنسبة للمسلمين أو الصليبيين فنجده وضاحًا خلال المرحلة التالية من تاريخ الوجود الصليبى فى بلاد الشام. لاسيما خلال النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى، وكذلك القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى.

ومع ذلك ؛ وعلى الرغم من التصورات السابقة، من الأهمية بمكان ملاحظة أن الجزيرة الفراتية ظل دورها قائمًا من خلال الدعم البشرى الذى قدمته لحركة الجهاد الإسلامى على نحو مستمر، مما يدعونا إلى تصور أن كافة أقاليم العراق والشام ومصر- على نحو خاص- وكذلك أقاليم المشرق والمغرب الإسلاميين -كعمق استراتيجى إسلامى- انصهرت فى بوتقة الجهاد ضد الصليبيين ، حتى لانقع فى مأزق التحيز لنطاق جغرافى بفعالياته التاريخية دون النطاقات الأخرى، وكل ذلك مع احتفاظنا بفكرة الخصوصية التاريخية لأقاليم بذاتها مع عدم إغفال تأثير ما يجاورها من أقاليم جغرافية نظراً لكون العزلة الجغرافية نفسها لاتصنع تاريخًا بل قد تكون عنصراً معوقًا يحول دون الفاعلية التاريخية الواجبة.

وواقع الأمر ؛ أن الهلال الخصيب وامتداده فى صورة وادى النيل كان ذلك بمثابة القاعدة الجغرافية التى انطلقت من خلالها فعاليات حركة الاستجابة الإسلامية للتحدى الصليبى فى ذلك العصر ، وينبغى التقرير هنا أن تلك القاعدة الجغرافية لاتعنى التحيز لعبقرية المكان فقط بل للإنسان نفسه كفاعل تاريخى ورد فعله للأخطار التى تواجهه مستفيداً فى ذلك من مميزات ذلك الموقع .

ومن زاوية أخرى؛ من الضرورة بمكان إدراك وجود دافع اقتصادى لاينكر لقيام قيادات حركة الجهاد الإسلامى بدءاً بنور الدين محمود وصولاً إلى الأشرف خليل بن قلاوون بتوجيه كافة قواهم السياسية والعسكرية نحو الشام ومصر أى وحدة الشام ومصر.

وواقع الأمر؛ أن وحدة المصالح الاقتصادية والتبادل التجارى على نحو خاص بين الإقليمين المذكورين مثلت حقيقة واقعية من قبل مقدم الصليبيين على نحو ضمن الانتعاش الاقتصادى لكل منهما ، غير أنه مع مقدم الغزاة إلى المنطقة، حدثت إعاقة لذلك الاتصال ، ويكفى أن الساحل الشامى كان على جانب كبير من الأهمية الاستراتيجية بحكم أنه الجسر الذى من خلاله يتم تصريف فائض إنتاج الحواضر الشامية الداخلية إلى أوربا ، وكذلك تصل إليه خطوط التجارة الدولية القادمة من شرق ووسط آسيا ، غير أنه باخضاع بلدوين الثالث لعسقلان عام ١١٥٣م / ٥٤٨هـ، تم إغلاق الساحل الشامي تمامًا وخضع للسيطرة الصليبية، ومن ثم كان اتجاه القوى السياسية الإسلامية فى بلاد الشام إلى ضم مصر من أجل أن تعوض بساحلها الممتد من غرب غزة إلى غرب الإسكندرية جزءاً من حيوية الساحل الشامى بمدنه المزدهرة ، وهكذا ؛ كانت الرغبة فى إعادة الساحل الشامى مطلبًا اقتصاديًا حيويًا، ولذلك نجد أنه بعد معركة حطين عام ١١٨٧ م / ٥٨٣هـ، أسرع السلطان صلاح الدين الأيوبى إلى فتح الساحل وإبعاد السيادة الصليبية عنه، ولاريب فى أن ذلك كان له مردوده الاقتصادى، وطوال عصر الحروب الصليبية كان هناك الصراع من أجل إعادة الساحل الشامى للسيادة الإسلامية على اعتبار أنه الامتداد الجغرافى للساحل المصرى، ولأن اقتصاد الإقليمين كل يكمل الآخر على مستوى الصادرات والواردات بحكم تعدد الإنتاج الزراعى، والحرفى لدى الشعبين، ناهيك عن روابط اللغة ، والدين ، والتجاور الجغرافى الممتدة تاريخيًا .

وقد يرى البعض أن المسلمين تاجروا مع الصليبيين ، وكانت قوافلهم تذهب إلى مناطق أعدائهم ونفس الأمر بالنسبة للأخيرين ، غير أنه من الملاحظ هنا أن مكاسب الغزاة من ذلك كانت بالأساس فى غير صالح المسلمين ؛ لأنها كانت تدعم بقاء واستمرار الاحتلال الصليبى على حساب أصحاب الأرض الأصليين وكذلك كانت تؤدى إلى رفاهية الغرب الأوربى ذاته وهو الرحم الأصلى الذى منه خرجت الحركة الصليبية، ومن الممكن إدراك أن التجارة الإسلامية الصليبية فى بلاد الشام كانت بمثابة موقف اضطرارى مفروض على المسلمين ، ولم يكن أمراً طبيعيًا ، مثل المتاجرة مع مصر على سبيل المثال، خاصة بعد خنق الصليبيين لاقتصاديات المسلمين بالسيطرة على الساحل كما أسلفت.

ومع ذلك ؛ ينبغى ألاتتصور أن الدافع الاقتصادى لاسيما التجارى كان هو الدافع الوحيد من وراء سعى قادة المسلمين الكبار إلى الشام ومصر ؛ إذ أن هناك جملة دوافع متعددة دفعت بهم نحو ذلك، فى صورة دافع الجهاد، وهو ذروة سنام الإسلام ، ثم هناك أيضًا الرغبة فى تدعيم الكيانات السياسية لأولئك القادة ، وتشترك الدوافع مجتمعة لكى تخدم فى النهاية الواقع الجغرافى والتاريخى لتلك الظاهرة المتسيدة فى ذلك العصر ، والتى وجدت من قبل مقدم الصليبيين إليها، واستمرت من بعدهم.

وهكذا، يتضح لنا أن «الشام ومصر» حينذاك كان أشبه شىء «بفلسفة تاريخ منطقة» ، لم يكن إلا أن تصب فيها كافة الدوافع وتسير فيها أنماط تاريخ الشعبين على نحو أدى إلى صالحهما فى نهاية المطاف بطرد الغزاة نهائيًا عام ١٢٩١م / ٦٩٠هـ وليستمر من بعد ذلك فى التاريخ الوسيط، والحديث، والمعاصر إلى ما شاء الله تعالى(٢٢).

ذلك عرض لأمر «الشام ومصر» كمدخل لفهم الاستجابة الإسلامية للتحدى الصليبى.

الهوامش

١- عنها أنظر : William of Tyre, vol .I, p. 189 , vol . II, p. 140-143.

عليه الجنزورى ، إمارة الرها الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٨٦م.

٢- سوسن محمد نصر ، «منطقة الجزيرة الفراتية والوحدة خلال القرن السادس الهجرى »، مجلة الشرق الأوسط، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس العدد (٧) ، عام ١٩٩٠م، ص٩٨ .

٣- محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ، ص٨٦ .

٤- أفضل الدراسات عن إمارة أنطاكية الصليبية نجدها فى صورة:

Cahen, La Syrie du nord a' L'epoque des Croisades, Paris 1940 .

حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة الاسكندرية عام ١٩٨١م، إمارة أنطاكية والمسلمون، ط. الاسكندرية ١٩٨٩م.

٥- عن ذلك الخط الدفاعى الاستراتيجى أنظر: كمال بن مارس ، العلاقة بين الموصل وحلب وأثرها على الحرب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٩١م.

٦- عن إمارة طرابلس الصليبية انظر:

Richard, la Comte de Tripolis sous la Dynastie Toulousaine , Paris 1945 .

السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى، ط. الاسكندرية ب-ت، ص١٣٥-٢٣٢ .

٧- أنظر عن ذلك التعبير: محمد مؤنس عوض، المرجع السابق ، ص١٣ .

١٨- محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون فى بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ص٣٠٥ .

٩- جمال حمدان ، شخصية مصر دراسة فى عبقرية المكان ، ط. القاهرة ٢٠٠٠م، ص١٨٢ .

١٠- سليمان حزين ، « توسع العرب وانتشار الإسلام» ضمن كتاب إسلاميات لمجموعة من الباحثين ، ط. القاهرة، ب-ت، ص٨٠ .

١١- عن الأخدود الأفريقى أنظر:

محمد صبرى سليم، الظاهرات الجيمورفولوجية الرئيسية دراسة تحليلية، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص٢٧-٢٩ ، يسرى الجوهرى ، الوطن العربى دراسة فى الجغرافية التاريخية والإقليمية ، ط. الإسكندرية ١٩٧٩م، ص١٩٨ ، محمد سامى عسل، الجغرافية الطبيعية ، ط. القاهرة ١٩٧٣م، ص١٦٠ ، سويترتون، الأرض من تحتنا ,ت . محمد يوسف حسن وفتح الله معوض ، ط. القاهرة ب-ت، ص٥٥ ، فتحى أبوعيانه ، جغرافية أفريقية، دراسة إقليمية مع التطبيق على دول جنوب الصحراء ، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص٨٢، ص٨٤ ، محمد مؤنس عوض ، الزلازل فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ، ط. القاهرة، ١٩٩٦م، ص٧٢ ، حاشية (٢٤).

١٢- حتى ينسب الفضل لأهله حتى لو كانوا تحت الثرى ؛ أود التقرير بأن العالم الراحل أ.د. محمد عبد الهادى شعيرة نبه الباحثين إلى الاهتمام بارتباط الاقليمين المتجاورين .

١٣- شخصية مصر، ص٩٨ .

١٤- William of Tyre , vol. I, p. 223-224 .

أيضًا انظر من الجانب العربى: ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠، ص١٠١ .

١٥- عنها : William of Tyre , vol . I, p. 394

محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص٩٠ .

١٦- نفسه ، نفس المرجع، ص١٨٦ .

١٧- عن معركة حطين أنظر:

The Old French Continuation of William of Tyre 1194-1197, in The Conquest of JerJerusalem and the Third Crusade Sources in Translation , ed. by P.W. Edbury, Hampshire 1996, pp. 158-163 .

ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٧٥-٧٩ .

The Horns of Hattin , ed. by B.Z. Kedar, Jerusalem 1992 .
Kedar , "The Battle of Hatin revised", in The Horns of Hattin ed. by kedar, Jerusalem 1992, pp. 190-207 .

ديفيد جاكسون ، «معركة حطين والاستيلاء على القدس»، ضمن كتاب حطين صلاح الدين والعمل العربى الموحد، ط. القاهرة ١٩٨٩م، ص٨٩-١١٠ ، جوزيف نسيم يوسف، «معركة حطين خلفياتها ودلالاتها» ، ص٢٣٥-٢٥١ ، سعيد عاشور، «حطين وقائع وعبر» ، العربى، العدد (٣٤٤)، يوليو ١٩٨٧م، ص٤٢-٤٥ .

١٨- عن اتفاقية يافا أنظر: الفصل السابق ص١٣ ، هامش (٣٥) .

١٩- عن سقوط أنطاكية أنظر :

شافع بن على ، الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، ط. صيدا ١٩٩٨م، ص١٤٩-١٦٠، المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط. القاهرة، ص٧٤٦-٧٤٧ .

٢١- عن سقوط عكا أنظر: بيبرس الدوادارى ، زبدة الفكرة، ص٣٢٥، أبوالفداء، المختصر ، جـ٤ ، ص٢٦ .

٢٢- أوضح الأمثلة الدالة على الارتباط بين الشام ومصر فى التاريخ المعاصر ما نجده عندما اتحدت جيوش مصر وسوريا فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣م، وتعاونت معًا فى سبيل تحطيم أسطورة الجيش الإسرائيلى الذى لايقهر ، وبعد ست ساعات من بداية العمليات العسكرية كانت تلك الأسطورة تشهد حتفها.

الفصل الثالث

من عوامل إخفاق المشروع الصليبى

يتناول هذا الفصل بالدراسة؛ عدداً من عوامل إخفاق المشروع الصليبى الذى شنه الغرب الأوربى الكاثوليكى على الشرق الأدنى الإسلامى فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى، ويتعرض لتلك العوامل سواءً الداخلية التى ترجع إلى الوجود الصليبى ذاته وسياساته فى المنطقة، ثم العوامل الخارجية المتعلقة بالمسلمين أنفسهم، وموقف عناصر من المسيحيين الشرقيين ومقاومتهم للصليبيين.

وبداية : من الممكن القول: أن التعرض لمثل هذا الموضوع يجعل المرء يواجه قدراً من الصعوبة خاصة إذا مالاحظنا أن المصادر التاريخية المعاصرة سواءً لدى الجانب الصليبى أو الإسلامى لاتوضح لنا بصورة مفصلة عوامل إخفاق ذلك المشروع، وهكذا : نجد مادة تاريخية ضئيلة ومتناثرة هنا ، وهناك : من الممكن الإفادة منها من أجل تكوين تصور عام عن موضوع الدراسة.

ويضاف إلى ذلك : أن المؤرخين المعاصرين لاسيما لدى الجانب الصليبى جعلوا جل اهتمامهم منصبًا نحو الأحداث السياسية، والحربية، ولم يكن اهتمامهم بنقد كيانهم فى بلاد الشام بذات القدر وتوضيح عوامل القصور الداخلية فيه.

مهما يكن من أمر؛ من الممكن القول بأن العوامل الداخلية من الممكن إجمالها فى تعصب وعنصرية المشروع الصليبى، كذلك عدم تجانس البنية السكانية الصليبية، والاعتماد على الغرب الأوربى وسلبياته. والعجز عن توسيع حدود الصليبيين خارج النطاق الآسيوى، ثم هناك الجانب السلبى فى دور عناصر الرهبان الفرسان Fighting Monks ، ثم لانغفل المشكلات السياسية والمالية التى عانى منها الصليبيون ، وإخفاق المشروع الصليبى فى مجال التنصير، كذلك هناك ما يوصف بفجوة الأجيال الصليبيــة، أما العوامل الخارجية والمتصلة بالمسلمين فيمكن إدراكها فى صورة نجاح حركة الجهاد الإسلامى ضد الغزاه فى تحقيق أهدافها مرحلة تلو أخرى إلى أن تمكنت من فرض السيادة السياسية الإسلامية الكاملة على مناطق الصليبيين فى بلاد الشام، ثم موقف المسيحيين المحليين فى الشام ومصر من المشروع الصليبى، ومن الملاحظ

أن كافة تلك العوامل السابقة تفاعلت معًا على مدى عشرات السنين : على نحو أدى إلى إجهاض الأهداف الكبرى التى علقها الغرب الأوربى على مشروعه الاستعمارى الكبير خلال حقبة العصور الوسطى، وسيتم تناول كل عامل من العوامل المذكورة كل على حدة؛ مع عدم إغفال تأثير كافة العوامل الأخرى مجتمعة.

وفيما يتعلق بتعصب وعنصرية الحركة الصليبية؛ من الملاحظ أن الباحث المتأمل لوقائع تاريخها يدرك من فوره أنها ذات طابع تعصبى عنصرى ضد كل ما هو غير مسيحى كاثوليكى، ولذلك فلاعجب أن ارتبط بها طابع دموى لاينكر، وظهر منذ البواكير الأولى للمشروع الصليبى أنه مشروع دموى تتكرر فيه المذابح التى أقامها الصليبيون ضد أعدائهم خاصة من المدنيين، وخلال ذلك تم الفتك بعشرات الآلاف من أعدائهم ، وجاء ذلك وسط موجة عارمة من العداء، والكراهية ، والرغبة الجامحة فى الفتك بكل من لايدين بالمسيحية الكاثوليكية وبصفة عامة؛ يندر أن يكتب تاريخ الصليبيين دون التعرض للمذابح التى ارتكبوها سواءً على الأرض الأوربية ذاتها أو فى بلاد الشام ومصر، ومن أمثلتها المذابح التى ارتكبها الصليبيون ضد اليهود فى حوض الراين عام ١٠٩٧م/ ٤٩١هـ، وهو أمر ضمته الحوليات اليهودية مثل حولية سولومون بار سمسون Solomon bar Simson ، والربى اليزار بارناتان Rabi Eliezar bar Nathan ، ورواية الاضطهاد القديم The Narrative of the Old Persecution ، وهى مذابح أثبتت بجلاء تعصب الحركة الصليبية حتى منذ بدايات ميلادها ، وعلى «الأرض الأم» التى أنجبتها، وجاءت مقدمة لمذابح تالية ستحدث بضراوة على أرض بلاد الشام، وذلك مع عدم إغفال أن سلوك اليهود أنفسهم وإتباعهم أسلوب الإفتراض بفوائد باهظة أو العمل بالربا، وتقوقعهم فى الأحياء اليهودية أو «الجيتو» فى المدن الأوربية التى عاشوا فيها : كان من عوامل عداء الغرب الأوربى لهم وليس ذلك بالطبع بمثابة تبرير المذابح البشعة التى ارتكبت ضدهم حينذاك .

أما فيما يتعلق بالمسلمين : فكان لهم نصيبهم الأوفر من دموية المشروع الصليبى، ولا أدل على ذلك من المذابح التى حدثت على مدى الطريق من أنطاكية إلى بيت المقدس، ووصلت ذروتها فى المدينة الأخيرة، حيث جرت مذبحة مروعة خلال المدة من ١٥ إلى ٢٥ يوليو ١٠٩٩م/ ٤٩٢هـ فى أعقاب استيلاء الصليبيين عليها، وفيها تم الفتك بعشرات الآلاف من المسلمين، وتقرر المصادر الصليبية ذاتها، وحتى من شهود العيان مثل المؤرخ المجهول صاحب الجستا Gesta أن الخيول الصليبية كانت تخوضُ فى دماء الضحايا المسلمين حتى ركبها، وأن

جماجم القتلى لوجمعت لأقامت أسواراً تفوق أسوار مدينة بيت المقدس ، ولاريب فى أن استمرار تلك المذبحة البشعة على مدى عشرة أيام كاملة : يعكس لنا دموية الغزاة بصورة وضاحة فى مدينة وصفت بأنها مدينة السلام !!! .

وبصفة عامة : صارت تلك المذبحة ماثلة فى العقل الجمعى المسلم ولم يكن من الممكن لتعاقب السنوات أن تجعل المسلمين ينسونها بل ترددت لدى المعاصرين واللاحقين ، ودعمت العداء تجاه الغزاة الذين بدأوا تاريخهم فى المنطقة تلك البداية الدموية المروعة، ودل ذلك - فيما دل - على أن مملكة بيت المقدس ولدت على أرض مغطاة بدماء المسلمين .

ويلاحظ : أن الأسلوب الدموى امتد فيما بعد ليصيب المدن المسيحية الكبرى ذاتها، وخير مثال دال على ذلك القسطنطينية خلال الصليبية الرابعة فى عام ١٢٠٤م / ٦٠٢هـ التى سقطت على أيدى الصليبيين وقد قتل العديدون من البيزنطيين واغتصبت الراهبات فى الأديرة، ودخل الجنود الذين لعبت الخمر برؤوسهم كنيسة أياصوفيا ، وأحضروا إحدى العاهرات لتجلس على العرش البطريركى، وجعلوها تنشد الأغانى البذيئة وترقص الرقصات الرخيصة أمام مذبح الكنيسة، واستعملت الأوانى التى من المفترض أنها طاهرة فى احتساء الخمر، واستمر ذلك المسلك فى مدينة قسطنطين مدة ثلاثة أيام، فلاعجب إذا وجدنا ابنها نيكتاس خونياتس يرثيها رثاءً مريراً قائلاً: «أيتها المدينة ، يا حديث العالم، يا منار الأرض ، يا حامية الكنائس، ويا سيدة الإيمان ، يا قلعة العلم، لقد تجرعت كأس غضب الله حتى الثمالة ، ولقد حاق بك آتون أكثر بشاعة من ذلك الذى أصاب قديمًا المدن الخمس»(٤)، ولانغفل أنه أمام كل ذلك الخراب تمنى ذلك المؤرخ لو أن مدينته سقطت على أيدى المسلمين لا اللاتين الغربيين لأنهم ما كانوا يفعلوا بها ما حدث لها .

والواقع أن خطورة ذلك الطابع الدموى والتعصب الشديد الذى أظهره الصليبيون أن المشروع الصليبى حكم على نفسه بالموت- مهما طال عمره- منذ اللحظات الأولى لظهوره لساحة الواقع التاريخى المعاش !!! فالتاريخ الإنسانى عمومًا: يكشف لنا أن البقاء فيه دومًا للحركات المتحضرة المسالمة التى لاتسفك دمًا بل تتجه إلى التشييد، والبناء، والمشروع الصليبى ظهر إلى الوجود كحركة استعمارية (أى استخرابية) هدفت إلى سلب ونهب خيرات الشرق، ولم يظهر أى تحاور مع أهل الأديان الأخرى لاسيما اليهودية والإسلام ، وهكذا: حكم على نفسه بالانغلاق ، والتقوقع ناهيك عن العجز عن تقديم البديل الحضارى لأبناء المناطق التى تعرضت له لأمر يسير: وهو أنهم كانوا أعظم حضارة بمراحل بالمقارنة بالصليبيين أنفسهم.

وحقيقة الأمر؛ أن الصليبيين عكسوا تفوقًا عسكريًا وتخلفًا حضاريًا ، وهو أمر اتضح بجلاء مع الاستقرار في المنطقة ودخول الطرفين في علاقات غير عسكرية الطابع على نحو كشف عن البون الشاسع بينهما، ويلاحظ أن ذلك البون ظل يزداد اتساعًا طوال قرني وجود الصليبيين في المنطقة دون أن يتمكن الأخيرون من إيجاد أية حلول للفجوة الحضارية القائمة بينهم وبين المسلمين.

ومن الملاحظ أن خطورة تعصب المشروع الصليبي وما ارتبط به من دماء وسلب ونهب لموارد أبناء المنطقة ؛ كونه أدى إلى عدم اكتسابه مشروعية الوجود لدى جيران الصليبيين من المسلمين الذين ناصبوهم العداء المتزايد يومًا بعد يوم إلى أن طردوهم من بلادهم إلى غير رجعة.

أما فيما يتصل بعدم تجانس التركيبة السكانية الصليبية ، فمن الجلي البين أن المشروع الصليبي جذب إليه -من خلال الإغراءات المادية- أعداداً غفيرة من أبناء الغرب الأوربي ولذلك شارك فيه الفرنسيون، والإيطاليون ، والألمان، والإنجليز، والنريجيون[٦] ، والسويديون، والدنماركيون وغيرهم وهم على خلاف بين بعضهم البعض في مناطق بلادهم الأصلية على الأرض الأوربية مثل العداء بين الفرنسيين والإنجليز وكذلك بين الإيطاليين والألمان إلى غير ذلك، وعندما استقرت تلك الشعوب في بلاد الشام ؛ عاشت ككيانات منفصلة عن بعضها البعض، بل نقلت خلافاتها إلى أرض الشام، وتنافس الجميع تنافسًا محمومًا من أجل سلب ونهب خيرات البلاد التي اعتبروها الوطن الجديد Patria Nova بالنسبة لهم، وجاء ذلك التنافس المحموم ليدعم التناحر بين عناصر السكان الصليبيين.

وحقيقة الأمر؛ أن الشعور بالخطر وسط محيط سكاني إسلامي كبير، وبقاء الصليبيين كجزر منعزلة في بلاد الشام ، والجزيرة قد جمع شملهم أحيانًا؛ إلا أنه لم يستطع جعلهم ينسون الخلافات السياسية الأصلية في بلادهم، ناهيك عن أن المجتمع الصليبي شهد احتدام ظاهرة التنافس ، والتصارع من أجل الفوز بأكبر نصيب من الثروة ، ثم أن الجنسيات المتعددة التي وجدت داخل الكيان الصليبي اختلقت في أعدادها ومنها من كانت أعداده وفيرة مثل عناصر الفرنسيين، ومنهم من كان يعاني من قلة العدد، وقد اتضح ذلك بجلاء لدى الألمان مثلاً، وأدرك تلك الملاحظة المهمة أحد الرحالة الألمان الذين زاروا المملكة الصليبية في ستينيات القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري، وتمنى ازدياد عدد الألمان في مناطق الصليبيين[٧].

وإذا أضفنا إلى ذلك كله : أن أبناء المدن التجارية الإيطالية مثل البيازنة ، والجنوية ، والبنادقة تزايد نفوذهم من خلال براعتهم فى عقد الصفقات التجارية، والإفادة من الامتيازات التجارية التى قدمتها لهم المملكة الصليبية وهو أمر لم يتوافر لدى الجنسيات الأخرى بنفس القدر : أدركنا كيف أن تلك المملكة توصف بالفعل بأنها كانت مملكة «متفجرة» من الداخل من خلال الاختلاف والتناحر والتنافس بين أبنائها المختلفين أصلاً فى العديد من الجوانب ، فلا عجب والأمر كذلك أن نشبت حرب أهلية عنيفة فى صفوف الصليبيين كما حدث بشأن ديرساباس[٨] عامى ١٢٥٧-١٢٥٨م / ٦٥٥-٦٥٦هـ حيث سقط الآلاف منهم قتلى باعتراف مؤرخيهم أنفسهم.

وفيما يتصل باعتماد الكيان الصليبى على الغرب الأوربى، من الملاحظ أن ذلك الكيان بكل معانى الكلمة كان صنيعة أوربية على أرض الشرق، وظل الارتباط وثيقًا بين مملكة بيت المقدس الصليبية والغرب الأوربى الذى وفر للمشروع الصليبى كل دعم مادى، ومعنوى على نحو مكنه من الاستمرار فى مواجهة المسلمين لمدة قرنين كاملين من الزمان (القرنان ١٢ ، ١٣ م / ٦،٧هـ) ومع ذلك : فإن الارتباط بالغرب الأوربى كان عنصراً من عناصر ضعف الصليبيين أحيانًا ، فالملاحظ أن الصليبيين لم تتوافر لهم ميزة الاعتماد على أنفسهم فى مواجهة أعدائهم من المسلمين، وهكذا نجد أن تاريخهم يحوى جانبًا تقليديًا ، فكلما اشتدت ضربات حركة الجهاد الإسلامى ضد الغزاة وتمكن المسلمون من إسقاط إمارة صليبية أو مملكة بيت المقدس الصليبية ذاتها؛ استغاث الصليبيون بالغرب الأوربى تنفيذاً للحلف الدفاعى الاستراتيجى القائم بين الجانبين ، ومن ثم قدمت الجيوش الصليبية الغربية براً وبحراً لنجدة صليبيى الشرق، وهو أمر وجدناه فى أعقاب سقوط إمارة الرها الصليبية عام ١١٤٤م / ٥٣٩هـ، وكذلك كان شأن الصليبية التى قدمت فى أعقاب نجاح حركة الجهاد الإسلامى فى إسقاط مملكة بيت المقدس الصليبية عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ ، وغيرها من الحملات .

ومن الأمور المقررة : أن الحملات الصليبية التى قدمت إلى المنطقة من أجل نجدة الصليبيين؛ باءت بالخسران المبين فيما عدا الحملة الأولى، وأثبتت - فيما أثبتت- عجز الصليبيين المحليين فى بلاد الشام عن تغيير الواقع السياسى، والعسكرى الذى أوجدته حركة الجهاد الإسلامى من خلال الاعتماد على مواردهم وإمكانياتهم المحلية، وهكذا ظل الوجود الصليبى أشبه شىء بجنين لم يكتمل نموه ، وظل ارتباطه بالوطن الأم بالغرب الأوربى يعكس

ظاهرة مرضية أكثر من كونها ظاهرة صحية . ولانغفل أن خطورة الوضع السابق أن صار الغرب الأوربى البعيد بمسافات شاسعة عن الصليبيين فى بلاد الشام بمثابة العمق الدفاعى الاستراتيجى لهم، بينما كانت مناطق العمق الدفاعى الاستراتيجى للمسلمين فى بلاد الشام ومصر، والعراق، وتقدم دعمها فى أقصر وقت ممكن . أما العمق الأوربى ؛ فقد احتاج وقتًا ليس بالقصير من أجل الوصول إلى الشرق بالطريق البرى أو البحرى دعمًا لهم، ولانغفل أنه بالنسبة لقضايا الحسم العسكرى كانت الأسابيع القليلة يمكن أن تحدث تغيراً استراتيجيًا، ومن ثم كان الارتباط بالغرب البعيد لم يكن جميعه مزايا بقدر ما كان يحمل فى طياته نقاط ضعف بالنسبة للصليبيين لايمكن تجاهلها فى تقييم الموقف التاريخى ذاته.

ويضاف إلى ذلك كله ؛ أنه فى القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى، وعندما بدأ الغرب الأوربى يدرك فداحة الثمن الذى دفعه من أجل دعم المشروع الصليبى فى الشرق ظهرت تيارات معارضة للذهاب هناك، ولم تعد «القضية الصليبية» تلقى الحماس الكبير الذى كانت تجده من قبل فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى ، وهكذا تأكد لنا أن المشروع الصليبى كان تحت رحمة الوطن الأم فى الغرب من خلال اشتداد الحماس أو فتوره ، الأمر الذى يعكس لنا أن الصليبيين كان يتهددهم فى الواقع خطران متعاصران ومتوازيان بصورة تدعو للدهشة، خطر اشتداد حركة الجهاد الإسلامى فى الشرق ، وخطر فتور الدعم المادى ، والمعنوى لهم فى الغرب ؛ على نحو يكشف لنا حقيقة الأمر ، وأن ما كان عنصراً للتفوق من قبل؛ تحول بالتدريج ليصبح نقطة ضعف للغزاة الذين فصل البحر المتوسط عن منابع حركتهم ووطنهم الأم الذى كانت له ظروفه السياسية المغايرة ، والتى لم تكن فى صالح قضية الصليبيين فى الشرق بصورة مستمرة.

ولايفهم من خلال العرض السابق ؛ أن دور الغرب الأوربى فى دعم المشروع الصليبى فى الشرق كان محدوداً ، بل الواقع عكس ذلك تمامًا إذ ساعد ذلك الصليبيين على البقاء فى عدة أحيان، غير أنه كان من عوامل ضعفهم فى أحيان أخرى ، وتتضح لنا الصورة من خلال إدراكنا إلى حقيقة التناحر بين عناصر الصليبيين المحليين الذين استقروا فى المنطقة منذ عقود عديدة بعد نجاح الحركة الصليبية فى فرضهم على المنطقة ، وبين الوافدين الجدد من الغرب الأوربى، وهو تناحر لم يكن من الممكن مواجهته على نحو يسير.

نخلص من ذلك كله إلى مقولة محددة، وهى أن ارتباط مملكة بيت المقدس الصليبية بالغرب

الأوربى مثلما كانت له إيجابياته بالنسبة للصليبيين إلا أنه كانت له سلبياته كذلك، وينبغى ألا ننظر إلى القضية من زاوية واحدة ونغفل التصورات الأخرى، مع تقديرى الكامل- مسبقًا- لكافة الآراء المعارضة لمثل ذلك التصور الذى يحتمل الصواب، والخطأ بطبيعة الحال.

أما فيما يتصل بعجز الصليبيين عن توسيع حدودهم خارج النطاق الآسيوى؛ فهى حقيقة أكدتها وقائع التاريخ على مدى قرنين كاملين . فقد عجز ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية وفرنسا من مد نفوذهم إلى الجبهة الإفريقية سواءً فى مصر أو فى تونس وباءت كافة مجهوداتهم فى هذا الصدد بالفشل المبين على الرغم من النفقات الباهظة التى انفقوها من أجل تحقيق ذلك الحلم، وأدى ذلك الوضع إلى أن صار الصليبيون فى نطاق بلاد الشام، والجزيرة، وسط محيط إسلامى معادٍ ؛ لاسيما بعد تعاظم تأثير الوحدة فى صفوف أعدائهم من المسلمين، لقد تأكد بالفعل أن الغزاة الذين نجحوا فى تأسيس إمارات لهم فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى، وأوائل القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى ، ظلوا أسرى بلاد الشام، والجزيرة، وعجزوا عن تطوير أملاكهم ، وتوسيع حدودهم إلى أفريقيا ، وعلى الرغم من تعاقب الملوك الصليبين، واحداً بعد آخر ، وعلى الرغم من تعدد محاولات السياسة الخارجية الصليبية التوسع صوب الجبهة الأفريقية غير أنهم فشلوا فشلاً ذريعًا ، مع ملاحظة أن أعداءهم من المسلمين امتلكوا جبهة آسيوية وأخرى أفريقية ، وصار وجودهم فى بلاد الشام- خاصة بعد إسقاط الرها عام ١١٤٤م / ٥٣٩هـ - بمثابة نطاق جغرافى طولى صغير يعانى من الانعزال، وعدم الاعتراف به من جانب جيرانه من المسلمين، وكذلك عدم القدرة على توسيع حدوده أبعد من نطاقه التقليدى الذى رسم له منذ السنوات الأولى لمقدم الصليبيين إلى المنطقة بجيوشهم الجرارة .

ومن الممكن القول دون مبالغة ؛ أن عقدة تاريخ الصليبيين الأساسية على مدى تاريخهم فى المنطقة تمثلت فى العجز عن مد سيادتهم إلى أفريقيا ، وعجز كيانهم الصغير عن تجاوز تلك العقدة على الرغم من كافة المساعدات البشرية، والمالية التى رصدها الغرب الأوربى من أجل تحقيق مصالحة فى المنطقة من خلال الصليبيين أنفسهم.

ويضاف إلى ما سبق ؛ هناك مساوئ الهيئات الدينية الحربية الصليبية وأثرها على تاريخ الصليبيين فى المنطقة، خاصة الاسبتارية Hospitallers ، والداوية Templars، ويلاحظ أن الفرق المذكورة ، وغيرها مثل تنظيم التيوتون Teutonic Order، والقديس لازاروس St.

Lazarus ، والقديس توماس St. Thomas ، قامت أصلاً لدعم الكيان الصليبى، إلا أن أخطرها فى صورة الاسبتارية والداوية كان لها جانب سلبى على ذلك الكيان الصليبى، فقد زادت مكاسبها ، وصارت تسيطر على ممتلكات شاسعة فى الشرق اللاتينى ، وفى الغرب الأوربى[١١] وأخضعت لسيادتها العديد من القلاع الحصينة ، وتزايد نفوذها وبالتدريج صارت أشبه شئ بدولة داخل الدولة الصليبية بل نلاحظ أنها لم تكن مسئولة إلا أمام البابا فى روما، ولم تكن لها أدنى مسئولية تجاه الملك الصليبى، ولذلك وجدناها فى أحيان عديدة تهتم بمصالحها السياسية عن مراعاة مصلحة الكيان الصليبى، ولذلك عارضت أحياناً قرارات القيادة السياسية الصليبية العليا ، ونجد أن الداوية على سبيل المثال؛ تحول دورها إلى الجانب المصرفى وتزايدت ثرواتها على نحو أقرضت معه الملوك الصليبيين مثلما لاحظنا خلال حملة الملك الفرنسى لويس التاسع Louis IX على مصر عام ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ الذى عندما أسر فى دار ابن لقمان عقب إخفاق حملته الصليبية ؛ تم الحصول على الفدية اللازمة لإطلاق سراحه من أموال الداوية[١٢] على نحو عكس مدى اتساع نفوذ الهيئة المذكورة .

ومن زاوية أخرى؛ تنافست الهيئتان الاسبتارية والداوية على السلطة والنفوذ ، وأدى ذلك التنافس إلى أسوأ النتائج بالنسبة لتاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية، فلاعجب إذا اعتبر المؤرخون صراع مثل تلك الهيئات من عوامل انهيار الوجود الصليبى، ومن الأمور ذات الدلالة أن من المؤرخين الصليبيين مثل وليم الصورى، وغيره من وجه النقد لتلك الهيئات [١٣]، وكأنه - بفضل رؤيته المستقبلية- أدرك بثاقب بصره خطورة دورها من خلال مطامعها التى لاتحد ، غير أن ذلك المؤرخ الصليبى البارز كان أشبه شىء بزرقاء اليمامة ولم يلتفت أحد من معاصريه إلى خطورة تصوراته ناهيك عن أنه نفسه توقع سقوط مملكة الصليبيين من قبل حدوث ذلك[١٤]، وقد أكدت وقائع التاريخ صدق تصوراته خاصة عندما دخل السلطان صلاح الدين الأيوبى بيت المقدس منتصراً عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ فى أعقاب معركة حطين الحاسمة بعد قرابة عامين فقط من رحيل ذلك المؤرخ الصليبى.

وهكذا؛ نجد الهيئات الدينية الحربية الصليبية التى شيدت من أجل حماية الكيان الصليبى منها ما أدى إلى إضعافه، وخطورة الموقف أن عوامل الضعف كانت تحدث تأثيراتها المدمرة من الداخل وببطء ؛ ولذلك لم يستشعر الكثيرون من المعاصرين خطورة الأمر.

أما المشكلات السياسية والإدارية ؛ فنذكر من أمثلتها ما كان يحدث من صراع على السلطة كما حدث بين ميلزندا أم بلدوين الثالث وابنها، حيث مارست الوصاية عليه مدة طويلة

وعندما بلغ سن الثانية والعشرين لم توافق على التنازل له عن السلطة ، وقد اتفقت مع بطريرك بيت المقدس على إعادة تتويجها مع ولدها ، بل إن بعض مؤيديها وضعوا مشروعًا من أجل تقسيم المملكة الصليبية بين بلدوين الثالث وأمه : فتنال ميلزندا بيت المقدس، ونابلس، ومتعلقاتهما. وتقوم هى بترك المناطق الساحلية مثل صور ، وعكا ، وملحقاتهما لبلدوين الثالث ، غير أن الأخير رفض ذلك، وأصر على أن يتوج منفرداً؛ مما أدى إلى حدوث حرب أهلية بين الطرفين عام ١١٥٢م / ٥٤٧هـ، وقد انقسم الصليبيون إلى فريقين كل يؤيد أحد جانبى الصراع، وانتهى الأمر بانتصار بلدوين الثالث الذى تم تنصيبه ملكًا على مملكة بيت المقدس الصليبية[١٥].

زد على ذلك؛ أن خلو إحدى الإمارات الصليبية؛ من جراء مقتل أميرها فى ساحة الوغى، كان ذلك سببًا كافيًا لانتقال الملك الصليبى إليها من أجل إقرار الأمور فيها فى أعقاب الفراغ السياسى الذى حل بها، على نحو كان يعرض الوجود الصليبى ذاته للخطر من جراء إمكانية استغلال القوى الإسلامية تلك الظروف العصيبة لشن هجمات عسكرية تلو الأخرى على مناطق الصليبيين ، وخير مثال دال على ذلك ما نجده فى ظروف معركة أنب عام ١١٤٩م / ٥٤٤هـ التى انتصر فيها نور الدين محمود على أمير أنطاكية ريموند دى بواتييه Raymond de Poitiers (١١٣٦-١١٤٩م / ٥١٩-٥٤٣هـ)، حيث اتجه الملك بلدوين الثالث إلى الانتقال إلى إمارة أنطاكية ؛ من أجل إدارة أمورها فى أعقاب مصرع أميرها فى المعركة المذكورة[١٦]، وحتى يتم تنصيب أمير صليبى جديد عليها.

زد على ذلك؛ أن الصليبيين عانوا - على مدى- تاريخهم فى بلاد الشام- من عدم توافر السيولة النقدية فى أحيان عديدة،[١٧] خاصة أن الدعم المادى من الغرب الأوربى لم يكن منتظمًا بطبيعة الحال، وعرضة للتقلبات السياسية، والاقتصادية ، ويلاحظ أن إعداد حملات صليبية تتجه إلى الشرق لم يكن بالأمر اليسير، فيكفى أن تذكر أن رحلة الحاج إلى الأرض المقدسة احتاجت إلى توفير نفقات عام كامل من أجل تحقيق ذلك الحلم، فما بالنا بجيوش كاملة تذهب ليس للحج بل للحرب، ولذلك وجدنا ملوك الغرب الأوربى يسعون جاهدين إلى فرض ضرائب من أجل دعم الاشتراك فى المشروع الصليبى، ومن أمثلها الضريبة التى فرضها هنرى الثانى Henry II ملك انجلترا عام ١١٦٦م / ٥٦١هـ لمعاونة مملكة بيت المقدس الصليبية، وكذلك الضريبة التى فرضت عام ١١٨٨م / ٥٨٤هـ من جانب ملكى فرنسا،

وانجلترا وهى التى عرفت باسم «عشر صلاح الدين» ، وجميع تلك الضرائب سعى فارضوها إلى تقديم الدعم المالى للصليبيين فى بلاد الشام، ويلاحظ أن ذلك كله لم يضمن للأخيرين الدعم المستمر، ولذلك لجأوا إلى القيام بأعمال السلب، والنهب للحصول على أكبر من الغنائم من خلال هجومهم على مناطق المسلمين الثرية زراعيًا ورعويًا خاصة خلال مواسم الحصاد بالإضافة إلى سلب القوافل التجارية الثرية ونحوها، وذلك الوضع يفسر لنا لماذا لم يلتزم الصليبيون بتعهداتهم التى قطعوها على أنفسهم أحيانًا مع المسلمين بعدم التعرض لأملاكهم بالاعتداء ، على نحو عرضهم للنقد الشديد من جانب كبير مؤرخيهم فى ذلك العصر [١٨].

يضاف إلى ذلك؛ أن مملكة بيت المقدس الصليبية واجهت مشكلات اجتمع فيها البعدان الإدارى والمالى، فعندما تزايد نفوذ أحد أمراء الأطراف نتيجة تزايد ثروته مستغلاً فى ذلك موقعه الاستراتيجى ، وجدت المملكة صعوبة بالغة فى فرض إرادتها عليه، وخير مثال دال على ذلك، الفارس الفرنسى رينو دى شاتيون Renauld de Chatillon [١٩] المعروف فى المصادر الصليبية باسم إرناط الذى تولى إمارة شرق الأردن وسيطر على حصن الكرك، وهدد طريق الحجاج المسلمين الذاهبين إلى الأماكن المقدسة الإسلامية فى الحجاز، وقام بنهب قافلة إسلامية، ورفض الانصياع لأوامر الملكية الصليبية عندما أرادت إلزامه برد ما سلب للسلطان الأيوبى، وكان ذلك الأمر بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير، وعُدَّ من مقدمات معركة حطين الفاصلة عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ .

ومن ناحية أخرى؛ نجد أن من عوامل إخفاق المشروع الصليبى: فشل مجهودات الغزاة فى تنصير أبناء المنطقة ، وتحويلهم عن الإسلام ليكونوا مسيحيين كاثوليك يتبعون الكنيسة الأم فى روما، ومن الملاحظ أنه سيتم تناول ذلك العنصر فى فصل مستقل عن المسيحية والإسلام بين الاعتناق والارتداد فى عصر الحروب الصليبية[٢٠].

ويضاف إلى ذلك؛ من أهم العوامل التى أدت إلى إخفاق المشروع الصليبى على الرغم مما حشد له من إمكانات مادية وبشريه كبيرة: ما يمكن وصفه «بفجوة الأجيال الصليبية»، وهى زاوية لها شأنها فى تعليل تاريخ ذلك العصر، فالمتتبع لمسيرة تاريخ الصليبيين فى الشرق يدرك أن هناك فجوة لاتنكر بين جيل التأسيس الذى شيد الإمارات الصليبية، ومملكة بيت المقدس ذاتها فى بلاد أعالى الفرات وبلاد الشام، ومن أعلامه جودفرى دى بويون [٢١]، وبلدوين دى بويون (الملك بلدوين الأول) [٢٢] وبوهيمند[٢٣] وتانكرد وغيرهم[٢٤]- مع ملاحظة

أن أبرزهم بالفعل المؤسس الفعلى لمملكة الصليبيين ونعنى به بلدوين الأول- وبين الأجيال الصليبية التالية، حقيقة أنه بعد تلك المرحلة ظهر عدد من الملوك الصليبيين الكبار مثل بلدوين الثانى[٢٥]، وفولك أوف انجو[٢٦]، وبلدوين الثالث [٢٧]، وعمورى الأول [٢٨]؛ إلا أنهم لم يكونوا بمثل درجة كفاءة جيل التأسيس البارز التأثير فى تاريخ الصليبيين ، مع ملاحظة أن الملك الأخير، وهو عمورى الأول ، هو أبرز ملوك مرحلة ما بعد التأسيس وبوفاته عام ١١٧٤م / ٥٧٠هـ، تأكد لنا بجلاء عدم قدرة «الرحم» الصليبى على إنجاب قادة بارزين مثلما حدث من قبل ، بل إن وفاته تركت فراغًا سياسيًا كبيراً أضر تمامًا بالصليبيين وجاءت معركة حطين الحاسمة لتقضى على المملكة الصليبية خلال تلك الأثناء وتملأ ذلك الفراغ السياسى الذى طال على مدى المرحلة من ١١٧٤م/ ٥٧٠هـ إلى ١١٨٧م / ٥٨٣هـ من خلال ضعف نوعية الملوك الصليبيين أنفسهم. ولانغفل هنا؛ أنه طوال القرن التالى لتاريخ الصليبيين ونعنى به القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى، لم يظهر من بينهم فى بلاد الشام قيادة صليبية محلية ذات شأن أو تعيد للأذهان إنجازات جيل التأسيس، ويلاحظ هنا أن الصليبيين الذين ولدوا فى بلاد الشام وعاشوا وسط المسلمين، نشأت بينهم علاقات اجتماعية متعددة، بل ومنهم من تزوج من عناصر من المسيحيات الشرقيات ، وبدأت المؤثرات الشرقية تغزو العناصر الصليبية، ومع ارتفاع مستوى المعيشة فى الشرق من خلال قيام الصليبيين بالدور البارز فى حركة الصادرات والواردات ، ظهرت الرفاهية فى صفوفهم ، وضعفت لديهم دافعية القتال، بل إن جيل الأفراخ أو المولدين الذين نتجوا عن عملية التزاوج المشار إليها وصف بالضعف ، والتخنث ، والارتكان إلى حياة الدعة، والابتعاد عن ساحات القتال، وهكذا ؛ نجد أن من المؤرخين الصليبيين مثل وليم الصورى William of Tyre [٢٩]، وجاك دى ڤترى Jacque de Vitry [٣٠] من هاجم الصليبيين المعاصرين مدركًا أن تحولاً ما حدث فى صفوفهم ، وأنهم لم يعودوا يمتلكون صفات جيل التأسيس الأول، وتعد كتابات المؤرخين المذكورين بمثابة شهادات صليبية معاصرة ذات طبيعة نقدية من الداخل وتنذر بأوخم العواقب ؛ وهو أمر أكدته مسيرة تاريخهم فى نهاية المطاف.

وهكذا : من التصور أن فجوة الأجيال الصليبية ظلت تتسع ، ومما عمل على تعميقها ، وتعميق آثارها الهدامة بالنسبة لوجودهم نفسه، أن الجانب الإسلامى لم توجد لديه - على الأقل بنفس الدرجة- تلك الفجوة ، وذلك باستثناء مرحلة ما بعد صلاح الدين الأيوبى، وخاصة

عهد السلطان الكامل الأيوبى وما عرف عن اتفاقية يافا المثيرة للجدل عام ١٢٢٩م/ ٦٢٥هـ، ولذلك نلاحظ أنه فى الوقت الذى كانت دافعية القتال تضعف لدى الصليبيين، إذا بالمسلمين تتزايد لديهم الرغبة فى تخليص مناطقهم من الاحتلال الأجنبى الذى يجثم على صدورهم، وهنا يكمن تعليل لماذا أنجز الصليبيون إنجازاتهم الكبرى فى المرحلة المبكرة من وجودهم فى المنطقة ثم توقفوا ، بينما نجد المسلمين تتوزع انتصاراتهم الكبرى بدءاً من عام ١١٤٤م/ ٥٣٩هـ، ومروراً بعام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ فصاعداً، لاسيما خلال النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى. فالملاحظ أن كافة الأسرات الحاكمة فى الجزيرة، وبلاد الشام، ومصر من الأتابكيات إلى الدولة النورية، والأيوبية، والمملوكية أخذت نفسها- بصفة عامة- بأمر الجهاد، بل أن الجهاد ذاته أسقط دولاً وأقام أخرى من خلال الصراع بين المسلمين والصليبيين والكيان الفاطمى خير مثال.

إن الأمر يتطلب تصوراً مفاده أن فجوة الأجيال كانت مستفحلة لدى الصليبيين، ولم تكن بمثل تلك الصورة لدى المسلمين، ومن هنا تعاظم أمرها القتَّال لدى الأولين، وظل الأخيرون بمنأى عنها بصفة عامة، وذلك باستثناء مرحلة الكامل الأيوبى.

وهكذا : من الممكن القول أن تاريخ الصليبيين فى الشرق يحوى مرحلتين متناقضتين ، مرحلة التأسيس والتشييد ، ثم مرحلة فقدان ما أنجز من قبل، والمرحلة الأولى قصيرة، والثانية أطول امتداداً مقارنة بالأولى ، ولانغفل هنا أن ذلك التناقض ساهم المسلمون- بفعالياتهم الجهادية المتميزة - فى صنعه، ومن قبلهم اختلاف الأجيال الصليبية، وهو أمر عضال لم يكن من الممكن للصليبيين إيجاد أى علاج له، بل كان العلاج الوحيد الذى قرره التاريخ بجدارة؛ إنهاء وجودهم فى بلاد الشام فى أخريات القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى على أيدى أعدائهم المسلمين فى صورة المماليك.

تلك كانت أهم ملامح العوامل الداخلية الخاصة بالكيان الصليبى والتى كان لها دورها فى إخفاق المشروع الصليبى ، وقد تعاونت معًا على نحو أدى إلى ذلك الإخفاق ، أما العوامل الخارجية ، فهى تتمثل فى فعاليات حركة الجهاد الإسلامى ضد الغزاة ، ومن الملاحظ هنا؛ أن فكرة الجهاد وجدت لدى المسلمين من قبل مقدم أعدائهم، ومما تجدر الإشارة إليه أن من المسلمين المعاصرين لمقدم الصليبيين من أدرك طبيعة الحركة الصليبية ، واتجه إلى إثارة نفوس بنى دينه نحو الجهاد، وخير مثال دال على ذلك ما نجده لدى على بن طاهر السلمى (٤٣٤-٥٠٠هـ /

١٠٣٩-١١٠٦م) الذى كان فقيهًا سنيًا ارتبط بالتدريس فى المسجد الأموى بدمشق ، وقد ألف رسالة بعنوان «الجهاد» وذلك عام ١١٠٥م / ٤٩٩هـ. ويلاحظ أنها كانت بمثابة أول رسالة تؤلف عن الجهاد بعد وصول الصليبيين إلى المنطقة، وفيها نجده لايخلط- مثل معاصريه- بين الصليبيين والبيزنطيين، كما أنه أوضح أن الغزوة التى تعرضت لها بلاد الشام ما هى إلا جزءاً من مشروع كبير سابق بدأ فى الأندلس ثم فى صقلية ، كذلك أوضح أن سبب انتصار الصليبيين يرجع إلى ضعف المسلمين روحيًا، وسياسيًا(٣١). ومما تجدر الإشارة إليه أن المؤرخ العراقى ابن الأثير قد تأثر برؤية السلمى عندما أشار إلى الأصول الأندلسية لمرحلة الصليبيات، واعتبرها حربًا ثأرية بين المسيحية والإسلام.

ومن زاوية أخرى؛ هناك اتجاه يرى أهمية كبيرة لما ألفه مؤرخ مسلم معاصر لأوائل القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى فى صورة حمدان بن عبد الرحيم الذى ألف كتابًا بعنوان : تاريخ الفرنجة الذين غزوا الأراضى الإسلامية، ويلاحظ أنه فقد، ونجد أن بعض النقول منه وردت لدى المؤرخين المتأخرين ، ومما يذكر عن المؤلف أنه تمتع بمكانة ومنزلة كبيرة على نحو مكنه من تأليف كتابه خاصة إذا ما علمنا أنه أقام فى قرية لدى الحاكم الصليبى لمنطقة الأثارب فى شمال الشام ثم من بعد ذلك خدم عماد الدين زنكى أحد أبرز قادة الجهاد فى ذلك القرن(٣٢).

نخلص من ذلك؛ أن فكرة الجهاد عند مقدم الصليبيين وفى المرحلة الباكرة من تاريخهم، وجدت من الفقهاء والمؤرخين من يعمل على إبرازها، وهو أمر احتل أهمية خاصة من حيث تدعيم الجانب «النظرى» للجهاد فى ذلك العصر الذى شهد الصراع العنيف بين عالمى المسيحية ، والإسلام.

وقد ظهرت فكرة الجهاد كواقع عملى على أيدى عدد من القادة الكبار فى مناطق الجزيرة، وبلاد الشام ، ومصر، ومنهم شرف الدين مودود- رائد حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين- وعماد الدين زنكى- مسقط الرها ١١٤٤م / ٥٣٩هـ- وابنه نور الدين محمود - مهندس حركة الجهاد الإسلامى فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى وبطل مرحلة توازن القوى- ثم من بعده صلاح الدين الأيوبى مسقط مملكة بيت المقدس الصليبية عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ ، والبطل الأعظم لحركة الجهاد عصر الصليبيات ، ثم الظاهر بيبرس بطل إسقاط إمارة أنطاكية عام ١٢٦٨م / ٦٦٦هـ، والمنصور قلاوون بطل إسقاط إمارة

طرابلس عام ١٢٨٩م / ٦٨٧هـ، وأخيراً الأشرف خليل بن قلاوون طارد الغزاة من معقلهم الكبير الأخير عكا عام ١٢٩١م / ٦٩٠هـ، وقد وقفت الشعوب الإسلامية في بلاد الجزيرة، والشام ، ومصر أساسًا وباقى مناطق الإسلام النائية مثل بلاد المغرب وراء أولئك القادة إلى أن تحققت أهداف الجميع في طرد الصليبيين من المنطقة.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا : أن العامل الجغرافي في منطقة الصراع كان أقرب إلى صف المسلمين من الصليبيين؛ إذ أنهم تركزوا فى الساحل الشامى والسهل الساحلى باستثناء الرها التى كانت متطرفة نسبيًا إلى جهة الشرق، وشملت الصحراء فى صورة صحراء النقب مساحة كبيرة من حدود مملكة بيت المقدس الصليبية حيث شغلت قرابة نصف مساحة فلسطين، وعانى الصليبيون من مشاكل مزمنة مؤرقة لا حلول ناجعة لها إلا بإخراجهم من المنطقة فى نهاية المطاف، ومن أمثلتها مشكلة نقص العنصر البشرى، ومشكلة نقص المياه، ومشكلة الأمن وعدم توافره بصفة مستمره وسط محيط إسلامى معادٍ.

وفى واقع الأمر؛ أن كافة تلك المشكلات قامت أساسًا على الواقع الجغرافى المعاش، فالصليبيون انحصروا فى امتداد طولى من أقصى الشمال إلى الجنوب من السويدية (سان سيمون) حتى غزة وذلك الامتداد يستند إلى البحر المتوسط وساحله الشامى بالإضافة إلى شريط ضيق من السهل الساحلى الذى يضيق أحيانًا أو يتسع أخرى، وواجهة الكيان المذكور سواءٌ فى أنطاكية ، وطرابلس ، وبيت المقدس، ومن قبل الرها فى مواجهة مدن الجزيرة والشام مثل الموصل ، حلب ، وحمص ، وحماة ، ودمشق وكافة تلك المدن ناصبت الكيان الصليبى العداء الشديد باستثناء اتفاقيات سلمية محدودة لم يكتب لها البقاء إلا قليلاً .

لقد حاول الصليبيون مواجهة المشكلات السابقة باستقدام متطوعين جدد من الغرب الأوربى من خلال شن حملات دعائية ناجحة هناك، ولانغفل هنا؛ أن الدعاية الصليبية Crusader Propaganda كان لها دورها الكبير فى هذا الشأن ، كذلك سعوا إلى السيطرة- قدر الاستطاعة - على عدد وافر من مصادر المياه العذبة ، وشيدوا عشرات القلاع ، والحصون على مدى طول المملكة الصليبية. وعرضها ، وفعلوا كل ذلك بمجهودات شاقة، وأنفقوا الأموال الطائلة دون أن يتمكنوا من مواجهة الواقع الجغرافى الذى «انحاز» للجانب الإسلامى ؛ إذ أن سهول وديان أنهار الفرات، والعاصى ، والنيل : مثلت مخزونًا بشريًا واقتصاديًا هائلاً من الممكن توجيه طاقاته لمواجهة الغزاة، ولاريب فى أن المسلمين لم يعانوا من المشكلات التى

واجهت الصليبيين بنفس الدرجة، ومال ميزان القوى الاستراتيجى لصالح المسلمين- خاصة بعد ظهور القيادات التى تبنت حركة الجهاد ضد الغزاة- وكان بمقدورهم تعويض الفاقد البشرى بصورة أيسر من الصليبيين ، وجاء إخفاق الأخيرين فى إخضاع المدن الأربع الرئيسية فى صورة الموصل، حلب، دمشق ، القاهرة ليعطى للمسلمين مميزات لايملكها الصليبيون، وهكذا؛ تأكد لنا أن العامل الجغرافى - بصفة عامة- كان فى صالح المسلمين على عكس الوضع بالنسبة للصليبيين.

ومثل الوضع السابق؛ يكشف لنا عن حقيقة محورية؛ وهى أن المميزات الجغرافية كانت موجودة على الأرض ، غير أنها «انتظرت» من يتمكن من استغلال الظروف القائمة من أجل تحقيق المكاسب الحربية ، والسياسية على حساب الصليبيين .

ويضاف إلى ذلك؛ هناك عنصر يمثل أهمية خاصة، فى صورة الدور الفعال للمسلمين الخاضعين للاحتلال الصليبى[٣٣] والذين مثّلوا عنصراً مقاوماً لذلك الاحتلال ، ويتجلى دورهم من خلال أنهم شكلوا كثافة سكانية لايستهان بها، ووجدوا فى المناطق الريفية حيث عملوا بالزراعة ، واتجه الصليبيون إلى عدم الوقوع فى ذلك «المستنقع» الماثل أمامهم فى صورة العناصر المسلمة، ولذلك تركوهم يعملون ، وحصلوا على قسم من ربع الأرض التى زرعوها بالإضافة إلى ضريبة فرضت عليهم ، وجعلوا هناك إدارة محلية من أهل البلاد؛ من أجل الإشراف على تنظيم العلاقة بين السلطة الصليبية ، والقاعدة المسلمة المذكورة .

وواقع الأمر؛ أن مسلمى المناطق الصليبية تعلقوا بإخوانهم المسلمين فيما وراء الحدود، وعملوا على مقاومة الغزاة بكل صورة ممكنة ، ولذلك لاعجب إذا أشار الرحالة الروسى دانيال Daniel الذى زار مملكة بيت المقدس الصليبية فى عهد الملك بلدوين الأول Baldwin I وبالتقريب بين عامى ١١٠٦-١١٠٧م / ٥٠٠-٥٠١هـ أن هناك عناصر من المسلمين هاجمت الحجاج الصليبيين فى الطريق الواقع بين يافا وبيت المقدس [٣٤]، وأن الطريق المذكور جبلى وعر، وعلى جانب كبير من الخطورة بفضل فعاليات المقاومة الإسلامية بطبيعة الحال، كذلك شارك المسلمون الخاضعون للسيطرة الصليبية فى الثورة ضد الغزاة عام ١١١٣م / ٥٠٧هـ خلال مقدم حملات أتابك الموصل شرف الدين مودود لاسيما فى إقليم الجليل بشمالى فلسطين، ولاريب فى أن تلك الأحداث أشعرت الصليبيين بعدم الثقة فى ولاء تلك العناصر المسلمة التى لم تتردد فى مقاومة الكيان الصليبى من داخله ، وهنا يكمن خطورة دورها، حيث أن الغزاة

فشلوا فشلاً ذريعًا في احتواء تلك العناصر التي اضطروا اضطراراً إلى أن يكونوا تحت سيطرتهم ، وظل التاريخ الدموى للمشروع الصليبي في بواكيره الأولى يذكر المسلمين الخاضعين للسيطرة الصليبية بالتاريخ الأسود لتلك الغزوة الشرسة المتعصبة وذلك من خلال الذاكرة الجمعية ، والروايات الشعبية جيلاً بعد آخر. وهكذا تأكد لنا أن المشروع الصليبي لم يتمكن من إيجاد أية حلول لاحتواء الكثافة السكانية داخل مملكة بيت المقدس على نحو خاص، ولذا توصف بالفعل بأنها مملكة تحتوى أعداءها دون استطاعة إخضاعهم ، وهو وضع بالغ الغرابة والشذوذ، وكأنها تحتوى قنبلة موقوته ، وظل الصليبيون يواجهون خطرين محليين داهمين في آن واحد؛ خطر المقاومة الإسلامية من الداخل وخطر الجيوش الإسلامية المنظمة سواءً من الشمال من جهة الموصل،وحلب،ودمشق ، ومن جهة الجنوب من جهة القاهرة ، ولانستطيع المفاضلة بين المقاومتين من حيث الفعاليات الحربية والسياسية، وهي بالتأكيد تعكس لنا أن الكيان الصليبي شارك في تدميره داخليًا عناصره «الصليبية» الداخلية - كما أسلفت- وكذلك عنصر داخلي ارتبط بالعنصر الخارجي الخاص بالجهاد الإسلامي ونعنى به المقاومة الإسلامية في داخل المملكة الصليبية.

وفي تصوري أن تلك المملكة الصليبية لم تكن تستطيع بكل ما أوتيت من الدعم الغرب الأوربي أن توقف تلك الفعاليات الإسلامية الداخلية والتي من الممكن القول أنها شكلت حرب عصابات تشن بدورها حرب استنزاف لموارد الغزاة بصفة مستمرة، ومن الملفت للانتباه أن الحوليات العربية المعاصرة لتلك المرحلة لم تفصل لنا تلك الوقائع الجهادية الشعبية، وإنما كتب الرحالة الأوربيين الذين كشفوا لنا أمر تلك المقاومة التي لاتنكر، ولاريب في أن أولئك الذين شاركوا في تلك المقاومة يوصفوا بأنهم الجنود المجهولين لحركة الجهاد الإسلامي خلف خطوط العدو الصليبي ، ومن المؤسف أننا أمام ندرة المادة التاريخية سواءً في المصادر العربية أو الصليبية لانتمكن من إلقاء المزيد من الضوء على تلك الزاوية التي على جانب كبير من الأهمية، وتبقى أمامنا عدة تساؤلات تبحث عن حلول، مثل ما طبيعة تلك المقاومة الداخلية؟، وهل كان هناك تنسيق ما بين المقاومة الإسلامية في الداخل والخارج أم لا؟ وهل أدى غياب التنسيق أحيانًا إلى إضعاف شأن تلك المقاومة أو محدودية تأثيرها على نحو جعل المؤرخين المسلمين الرسميين المعاصرين لايشيرون إليها ؟ ، أم أن ابتعاد النطاق الجغرافي لفعالياتها في داخل المناطق الصليبية قد جعلها بعيدة عن أن ترد في الحوليات العربية المعاصرة؟ أم أن تلك المقاومة افتقدت «القائد» الذي يجمع خيوطها في يده، وأنها كانت ذات بعد شعبي صرف.

مهما يكن من أمر؛ فالمؤكد أن عجز الصليبيين عن الإتيان بمشروع حضارى ما يحتوى كافة العناصر التى أخضعوها خاصة من المسلمين ، والطابع الدموى العدوانى لمشروعهم ، كل ذلك جعل مسلمى الداخل القنبلة الموقوتة لذلك الكيان، وتفاعل ذلك العنصر مع العناصر الداخلية، والخارجية لكى تضع أمام ناظرينا فى نهاية المطاف أشلاء مملكة صليبية انهارت بفعل معاول الهدم المتعددة.

وقد يثار هنا تساؤل حول ماهية أكثر العوامل جدوى فى إفشال المشروع الصليبى وإجهاضه، هل هى العوامل الداخلية أم الخارجية ؟ أم أن كلاً من العوامل الداخلية، والخارجية شاركت معًا فى ذلك المصير؟ وواقع الأمر أننا مع إدراكنا لأهمية العوامل الداخلية باعتبارها القوة الفاعلة فى إضعاف الكيان الصليبى من الداخل وعدم إدراك غالبية المعاصرين لخطورتها باعتبارها عوامل نحر، وهدم لذلك الكيان؛ إلا أن العوامل الخارجية الخاصة بفعاليات حركة الجهاد الإسلامى لها دورها الفعَّال الذى لايقل أهمية وقيمة ، فقد كان من الممكن أن يستمر الكيان الصليبى على الرغم من وجود العوامل الداخلية دون انهيار، ويحتضر زمنيًا على مدى طويل ، غير أن وجود ضربات حركة الجهاد الإسلامى ساعدت على الإسراع فى إجهاد ذلك الكيان ليسقط فى النهاية، ولا مراء أن التفاعل المشترك بين عوامل الداخل، والخارج كان له تأثيره الحاسم فى إفشال المشروع الصليبى .

وفى واقع الأمر: أن من الخطأ البين تصور بعض المؤرخين المسلمين المحدثين لكون حركة الجهاد الإسلامى بمفردها كانت هى السبب المباشر وراء إفشال المشروع الصليبى، وكذلك تصور بعض الباحثين الغربيين أن المشكلات الداخلية للكيان الصليبى وراء تلك النتيجة المشار إليها؛ إذ أن ذلك يعنى أننا نرى الأمور من زاوية واحدة ونغفل الزاوية الأخرى التى من شأنها أن تكمل لنا الرؤية الفاحصة، إذ من الجلى البين أن إخفاق ذلك المشروع جاء نتاجًا للعوامل المشتركة السالفة الذكر.

ومع ذلك ؛ من الممكن تصور أن التفاعل بين كافة تلك العوامل احتاج زمنًا طويلاً إلى أن أمكن صنع واقع جديد يعيد للمنطقة تجانسها الجغرافى، والتاريخى السابق على مقدم الغزوة الصليبية إليها، ومن الأمور الملفتة للانتباه أن من معاول الهدم الداخلية للحركة الصليبية ما وضح منذ الأعوام الأولى لوجود الصليبيين على أرض الشام؛ إلا أن فاعليته التاريخية احتاجت عقوداً طويلة كى تترسخ ، وتتعامل مع غيرها داخليًا وخارجيًا، ولعل ذلك يعين فى

تعليل استمرار المشروع الصليبي في المنطقة قرنين من الزمان ، كذلك لانغفل أن العوامل الخاصة بأدوار المسلمين العسكرية ، وجدت أحداث تاريخية عديدة أعاقت أحيانًا فعالياتها، فهناك - على سبيل المثال- التناحر ، والتصارع ، والتنافس السياسي بين قادة المسلمين، وهو أمر لم يقتصر على مرحلة ما قبل مقدم الغزو الصليبي للمنطقة بل وجد في مراحل تالية؛ مثلما حدث في أعقاب وفاة مؤسس الدولة الأيوبية الفذ ، كذلك الدور السلبي للاسماعيلية النزارية ، واغتيالهم قادة حركة الجهاد الإسلامي، ولانغفل أيضًا أنه على مدى عصر الحروب الصليبية لم يكن ليظهر قادة كبار للجهاد بنفس ثقل عماد الدين زنكي، ونور الدين وصلاح الدين ، وغيرهم، على نحو يكشف لنا حقيقة محورية حينذاك، وهي أنه لم يكن كل قادة المسلمين على نفس القدر من الكفاءة والإخلاص لأمر الجهاد مثلما توافر الأمر لتلك الأمثلة البارزة، ويضاف إلى ذلك ضخامة التحديات التي جابهها المسلمون خلال ذلك العصر، ومنها ما كان مزدوجًا مثلما حدث خلال القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري، حيث واجهوا الخطرين الصليبي والمغولي في آن واحد، وقد وصل الأخير إلى حد إسقاط عاصمة الخلافة العباسية بغداد عام ١٢٥٨م / ٦٥٦هـ، ودخول بلاد الشام ، وإسقاط حلب ، ودمشق إلى أن دحرهم المماليك في معركة عين جالوت[٣٧] بقيادة سيف الدين قطز عام ١٢٦٠م / ٦٥٨هـ. ولاريب في أن كافة تلك الزوايا ساهمت بصورة أو بأخرى في تأخير إسقاط الكيان الصليبي في بلاد الشام.

أما فيما يتصل بموقف عناصر من المسيحيين المحليين في بلاد الشام ومصرمن المشروع الصليبي؛ فمن الملاحظ أنه على الرغم من أن ذلك المشروع تباكى القائمون عليه منذ اللحظات الأولى للدعاية له على أوضاع المسيحيين الشرقيين ورفعوا شعار إنقاذهم من الاضطهاد - المزعوم بالطبع- الذي حل بهم من جانب الأتراك السلاجقة؛ إلا أن الصليبيين عندما توطد أمرهم في المنطقة لم يثقوا فيهم، وعاملوهم بازدراء ، ولذلك لم نجد تلك العناصر المسيحية المحلية في بلاد الشام تدعم الصليبيين باستثناء الأرمن [٣٨] ، والموارنة[٣٩] ، وقد دعموا الكيان الصليبي دعمًا حربيًا فعًالاً .

ومن زاوية أخرى؛ نجد أن العناصر المسيحية التي خضعت للسيادة السياسية الإسلامية في بلاد الشام ومصر نعمت بقدر من التسامح لاينكر ، ولا أدل على ذلك من تعدد الأديرة المسيحية التي وردت لدى المصادر الجغرافية العربية المعاصرة، ومن أمثلتها ما أورده تفصيلاً ياقوت الحموي[٤٠] ، ولاريب في أن وجود مثل تلك العمائر الدينية المسيحية، وازدهارها في

ظل السيادة الإسلامية ؛ يعكس بجلاء مدى الأمن، والأمان الذى عاشت فيه تلك العناصر فى عصر المواجهة بين الغرب الأوربى الكاثوليكى، والمسلمين فى المنطقة المذكورة.

ويضاف إلى ذلك؛ ظهور العديد من الأعلام المسيحيين فى العصرين الأيوبى والمملوكى فى بلاد الشام ومصر حينذاك ، على نحو عكس رعاية السلطة القائمة لهم، ونذكر منهم على سبيل المثال : أولاد العسال الثلاثة وهم المؤتمن أبواسحاق إبراهيم بن العسال (ت بعد ١٢٤٠م/ ٦٤٣هـ) ، والصفى أبو الفضائل بن العسال (ت ١٢٦٠م/ ٦٦٣هـ) ، والأسعد أبو الفرج هبة الله بن العسال (ت ١٢٦٠م / ٦٦٣هـ) وقد عملوا فى دواوين مصر المملوكية[٤١]، وهناك أيضًا بعض المؤرخين مثل المكين جرجس ابن العميد (ت ١٢٧٣م / ٦٧٦هـ) ، وابن العبرى[٤٣] (١٢٨٦م / ٦٧١هـ) ، كذلك هناك عدد من الأطباء المسيحيين الذين برعوا فى ذلك العصر مثل أسرة بنى فانه، ومؤسسها أبوسليمان داود بن أبى المنى بن فأنه، وهو من نصارى القدس، ومن أفرادها مهذب الدين أبوسعيد ، وموفق الدين أبوشاكر، وأبونصر بن أبى سليمان بن فأنه، وأبوالفضل بن أبى سليمان [٤٤].

ولانغفل أيضًا ؛ أن أقباط مصر- بصفة عامة- وقفوا إلى جانب المسلمين ضد الصليبيين بل إنهم قدروا السلطان صلاح الدين الأيوبى تقديراً كبيراً خاصة أنه حافظ على أملاكهم من الأديرة والكنائس فى بيت المقدس، مثل دير السلطان ، ودير مار أنطونيوس، وكنيسة الملاك، وكنيسة الحيوانات الأربعة[٤٥] ، ومما يذكر هنا أن صور ذلك السلطان المتسامح التى وصلت إلينا رسمها رسامون أقباط؛ مما عكس مدى اعتزازهم به، وقد وضعوا تلك الصور بجانب الآنية المقدسة فى أديرتهم[٤٦] تقديراً لعدله، وبصفة عامة أيد أقباط مصر الحكم الأيوبى ودعموه[٤٧]. ولانغفل أنهم رفضوا الحج إلى الأماكن المسيحية المقدسة فى فلسطين طالما بقيت تحت الاحتلال الصليبى .

ومن الملاحظ أنه كان من الممكن للعناصر المسيحية المحلية فى بلاد الشام - باستثناء الموارنة- ومصر القيام بدور «الطابور الخامس» المدعم للصليبيين، غير أن الأخيرين فشلوا فى اجتذابهم فى الغالب الأعم بالإضافة إلى أن السياسة التسامحية التى اتبعتها الأنظمة السياسية المسلمة القائمة أفشلت ذلك الأمر، وبعبارة أخرى؛ لم يكن فى مقدور الغزاة جعل تلك العناصر بمثابة العمق الاستراتيجى لهم داخل مناطق المسلمين ، وهكذا كان موقف تلك العناصر أثره فى إخفاق المشروع الصليبى.

مهما يكن من أمر؛ تفاعلت العوامل الداخلية والخارجية معًا من أجل إخفاق الصليبيين فى تحقيق أهدافهم فى المنطقة فى نهاية المطاف.

الهوامش

١- عن تلك الحوليات انظر :

The Jews and the Crusaders, The Hebrew Chronicles of the First and Second Crusades, Trans. by shlomo Eidelburg , Madison 1977 .

قاسم عبده قاسم ، «الاضطهادات الصليبية ليهود أوربا من خلال حولية يهودية ، الظاهرة ومغزاها»، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط ، م (١) ، ط. القاهرة ١٩٨٢م، ص١٣٧-١٦٦ .

٢- عن ذلك أنظر :

Anonymous, The Deeds of the Franks , p. 91, Raymond d' Aguilers, p. 209 , Fulcher of Chartres, p. 122 .

Hagenmeyer, " Chronologie de la Premiere Croisade ", R. O. L., T. VII, Année 1899, p. 477- 478 .

كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث. ت. فاطمة نصر ومحمد عناني، ط. القاهرة ١٩٩٨م، ص٤٥٣ .

٣- قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية، الأيديولوجية ، الدوافع ، النتائج، ط. الكويت ١٩٩٣م، ص١٤٨ .

٤- Nicetas Choniates, O'city of Byzantium , Annales of Nicetas Choniates, Trans . by Harry Magoulias , Wayne State University , Detroit 1984, p. 314 .

Ebeid, " Was Pope Innocent III An accomplice in the diversion of The Fourth Crusade 1204", E. H. S., Vol . XV, Cairo 1969 , p. 19 .

إسحق عبيد، الدولة البيزنطية في عصر باليولوغوس، ط. بنى غازى، ب-ت، وقد أفدت من الترجمة الراقية التى قام بها أ.د. إسحق عبيد.

٥- عن ذلك أنظر: أسمت غنيم، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ٣٢٤-١٤٥٣م، ط. الإسكندرية ١٩٨٧م، ص١٥٨ .

٦- أنظر على سبيل المثال: The Saga of Sigurd , in Wright, Early Travels in Palestine , London 1848 .

محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية بحوث تاريخية ونقدية، ط. عمان ١٩٩٩م، ص٧-٦٠ .

٧- John of Wurzburg, p. 41 .

وعن دورهم بصفة عامة فى ذلك العصر أنظر: صلاح ضبيع، دور الألمان فى الحروب الصليبية فى بلاد

الشام ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م إلى ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب - جامعة أسيوط عام ١٩٩٣م.

٨- عن الحرب الأهلية بين الصليبيين حينذاك أنظر:

مجهول ، تتمة تاريخ وليم الصورى لمؤلف مجهول والمنسوب خطأ إلى روتلان ١٢٢٩-١٢٦١م، ترجمة وتحليل وتعليق أسامة زكى زيد، ط. الرسكندرية ١٩٨٩م، ص٢٣٣-٢٣٨، حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون فى الأراضى المقدسة حوالى ١١٩٠-١٢٩١م / ٥٨٦-٦٩٠هـ، ط. الإسكندرية ١٩٨٩م، ص٢٨٠-٢٨١ . وهى أفضل دراسة باللغة العربية عن موضوع التيوتون.

٩- من أمثلة ذلك ما اتجه إليه الشاعر الفرنسى وليم روتبيف William Rutebeuf الذى نظم قصيدة تعارض المشروع الصليبى، كذلك هناك رالف نيجر Ralf Niger ، وهمبرت الروماتزى Humbert of Romans ، وقد قاما بجهدهما فى نفس الاتجاه، عن الشاعر وليم روتبيف أنظر:

William Rutebeuf , in Masson, Medieval France From The Reign of Hug Capet to the Beginning of the Sixteenth Century, London 1888, p. 96-97 .

وعن اتجاهات رالف نيجر، وهمبرت الرومانزى أنظر:

Finucane, Soldiers of the Faith, Crusaders and Moslems at war New, York 1983, p. 208-209 .

وعن الرأى العام المضاد للصليبيات أنظر:

Troop, Criticism of The Crusade: Astudy of Public Opinion and Crusade Propaganda, Amesterdam 1940 .

١٠- عن تلك الهيئات أنظر:

Forey , " The Military Orders 1120-1312", in The Oxford Illustrated History of the Crusades, ed. by Jonathan Riley Smith, Oxford 1995, pp. 184-216 .

Luttrell, " The Military Orders 1312-1798 ", in the Oxford Illustrated History of the Crusades , p. 326-364

, " The Earliest Hospitallers" in Montjoie Studies in Crusade History in Honour of Hans Eberhard Mayer . Hampshire 1997, pp. 37-54 .

Menache, " Rewriting The History of The Templars according to Matthew Paris ", in Cross Cultural Converyences in the Crusader Period , New York 1995 , pp. 183-213 .

Baber , " Suppling The Crusader States". the Role. of the templars", in The Horns of Hattin ed. by B.Z. Kedar , Jerusalem 1992 , pp. 190-207 .

حسن عبد الوهاب ، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون فى الأراضى المقدسة حوالى ١١٩٠-١٢٩١م / ٥٨٦-٦٩٠هـ، ط. الإسكندرية ١٩٨٩م.

محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غيير منشورة ، كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٨٤م.

١١- من أمثلة المنح التى قدمت لهيئات الرهبان الفرسان أنظر:

Delaville Le Roulx, " Troix Chartres de XII Siecle Concermant L'Ordre de St. Jean de Jerusalem" A.O.L., T.I , Année 1893, "Inventaire de Pieces Terre Sainte de L'Ordre de l'Hospital ", R.O.L., T. II, Année 1895 .

١٢- عن ذلك أنظر: Jean de Joinville, p. 259

جوزيف نسيم يوسف، هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل، ص١١٦ ، العدوان الصليبى على مصر، ص٢٨٥ ، حسن حبشى، الشرق الأوسط بين شقى الرحى، ط. القاهرة ١٩٤٩م، ص١٠٩ ، محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص١٠٩ .

١٣- William of Tyre , vol . II, p. 194, note (13) .

ومن أمثلة المؤرخين الذين هاجموا فرق الرهبان الفرسان خاصة الداوية نذكر : يوحنا أوف سالزبورى John of Salisbury ، أوتو أوف فرايزنج Otto of Freising، جيرفاس أوف كانتربرى Gervase of Canterbury ، عن ذلك أنظر نصوصهم لدى لوسى السى نورثوب دوبى:

Dobbie, The Knights Templars in the Holy Land 1118-1187, 1943, p. 37 , note (26) .

١٤- William of Tyre, vol . II, p. 505-506 .

١٥- عن ذلك بالتفصيل أنظر: Ibid, pp. 204-207 .

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص٦٤٦ .

وبصفة عامة ؛ من الممكن الرجوع إلى هذه الدراسة القيمة : عبد الحفيظ محمد على، مشكلات الوراثة فى مملكة بيت المقدس الصليبية وأثرها على تاريخ الحركة الصليبية (١١٣١-١١٨٧م) ، ط. القاهرة ١٩٨٤م.

١٦- William of Tyre, vol . II, p. 300 .

١٧- عن ذلك العنصر أنظر: جوزيف نسيم يوسف ، «معركة حطين : خلفياتها ودلالاتها» عالم الفكر، م(٢٠) ، العدد الأول، أبريل- مايو- يونيو ١٩٨٩م، ص. ٢٤٢

حسين عطيه ، «عشر صلاح الدين وأصوله التاريخية فى غرب أوربا ومملكة بيت المقدس الصليبية، ضمن كتاب دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية، ط. الاسكندرية ٢٠٠٠م، ص٢٧٩-ص٣٥٠ .

Constable, " The Financing of The Crusades in the Twelfth Century ", in Outremere Studies in the History of Crusading kingdom of Jerusalem , Presented to Joshua Prawer, ed . by B. Kedar , R. Smail , H. Mayer, Jerusalem 1982 , pp. 64-88 .

١٨- William of Tyre, vol . II, p. 256.

١٩- عنه أنظر:

Ernoul, Chronique d'Ernoul et Bernard Le Tresorier , ed. Mas Laterie, Paris 1971, p. 69-70 .

محمود رزق محمود ، العلاقة بين إرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي حتى موقعة حطين ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب. جامعة عين شمس ١٩٧٧م.

فاروق جرار ، «أسطول صلاح الدين الأيوبي »، مجلة الأبحاث الجامعة الأمريكية ببيروت ، السنة (١٣) ، جـ (١١) ، عام ١٩٦٠م، ص٨٥-ص٨٦ ، عائشة بنت عبدالله ، البحر الأحمر في العصر الأيوبي، ط. مكة المكرمة ١٩٨٠م، ص٤١-٤٤ ، حميل حرب محمود ، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ط. جدة ١٩٨٥م، ص٦٨-٧٥ ، عبد الرحمن زكي ومحمود عيسى، الحروب بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٤٧م، ص٣٢ .

٢٠- أنظر الفصل الخامس .

٢١- عن جودفري دي بويون أنظر:

Fulcher of Chartres, p. 72 , p. 80 .

William of Tyre, vol . I, p. 43 .

Parisee, " Godfrey de Bouillon , Le Croisade Examplaire", L'Histoire, T. XLVII, Année 1987, pp.

Foulet, " The Epic Cycle of The Crusades", in Setton , AHistory of the Crusades, vol. VI, , Wisconson 1989, p. 100 -103 .

سعيد برجاوي ، الحروب الصليبية في المشرق، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص١٧٦-١٩٠، عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، ط. الإسكندرية ١٩٥٨م، ص٦٢-٩٩ .

٢٢- عن بلدوين الأول أنظر:

William of Tyre, vol . I, pp. 189-515 .

٢٣- عن بوهيمند أنظر:

William of Tyre, vol . I, p. 96 , p. 133 .

Yewdale, Bohemond I, Prince of Antioch, Amesterdam 1970, p. -51 .

٢٤- عن تانكرد أنظر: William of Tyre, vol . I, p. 395 Nicholson, Tancred: Astudy of his Career and Work in Their Relation to the First Crusade and the establishment of the Latin States in Syria and palestine , Chicago 1940, pp. 20-102 .

٢٥- عن بلدوين الثانى أنظر: William of Tyre , vol . I, p. 95 , p. 116 , vol . II, p. 45-46 .

٢٦- عن فولك أوف أنجو انظر:

Orderic Vitalis, The Ecclesiastical History of Orderic Vitalis, vol. IV, Books VII and VIII, ed. and Trans. by Marjorie Chibnall, Oxford 1973, p. 184 - 186 .

William of Tyre , vol . II, pp. 47-93 .

Mayer, " The Wheel of Fortune : Seignorial Vicissitudes under kings Fulk and Baldwin III of Jerusalem", S., vol . LXV, 1990, p. 860-877., " The Succession To Baldwin IIof Jerusalem : English impact on The East", D.O.P., vol . XXXIX , 1985 , pp. 139-147 , " Angevins Versus Norans : The New Men of king Fulk of Jerusalem", A. P. S., vol . 133 , N.I, 1989 , pp. 1-25 .

أنظر أيضًا هذه الدراسة المتخصصة: سرور على عبد المنعم، السياسة الداخلية والخارجية لملكة بيت المقدس فى عهد الملك فولك الانجوى (١١٣١-١١٤٣م / ٥٢٦-٥٣٨هـ)، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية البنات- جامعة عين شمس عام ٢٠٠١م، ص٣١- ص٢٥٣ .

٢٧- عن بلدوين الثالث انظر:

William of Tyre, vol . II, pp. 136-297 .

عبد اللطيف عبد الهادى السيد، السياسة الخارجية لملكة بيت المقدس الصليبية فى عهد بلدوين الثالث (١١٤٦-١١٦٣م) ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٩٠م.

Baldwin, " The Latin States under Baldwin III and Amalric I (1143-1174), in Setton, A History of the Crusades, vol . I, Wisconson 1969, pp. 528-548 .

٢٨- عن عمورى الأول أنظر:

William of Tyre , vol . II, pp. 295-396 .

٢٩- Ibid, p. 256 .

٣٠- Jacques de Vitry, p. 65 .

وأنظر أيضًا :

عبد اللطيف عبد الهادى، الحركة الصليبية خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى من خلال كتابات جاك دى فترى ، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب- جامعة الزقازيق عام ١٩٩٧م، ص١٣٠-١٦٧ .

٣١- السلمى، رسالة الجهاد، مقتطفات نشرها كلود كاهن في : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ص٢٨١-٢٨٢ .

أيضًا : Irwin , " Islam and the Crusades 1096-1699" , in the Oxford Illustrated History of the Crusades, ed. by Jonathan Riley - Smith , Oxford 1995 , p. 225 .

٣٢- Ibid, p. 226 .

Cahen, La Syrie du nord, p. 41-43 .

٣٣- عنهم انظر : العماد الأصفهاني، الفتح القسى في الفتح القدسى ، ط. القاهرة ١٣٢١هـ، ص٣٢ .

Prawer , "West Confronts East in the Middle Ages", B.I. A. C.C., vol . XII, Cairo 1989 , p. 17 .

محمد فتحي الشاعر، أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١١٨٧م) ، ط. القاهرة ١٩٩٠م، ص٥-٣٢ .

حسين عطيه ، «المسلمون في الامارات الصليبية في بلاد الشام»، ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي ، جامعة اليرموك، ط. إربد ٢٠٠٠م ، ص٣٧٥-٤٢٦ ، سعيد البيشاوى، «المقاومة الشعبية الفلسطينية ضد الفرنجة الصليبيين، ٤٩٢-٥٨٣هـ/ ١٠٩٩-١١٨٧م، ضمن أعمال المؤتمر السابق، ص٢١١-ص٢٣٩ .

٣٤- طريق يافا- القدس ، مر بمناطق ذات طبيعة جبلية ويبلغ مداه ٦٧ك.م ، ويدأ من غرب القدس من باب يافا واستمر في الامتداد على هضبة القدس ثم عبر دير ياسين، وأبوغوش، ثم الرملة، ويطلق على المنطقة الممتدة من جهة الرملة إلى السهل الساحلي اسم باب الوادى ، ويلاحظ أن الصليبيين شيدوا ستة حصون على الطريق المذكور لحمايته من خطر هجمات المسلمين، عنه انظر:

سيد فرج ، «القدس عربية إسلامية»، الدارة، العدد (٣)، السنة (٨) ، يناير ١٩٨٤م، ص١٢ : عبد الرحمن زكى، «القلاع في الحروب الصليبية»، المجلة التاريخية المصرية، م(١٥) ، عام ١٩٦٩م، ص٦٢، فتحي عبد العزيز عبدالله، دور الكنيسة في مملكة بيت المقدس اللاتينية حتى عام ١١٨٧م، ص١٢٢، محمود الحويرى ، الأوضاع الحضارية ، ص١٨٦ : على السيد على، القدس في العصر المملوكى، ط. القاهرة ١٩٨٦م، ص٢١٣ .

ويلاحظ أن الزميل الفاضل عبد الحافظ البنا في تعليقه على ترجمة كتاب براور عن المملكة اللاتينية، ذكر أن ذلك الطريق انتشر فيه قطاع الطرق واللصوص، وهو وصف غير دقيق لأنهم كانوا من المجاهدين ضد الصليبيين ونعرف أن مصادر الرحلة الصليبية إلى هناك ؛ أشارت إلى أن الأغنياء

والفقراء من الحجاج الصليبيين يتعرضون للفتك على أيدى المسلمين خلال ذلك الطريق مما يعكس أن الأمر لم يكن لمجرد السلب والنهب انظر تعليقه: يوشع براور ، الاستيطان الصليبى فى فلسطين مملكة بيت المقدس ت. عبد الحافظ البنا ، ط. القاهرة ٢٠٠١م، ص٣١ .

٣٥- Daniel , p. 9 .

٣٦- عن أحداث الثورة ضد الصليبيين فى الجليل أنظر:

ليلى طرشوبى، إقليم الجليل فترة الحروب الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة القاهرة عام ١٩٨٧م، ص١٠٨ .

٣٧- عن معركة عين جالوت أنظر:

القلقشندى، صبح الأعشى ، جـ٧ ، ص٣٦٠-٣٦٢ ، على السيد على، «الإسهام العسكرى المصرى فى موقعة عين جالوت »، ضمن كتاب أثر الإسلام فى مصر وأثر مصر فى الحضارة العربية الإسلامية، إشراف قاسم عبده قاسم، ط. القاهرة ١٩٩٩م، ص٣٦٥-٤١٧ .

Thorau, " The Battle of Ayn Jalut: a Re- examination ", in Crusade and Settlement ed. by P.W. Edbury, Cardiff 1985, pp. 236-239 .

٣٨- عن دعم الأرمن للصليبيين أنظر:

William of Tyre, vol . II, p. 541 .

محمود الحويرى، المرجع السابق ، ص٩٣ .

٣٩- عن دعم الموارنة للصليبيين انظر:

William of Tyre , vol . II , p. 458 .

Salibi, " The Maronites of Lebanon under The Frankish rule", R. E.A., T. IV, Année 1957 , p. 289 .

Mayer, The Crusades, Trans . by John Gillingham, Oxford 1972 , p. 276 .

Smail , The Crusaders in Syria and the Holy Land , London 1974 , p. 161 .

٤٠- معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٤٩٥، ص٤٩٩، ص٥٠٢-٥١٧ ، ص٥٣٨، ص٥٤٣، ص٥٢٥، ص٥٢٦ ، ومن أمثلة تلك الأديرة التى أورد ذكرها: فى دمشق ، أديرة صليبا، ودير الخصيان، ودير سمعان، ودير يونا، ودير فطرس، ودير بولس، ودير قانون، ودير هند، ومن أديرة حلب حافر، وحشيان، وعمان، وبلاض ومن أديرة عزاز دير شيح، وفى الأردن، دير فاخور ، عن ذلك أنظر: المصدر السابق، جـ١ ، ص٥٠١، ص٥٢٤، ص٥٠٤، ص٥٠٥، ص٥٠٧ ، جـ٢، ص٥٠٢ ، ص٥١٧، أنظر أيضًا : محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون، ص٩٢ ، ص٩٣ .

٤١- عن تلك الأسرة انظر: جورج شحاته قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، ص٢١٥ - ص٢١٩ .

٤٢- عنه : نفسه ، نفس المرجع، ص٢٢٦ .

٤٣- عنه : ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ط. بيروت ١٩٩٢م، ومن المقدمة.

٤٤- عن تلك الأسرة انظر: ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا، ط. بيروت ١٩٦٥م، ص٥٨٧-٥٩٩ ؛ كمال السامرائى، مختصر تاريخ الطب العربى، جـ٢ ، ط. بغداد ١٩٨٥م، ص٤٩ - ٥١ .

٤٥- عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، ط. القاهرة ٢٠٠٠م، ص٢٦٠ .

٤٦- عبد المنعم ماجد، صلاح الدين الأيوبى ، ط. القاهرة ١٩٩٩م، ص١٤٩ .

٤٧- يلاحظ هنا أن هناك إشارات عن وجود دعم قبطى للصليبيين خلال حملة لويس التاسع على مصر خاصة عند عبور القوات الصليبية لمخاضة سلمون عام ١٢٥٠م / ٦٤٧هـ حيث دلهم على ذلك شخص ما مما مكنهم من عبور النيل من تلك المنطقة ، والواقع أنه ليس من المؤكد كونه من الأقباط، ويوضح الراحل العلامة محمد مصطفى زيادة أن ذلك الدليل فى حالة كونه قبطيًا مسيحيًا على وجه التحقيق لما اكتفت المراجع العربية الإسلامية التى رجحت ذلك بأن تقول إنه من غير المسلمين فقط، ولما تردد مؤلفوها فى التشنيع والتقريع شأنهم فى ذلك شأن كافة المؤرخين الذين انتسبوا إلى مرحلة القرون الوسطى حيث تعاظمت الظاهرة الدينية، عن ذلك انظر:

محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة، ط. القاهرة ١٩٦١م، ص١٤٣-١٤٤ .

الفصل الرابع

دور عنصر المياه
فى تاريخ الصليبيين ببلاد الشام
فى المرحلة من ١٠٩٩ إلى ١١٨٧م / ٤٩٢-٥٨٣هـ

يتناول هذا الفصل بالدراسة : المياه فى تاريخ الصليبيين ببلاد الشام خلال المرحلة الواقعة من عام ١٠٩٩م / ٤٩٢هـ إلى عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ، والصراع بين الصليبيين والمسلمين بشأنها من خلال الأنهار والبحيرات العذبة، والعيون، والينابيع العديدة التى وجدت هناك.

وواقع الأمر أن الباحث فى أمر المياه فى تاريخ الصليبيين خلال المرحلة المذكورة تواجهه عدة صعاب ، منها ندرة الإشارات المصدرية بالمقارنة بحجم ما ورد فى الجوانب السياسية ، والحربية فى كتابات المؤرخين المعاصرين ، وبالتالى اللاحقين ، كذلك هناك عدم امتلاكنا لأية إحصائيات دقيقة ، ومحددة عن منسوب المياه فى الأنهار الشامية خلال ذلك العصر زيادة ونقصانًا .

مهما يكن من أمر؛ أدرك الصليبيون منذ أن وطأت أقدامهم بلاد الشام فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى؛ ضرورة الاحتفاظ بمصادر المياه المختلفة والمتعددة فى المنطقة خاصة فى الأجزاء التى احتلوها ، وتتمثل فى الرها، وأنطاكية ، وبيت المقدس، وطرابلس، ومن المتصور إدراكهم أنهم لكى يستمر وجودهم هناك فلابد من السعى بلاهوادة نحو إخضاع منابع الأنهار أو مصباتها أو قسم من خطوط مساراتها ، وحرمان أعدائهم المسلمين - قدر الإمكان- من التمتع بمزايا المواقع الاستراتيجية التى تتوافر فيها تلك المصادر المائية الحيوية.

ونظراً لكون المياه فى حد ذاتها أساس الحياة ، والوجود البشرى : فقد احتاجها الصليبيون لاستمرار احتلالهم للمنطقة، ولاستقدام متطوعين جدد من الغرب الأوربى دعمًا للكيان الصليبى، وللاستقرار فى الأرض العربية على حساب سكانها الأصليين ، وهكذ : مثلت قضية المياه مثلت لهم قضية حياه أو موت فلاجدوى من احتلال منطقة ما دون أن تتوافر فيها مبررات ومقومات الاستقرار الدائم، وهكذا كان النشاط الزراعى، والرعوى ، والحرفى، والتجارى بالتالى يقوم على ذلك العنصر البالغ الحيوية.

زد على ذلك : احتاج الغزاة الأنهار من أجل أن تكون بمثابة خطوط دفاعية طبيعية يصعب إجتيازها فى مواجهة أعدائهم من المسلمين خاصة فى حالات الأنهار ذات العرض الكبير والعميقة المجرى ، كذلك فمن المتصور أنهم احتاجوها لتكون بمثابة مراكز ترسيم الحدود بين الطرفين المتصارعين فى عصر اشتد فى أوار الصراع بينهما .

ومن زاوية أخرى؛ من الملاحظ أن الوجود الصليبى تعرض لتحدٍ طبيعى بالغ الخطورة فى صورة استفحال الصحراء التى وجدت على نطاق متسع فى فلسطين فى صورة صحراء النقب التى شغلت مساحتها حوالى ٤٦٪ منها ، وعلى هذا الأساس : كان عليهم الاحتفاظ بالمناطق التى تمتعت بوفرة المصادر المائية؛ لأنها مثلت توازنًا طبيعيًا جغرافيًا فى مواجهة جدب الصحراء، وفى حقيقة الأمر : أن الأخيرة اعتبرت أحيانًا نوعًا من مناطق التخوم الطبيعية التى احتاجت إلى جهد جهيد، وخطوط تموين طويلة من جانب المسلمين لاجتيازها ، وعلى الرغم من تلك الفائدة ؛ إلا أنها مثلت قصوراً للكيان الغازى على اعتبار أنها كانت «مخلخلة السكان» نظراً لعدم توافر المياه بها أصلاً وبالتالى شكلت «عبئًا » على الغزاة، وجاء تمسكهم بالمناطق الحيوية الأخرى كبديل حيوى فى مواجهة المناطق المذكورة ومن ثم كان تمسكهم بذلك البديل إلى أبعد الحدود.

وهكذا ندرك : أن الأنهار شكلت أهمية بالغة بالنسبة للوجود الصليبى فى بلاد الشام، ولانبالغ إذا اتجهنا إلى القول بأن ذلك الوجود قام أساسًا على عنصر المياه، ومن وراء ذلك العنصر البالغ الحيوية قامت كافة مؤسساته السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية الهيكلية على حساب الوجود المسلم بطبيعة الحال.

والواقع : أن الصراع الإسلامى- الصليبى؛ كان -فى أحد جوانبه - صراعًا على المصادر المائية ، ويتطلب الأمر منا التعرض -على نحو موجز- لأهم المصادر المائية فى صورة الأنهار ، والبحيرات ، والينابيع،والعيون التى وجدت فى بلاد الشام عندما وطأتها أقدام الغزاة الصليبيين فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى، وهى مصادر ستكشف لنا بجلاء أن الصراع العسكرى، والسياسى طوال الرحلة موضع الدراسة ، وفيما بعده كان يدور بشأنها ، وجولها على نحو عكس محورية أهميتها وذلك مع عدم إغفال أهمية الدوافع السياسية، والاقتصادية الأخرى بطبيعة الحال فى إدارة دفة ذلك الصراع .

وواقع الأمر؛ أن بلاد الشام خلال المرحلة التاريخية موضوع البحث، احتوت على عدد من الأنهار الحيوية ، والتى اختلفت من حيث امتدادها الجغرافى، ومن الممكن إجمالها فى الآتى:

نهر الفرات ؛ ويلاحظ أنه ينبع من جبال تركيا على ارتفاع ثلاثة آلاف متر، في المنطقة ما بين البحر الأسود ، وبحيرة ڤان، ويجرى في الأراضي التركية ثم السورية، ومنها إلى العراق حيث يلتقي بنهر دجلة مكونين شط العرب الذى يصب بدوره في الخليج العربي، ويبلغ طول نهر الفرات ٢٩٤٠ك.م[1] . وهو يعد بالتالي أطول الأنهار المارة في في بلاد الشام.

- نهر الأردن؛ وينبع من أسفل جبل الشيخ الغربي، والجنوبي على ارتفاع ٩١٠متر، ويبدأ بعد التقاء مياه نهر بانياس الذى ينبع من سوريا بنهرى الدان ، والحاصباني، ويسير من بعد ذلك إلى بحيرة الحولة، ويتجه إلى بحيرة طبرية، والبحر الميت.

- نهر اليرموك ؛ وهو أهم روافد نهر الأردن بصورة مطلقة ، ونبع من حوران بسوريا ، ويلاحظ أن طوله بلغ ٧٥كم[2].

- نهر العاصي ؛ وهو ينبع من لبنان، ويسير في سوريا، ويصب في البحر المتوسط بعد أن يدخل وادى الإسكندرونة .

- نهر أسطوان ؛ ويبلغ طول مجراه ٤٤ك.م ، وينبع من جبال عكار ، ويصب في خليج عكار.

- نهر عرقه؛ ويبلغ طول مجراه ٢٧ ك.م ، وينبع هو الآخر من جبال عكار، ويصب في خليج عكار.

- نهر البارد ؛ وطول مجراه ٢٤ ك.م ، وينبع من جبال المكمل، والعنية، وعكار .

- نهر أبوعلى ؛ طول مجراه ٤٤,٥ ك.م ، وينبع من مغارة قاديش، ومن نبع مار سركيس.

- نهر الجوز ؛ طول مجراه ٣٨ ك.م ، ومنبعه من جبل المنيطرة قرب تنورين .

- نهر إبراهيم ؛ طول مجراه ٣٠ك.م، ومنبعه من مغارة افقا ، ومن نبع الماتورة [3].

- نهر الكلب؛ طول مجراه ٣٨ك.م ، ومنبعه من مغارة غيتا .

- نهر بيروت، طوله مجراه ٤٢ ك.م ومنبعه جبل الكنيسة .

- نهر الدامور ؛ ويبلغ طول مجراه ٣٧,٥ك.م، ويخرج من نبع الصفا، ونبع عين دارة، ونبع الجابون .

- نهر الزهراني ؛ ويبلغ طول مجراه ٢٥ ك.م ، ويخرج من نبع الطاسة في أسفل جبل ينجا.

- نهر الأولى: يبلغ طول مجراه ٤٨ ك.م، ويعرف مجراه الأعلى بنهر الباروك ، وترفده مياه جزوين.

- نهر الليطاني: ويبلغ طول مجراه ١٧٠ ك.م ، ويقع في جنوب لبنان ؛ وهو أطول الأنهار اللبنانية جميعًا[٤].

وبالإضافة إلى ذلك ؛ هناك بحيرة طبرية، وبحيرة الحولة، وكذلك العيون ، والينابيع التى وجد العديد منها فى الضفة الغربية لنهر الأردن، ومثل ذلك العنصر جانبًا مهمًا من مصادر المياه العذبة فى بلاد الشام عند مقدم الصليبيين إليها .

ولانغفل كذلك سقوط الأمطار من خلال الرياح الغربية العكسية شتاءً ؛ وقد أدت إلى تكون تلك الأنهار السالفة الذكر، كما أفادت منها السهول الساحلية فى زراعة المحاصيل الزراعية المتعددة التى شكلت أهمية كبيرة بالنسبة للصليبيين ودخلت فى دائرة التصدير لأوربا، ومثل تلك الأمطار غذت بدورها الأنهار، والينابيع، والعيون التى وجدت فى بلاد الشام حينذاك .

وواقع الأمر ؛ أن نظرة متأنية لمناطق توزيعات الوجود الصليبى فى بلاد الشام، تكشف لنا عن أن تلك المناطق لم تنشأ عشوائيًا أو من خلال دوافع دينية- كما توحى بذلك لغة المصادر التاريخية الصليبية المبكرة - بل من الأرجح أنها قامت من خلال دوافع استراتيجية واقتصادية، وتمثلت - بعضها- فى السيطرة على موارد المياه فى المنطقة.

ومن الملاحظ ؛ أن الأنهار السالفة الذكر من نهر اسطوان حتى نهر الليطانى، والبالغة اثنى عشر نهراً جميعها وقع فى لبنان، وفى شماله قامت إمارة طرابلس الصليبية التى عدت أطول الإمارات عمراً ، وسيطرت على موارد مائية على جانب كبير من الأهمية والحيوية، فمن خلال مياه الأمطار وجد لدى طرابلس النهر الكبير الشمالى ، ونهر بلنياس ، ونهر السن،والنهر الكبير الجنوبى، ونهر عرقة، والنهر البارد ، ونهر قاديشا الذى نبع من داخل مغارة قاديشا الواقعة بدورها بين بشرى وغابة الأرز ، ويندفع على شكل قوس من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى حتى يصل إلى شمالى طرابلس ، وفيها يعرف بنهر أبوعلى ، والجدير بالذكر؛ أن مجرى ذلك النهر تغذيه عدة ينابيع من مرتفعات الأرز، والقرنة السوداء يأتى فى مقدمتها؛ نبع أهدن، ونبع رشقين، ونبع العيون ، ثم نهر كفتين بالقرب من بلدة زغرتا ، كذلك هناك نهر إبراهيم الذى نبع من مغارة افقا فى جبل المنيطرة ومن نبع العاقورة، ويمتد فى واد صخرى

تحيطه الجبال العالية، ويصب فى البحر المتوسط جنوبى مدينة جبيل على بعد سبعة كيلو مترات منها [٥].

وأمام وفرة المصادر المائية لطرابلس، لم يكن مستغربًا أن تشير المصادر التاريخية إلى ثرائها من زاوية المنتجات الزراعية بصورة لافته للانتباه [٦].

أما إذا نظرنا إلى الإمارة الصليبية الواقعة فى شمال الشام ونعنى بها أنطاكية : فقد سيطرت على قسم من نهر العاصى وكان ذلك النهر قد احتوى على ظاهرة امتداد السيادة السياسية الإسلامية والمسيحية عليه؛ إذ أن حماه ، وحمص ، وقعتا عليه . اللتان ظلتا تحت السيطرة الإسلامية، أما أنطاكية فقد صب النهر المذكور بالقرب منها، وخضعت للسيادة الصليبية ومن الملاحظ أن نهر العاصى أخضع الصليبيون منبعه ومصبه بينما مساره فى غالبه كان تحت السيادة الإسلامية .

وفى الواقع؛ وجدت ثلاث مناطق رئيسية مثلت «المناطق الذهبية» للكيان الصليبى، سعى الصليبيون لإخضاعها لسيطرتهم الحربية منذ وقت مبكر خلال الأعوام الأولى من تاريخ استقرارهم فى بلاد الشام خاصة من عام ١٠٩٨م / ٤٩١هـ ، وهو عام إخضاع أنطاكية حاضرة نهر العاصى حتى عام ١١١١م / ٥٠٥هـ ، وهو عام إخضاع صيدا حاضرة جنوب لبنان حيث نهر الليطانى، ويمكن تحديد تلك المناطق على النحو التالى:

أولاً: النطاق الجولانى : ومن المقرر- فى حالة أخذنا بالتقديرات الحديثة وهى مهمة لإلقاء الضوء على جانب من الوضع القائم خلال عصر الصليبيات- أن حجم الأمطار والثلوج التى تسقط على الجولان تبلغ ١,٥ مليار متر مكعب فى العام فيما بين شهرى أكتوبر ومايو، وأغلب هذه المياه يتبخر نتيجة طبيعة الأرض، وصخورها البركانية ، والتربة الفضارية ضعيفة القدرة على النفاذ، وتبلغ نسبة المياه المتبخرة حوالى ٨١٪ ، فى حين يتسرب ١٠٪ إلى باطن الأرض، وتجرى على السطح ٩٪ منها، وتجرى تلك المياه كى تستقر فى وديان الأنهار والبحيرات، ويمكن تقدير كمية المياه المتسربة إلى باطن الأرض، فى الجولان إلى نحو ١٥٠مليون متر مكعب فى العام تقوم بتغذية الخزانات المائية بين طبقات الأرض وتمثل بالتالى احتياطيًا مهمًا للمياه، كذلك تقدر المياه السطحية التى تغذى مجارى الأنهار والبحيرات بنحو ١٣٥ مليون متر مكعب ، ثم لانغفل أن فى الجولان نحو ٨٠ نبعًا يقدر مجموع صبيبها نحو ٩٢ مليون متر مكعب [٧]، فإذا لاحظنا أيضًا أن تلك المرتفعات تحوى جبل الشيخ الذى يوصف بأنه أساس مياه فلسطين ؛ أدركنا كم كانت تلك المنطقة على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للصليبيين من زاوية الاحتياجات المائية.

ومن الممكن القول أن تلك الأهمية تدعمت من خلال طبيعة الموقع الجغرافي ذاته الذى يربط بين فلسطين، وسوريا، ولبنان، والأردن كذلك فإن إخضاع تلك المرتفعات يمكن ذلك الطرف المسيطر عليها من التحكم وتهديد دمشق قلب المقاومة الإسلامية للوجود الصليبى فى بلاد الشام وهكذا التقت الأهمية المائية جنبًا إلى جنب مع الأهمية العسكرية .

ثانيًا : النطاق اللبنانى ؛ وهو بالغ الثراء بالأنهار التى يبلغ طولها حوالى ٥٦٨ ك.م- كما أسلفت- ناهيك عن خصوبة التربة الزراعية بالإضافة إلى وجود دعم سكانى مسيحى مارونى كما فى إمارة طرابلس على نحو أفاد الغزاة فى لعبة توازن القوى على المستوى الديموغرافى فى صراعهم مع المسلمين وهو أمر يكشف لنا بجلاء عن أن الأنهار المذكورة لايمكن إدراك أهميتها الاستراتيجية فى الصراع بين الطرفين دون أن نضع فى الاعتبار التوزيعات السكانية، واتجاهاتها السياسية المدعمة لأحد المعسكرين المتصارعين وبصفة عامة نلاحظ أن مناطق الأنهار التى أخضعها الصليبيون لسيطرتهم شهدت كثافات سكانية مرتفعة بالمقارنة بالمناطق الأخرى، مع عدم إغفال الارتفاع فى الكثافة السكانية القائم فى الساحل الشامى خاصة فى مدنه الرئيسية كعكا، وطرابلس، وبيروت، وغيرها ؛ وهو أمر يمكن إدراكه فى يسر وسهولة من خلال نصوص الرحالة والجغرافيين فى ذلك العصر.

ثالثًا : الضفة الغربية لنهر الأردن ؛ حيث نهر الأردن وكذلك المخزون المائى الكبير فى صورة المياه والآبار والينابيع ثم خصوبة التربة، وزادت أهمية ذلك النطاق من خلال وجود بيت المقدس، العاصمة الدينية والسياسية للصليبيين، ويلاحظ أن ذلك النطاق شكل ارتباطًا قويًا بين الحدود الشمالية والشرقية للملكة الصليبية بالحدود الفلسطينية نظراً لكون ذلك النهر نبع من مرتفعات الجولان ذاتها.

ومن زاوية أخرى؛ من المتصور أن الصليبيين قاتلوا بشراسة من أجل إخضاع مناطق منابع الأنهار، ومساراتها ، ومصباتها قدر استطاعتهم أو التوصل إلى حلول وسط مع جيرانهم من المسلمين من خلال سلاح الدبلوماسية؛ لكى تكون بعض المناطق ذات الوفرة المائية بمثابة مناطق مناصفة للاستفادة المشتركة بين الجانبين أو بتعبير آخر فى صورة الكوندمونيوم Condominum ومن المرجح : أن ذلك الوضع تم اتباعه فى مرتفعات الجولان ولذا وجدناها على نحو خاص متداولة السيادة بين الصليبيين وبين حكام دمشق سواء الأتابكة أو الدولة النورية ومن بعدها الدولة الأيوبية فيما قبل حطين .

إن ذلك الوضع يكشف لنا عن حقيقة محورية؛ وهي أن من بين الأهداف العليا للصليبيين، كان تأمين مصادر المياه قدر الاستطاعة ، ومن زاوية أخرى؛ من الممكن ملاحظة أن الصليبيين اهتموا ببعض الأنهار والبحيرات والعيون اهتمامًا زائداً عن غيرها من خلال الارتباطات الدينية المسيحية لاسيما عهدها الباكر، وارتباط تلك المناطق بأمر السياحة الدينية المسيحية التى درت على المملكة الصليبية أموالاً طائلة، وعدت أحد الأركان الرئيسية لميزانيتها المالية، وهى زاوية امتاز بها الوجود الصليبى على الكيانات الإسلامية المتغلبة فى بلاد الشام.

ومن أمثلة ذلك؛ نهر الأردن الذى فيه غسل السيد المسيح عليه السلام أقدام حوارييه تواضعًا ، فقد حرص الآلاف من الحجاج المسيحيين على الذهاب إلى هناك والاستحمام فيه تبركًا، أما بحيرة طبرية ؛ أو ما عرف ببحر الجليل، فمن المعروف أن السيد المسيح تناول سمكها[٨]، وعلى ذلك حرص العديدون من الحجاج على اقتفاء أثره فى ذلك[٩] ، فلاعجب والأمر كذلك أن عدت البحيرة المذكورة من أهم مناطق مصايد الأسماك فى المملكة الصليبية[١٠]، وبالنسبة للعيون هناك عين سلوان[١١] ، الواقعة فى وادى قدرون أو وادى جهنم؛ شرق بيت المقدس، ومن المعروف أن السيد المسيح أعاد البصر، بإذن الله تعالى- لأحد المكفوفين بعد أن غسل عينيه بمياهها [١٢]، ولذلك عدت من المواقع التى تبرك بها الصليبيون، وحرصوا على شرب مياهها، وتذكر لنا المصادر الصليبية المعاصرة للحملة الصليبية الأولى؛ الاندفاع الجنونى للصليبيين خلال أحداث تلك الحملة من أجل الفوز بالارتواء من مياهها المقدسة لديهم [١٣].

وهكذا ؛ وجدنا أن تلك المزارات «المائية» مثلت جزءًا أساسيًا ضمن رحلة الحج المسيحى إلى مملكة بيت المقدس الصليبية على نحو عكسته كتب الرحلة إليها التى ألفها الرحالة الأوربيون وأن المياه كانت جزءًا من السياحة الدينية فى مناطق الصليبيين، وتتضح أهمية ذلك من خلال إدراكنا أن الوضع الدينى الدولى للمملكة الصليبية لدى الغرب الأوربى قام أساسًا على حماية الأماكن المقدسة المسيحية والحفاظ عليها، وكذلك صيانتها وجذب عشرات الآلاف من عالم المسيحية Christendom من أجل القيام بالحج إلى هناك .

ومن ناحية أخرى؛ نجد أن المياه فى مناطق الصليبيين كان لها شأنها بالنسبة لما يمكن وصفه «بالسياحة العلاجية» ، فمن المعروف أن إقليم الجليل بشمالى فلسطين وخاصة منطقة طبرية، احتوى على ينابيع حارة أفادت فى علاج بعض الأمراض لاسيما الأمراض الجلدية، وقد شاع

أمرها بين الناس ، وتوافد العديدون عليها من أجل ذلك، وفى هذا المقام ؛ من الإنصاف التقرير بأن من الجغرافيين والرحالة المسلمين من حرص على الإشارة إلى تلك الناحية ، بينما لانجدها بمثل تلك الصورة لدى كتابات أقرانهم من الأوربيين.

ومن الملاحظ ؛ أن تلك الينابيع وصفت بأنها حمامات حارة شتاء وصيفًا[١٤]، ومن أسمائها حمام الدماقر ، ووصف بالكبر والعظمة [١٥]. وحمام اللؤلؤ الذى هو أقل منه حجمًا[١٦]، ثم حمام المنجدة [١٧]، وكذلك عين موقعين ، وعين الشرف [١٨] ، وبصفة عامة ؛ طبقت شهرتها الآفاق فى أمر العلاج بدليل أننا نعرف أن المرضى قدموا إليها من «جميع النواحى» [١٩]، ومنهم المقعدين ، وأصحاب القروح ، والجرب، أما مدة العلاج فكانت - كما يقرر البعض- ثلاثة أيام[٢٠]- وهى مدة ليست بالطويلة مما عكس فعالية العلاج بتلك المياه.

ومن المنطقى تصور قيام مواقع خدمات حضارية- بمقاييس ذلك العصر بطبيعة الحال، من أجل رعاية المرضى الوافدين إلى تلك الحمامات للعلاج ، وقد كان لتلك العيون الحارة دورها فى ازدهار السياحة العلاجية التى أفادت الصليبيين ماديًا شأنها فى ذلك شأن السياحة الدينية السالفة الذكر، وإن كانت بدرجة أقل كما هو متوقع ، وإن اتفق النوعان المذكوران فى دعم ميزانية الوجود الصليبى.

إن الوضع السابق يكشف لنا عن حقيقة مفادها أن الصليبيين اتبعوا فى أساليب علاج بعض الأمراض إلى جانب الأدوية النباتية ، والكيميائية المفردة ، والمركبة ، العلاج القائم على المياه الجوفية الحارة التى فى مقدورها علاج بعض الأمراض لاسيما الجلدية منها، فاذا مالاحظنا الطبيعة الدينية للمنطقة التى شهدت جانبًا من ذكريات المسيحية المبكرة؛ أدركنا كيف كان للعلاج بمثل تلك المياه أثرها النفسى الكبير على نفوس المرضى وبالتالى تزايد ارتيادهم لتلك المناطق .

ومن زاوية أخرى؛ نجد أن كتابات الرحالة الأوربيين تقدم لنا إشارات مهمة عن رؤية الصليبيين لمصادر المياه فى المنطقة على نحو يعكس إدراكهم لدورها الحيوى، وفى هذا المجال نجد الرحالة الروسى دانيال Daniel الذى قام برحلته حوالى عامى ١١٠٦-١١٠٧م / ٥٠٠-٥٠١هـ إلى مملكة بيت المقدس الصليبية فى عهد الملك بلدوين الأول Baldwin I (١١٠٠-١١١٨م/ ٤٩٤-٥١٢هـ) : قد أشار إلى الأنهار الموجودة فى جبل لبنان، وذكر أنها بلغت اثنى عشر نهراً[٢١] دون أن يذكر أسماءها، كذلك أشار إلى نهر الأردن، وذكر تدفق

مياهه ، وصلاحيتها للشرب، وأنها لاتؤذى المعدة، واعتبره مثل نهر سنوف فى روسيا[٢٢]، ويبدو أن تجمد عدد من الأنهار فى بلاده من جراء الانخفاض الحاد فى درجة الحرارة شتاءً إلى حد التجمد؛ جعله يلاحظ تدفق أنهار بلاد الشام ويتحدث عنها بمثل تلك الصورة ، ويعقد مقارنة بين أوجه الاتفاق والاختلاف بينها ، وبين أنهار بلاده[٢٣]، كذلك نجده أشار إلى بحيرة طبرية، وذكر أمر مياهها العذبة وأنها عامره بمختلف أنواع الأسماك[٢٤]، وبها نوع معين يقال أن السيد المسيح عليه السلام كان مغرمًا به، وحرص دانيال على تناوله تيمنًا به، الأمر الذى عكس ارتباط الصليبيين وزوار المملكة الصليبية عمومًا بأنهار وبحيرات معينة متصلة بذكريات المسيحية المبكرة مثل نهر الأردن وبحيرة طبرية ، وغيرها.

أما فتيلوس Fetellus؛ الذى يرجح أنه زار المملكة الصليبية خلال المرحلة من ١١١٨ إلى ١١٣٠م / ٥١٢-٥٢٤هـ : فنجده اهتم بايراد أمر نهر العاصى Orontes ، وقد أطلق عليه اسم فارفار Pharphar [٢٥] أو Far Far [٢٦]، وذكر أنه نبع من أسفل جبل لبنان واخترق مناطق عديدة من بلاد الشام مثل ربلاتا Reblata أو أنطاكية وامتد إلى قرب أسوار المدينة الأخيرة إلى أن يصل إلى البحر المتوسط حيث توجد مدينة سوليم Solim أو القديس سيمون St.Simon أو السويدية [٢٧].

ويلاحظ هنا : أن الرحالة عندما يشير إلى نهر من الأنهار فى معرض رحلته التى يغفل فيها أشياء، ويورد أشياء أخرى، يعكس لنا إدراكه لأهمية النهر المذكور فى حياة الصليبيين زراعة واستقراراً بشكل عام.

أما الرحالة الألمانى ثيودريش Theoderich الذى زار المملكة الصليبية على الأرجح فيما بين عامى ١١٧١-١١٧٣م / ٥٦٧-٥٦٩هـ؛ فنجده اهتم بمصادر المياه، وأشار إلى أن أهل بيت المقدس يقومون بتخزين مياه الأمطار من أجل استغلالها عند الاحتياج إليها، ولاتوجد لديهم أية مصادر أخرى، كما ذكر أن الداوية قاموا بوضع صهريج ضخم مزود بآلة متحركة من أجل ضخ المياه [٢٨].

وتعكس رواية ذلك الرحالة حقيقة مهمة، وهى أن مناطق السيادة الصليبية لم تكن متساوية فى زاوية المياه، فبعضها مثل إمارة أنطاكية ، وكذلك إمارة طرابلس تمتع بوفرة مائية، أما البعض الآخر؛ مثل قلب المملكة ذاتها، وعاصمتها فى صورة بيت المقدس، فقد عانت من قلة المياه ، واعتمدت على مياه الأمطار ، ولذلك لجأت إلى تخزينها فى خزانات

زودت بآلات لضمها ، وهو نفس الأسلوب الذى اتبعه المسلمون من قبل سيطرة الصليبيين على تلك المدينة المقدسة، كذلك تعكس روايته، استفادة الصليبيين من علم الميكانيكا أو علم الحيل من أجل التوصل إلى اختراع آلات تقوم بدورها فى رفع المياه .

وبصفة عامة؛ من الملاحظ أن عنصر المياه ارتبط بتاريخ الصليبيين طوال المرحلة موضوع الدراسة ، غير أن أهم وأخطر المراحل التى ارتبط بها، تمثل فى ظروف معركة حطين التى جرت وقائعها بين الجيش الأيوبى والجيش الصليبى فى ٤ يوليو ١١٨٧م / ٢٤ ربيع الآخر ٥٨٣هـ ، حيث تمكن المسلمون من استدراج الصليبيين بعيداً عن موقعهم المتميز بوفرة المياه فى صفورية وجلبهم إلى حطين حيث منع عنهم موارد المياه حيث كان التعطيش أحد الأسلحة الفعالة التى لجأ المسلمون إلى استخدامها ضد أعدائهم[٢٩] ، ووصل إليهم الجيش المعادى مجهداً ومنهكًا خاصة مع ملاحظة ارتفاع درجة الحرارة فى ذلك الوقت من العام. وكان حرمان القوات الصليبية من موارد المياه عنصراً حاسمًا من عدة عناصر ساهمت بدورها فى صنع الانتصار الكبير فى تلك المعركة الخالدة .

لقد كشفت تلك المعركة أن من يحرم خصمه من موارد المياه، وبالتالى يقطع عليه خطوط تموينه ؛ بإمكانه تحقيق الانتصار مع عدم إغفال فعاليات العناصر الأخرى لاسيما تنامى روح الجهاد الإسلامى ونوعية الجيش الأيوبى المتفوقة ، ثم اندفاع بعض القيادات الصليبية وتهورها، والظروف المناخية المواتية خلال صيف ذلك العام؛ على نحو أدى فى النهاية إلى سقوط مملكة الصليبيين التى عاشت على الأرض العربية قرابة تسعين عامًا ، ومعنى ذلك؛ أن عنصر المياه يقف ضمن منظومة متكاملة يتم توظيفه من خلالها.

ولانغفل عند دراستنا للمياه خلال تلك المرحلة من تاريخ الصليبيين فى بلاد الشام ملاحظة أن الغزاة واجهوا خطراً داهمًا إلى جانب خطر المسلمين العسكرى، ونعنى به «الجفاف» ، لقد كان احتباس المطر له تأثيره الكبير على منسوب المياه فى الأنهار الشامية والبحيرات العذبة الخاضعة بصورة كاملة أو جزئية لهم كما فى حالة بحيرتى طبرية والحولة، وكان لذلك أثره البالغ لاسيما على الناتج الزراعى، على نحو أدى أحيانًا إلى حدوث مجاعات فى مناطق الصليبيين، وفى هذا الصدد يحدثنا المؤرخ الصليبى وليم الصورى عن قلة الحبوب لدى بنى قومه، وذلك قبيل إخضاعهم لمدينة عسقلان عام ١١٥٣م / ٥٤٨هـ، وأن الاستيلاء على الأخيرة أفادهم فى الحصول على الحبوب بكميات كبيرة[٣٠] على نحو أدى إلى معالجة الموقف الاقتصادى المتأزم حينذاك.

ومن الملاحظ : أن المصادر الصليبية فى القرن المذكور لاتكشف لنا بالتفصيل أو بصورة منتظمه أمر منسوب مياه الأمطار، وغزارتها، أو احتباسها، ولانجد لدى المؤرخين الصليبيين ما نجده - على سبيل المثال- لدى مؤرخ دمشقى بارز فى صورة ابن القلانسى (ت ١١٦٠م / ٥٥٥هـ) الذى يحتوى كتابه ذيل تاريخ دمشق على اشارات منتظمة ومفيدة للغاية بشأن وضع الأمطار من حيث غزارتها أو احتباسها ، وكل ذلك من خلال تحديد زمنى دقيق بصفة عامة ، ونظراً لافتقاد المصادر التاريخية الصليبية ذلك ، وكذلك تقارب الامتداد الجغرافى بين مناطق المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام؛ فمن المتصور والمفترض أن ما أورده ذلك المؤرخ بشأن دمشق حاضرة بلاد الشام الكبرى وغيرها من المدن الشامية من الممكن أن ينطبق على مناطق صليبية أخرى فى فلسطين ، ولبنان، وشمال الشام، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة بصورة أو بأخرى بطبيعة الحال.

وبصفة عامة ؛ كان العدو اللدود للصليبيين والذى لم يكن فى مقدورهم دفعه : الجفاف الناجم عن نقص الأمطار، لقد كان من الممكن لهم التعامل عسكريًا مع أعدائهم المسلمين بصورة أو بأخرى ، أما نقص الأمطار فلم يكن لديهم أية بدائل فى أمر مواجهتها، وهى تتشابه فى ذلك- خاصة فى حالة استمرارها عدة أعوام- مع كوارث أخرى واجهتهم فى ذلك القرن موضع الدراسة مثل الزلازل [٣٢] ، والأمراض الوبائية الفتاكة[٣٣] ، وغارات أسراب الجراد التى كانت تقضى على الأخضر واليابس إلى غير ذلك من صور النوازل، والكوارث.

ومن زاوية أخرى؛ نلاحظ أن هناك دوراً مهمًا ومؤثراً لعبته الأنهار الواقعة على الحدود بين مناطق الصليبيين والمسلمين لاسيما فيما يتصل بالتعامل الاقتصادى بين الطرفين ولاسيما التجارى، وخير مثال دال على ذلك نهر اليرموك الذى ورد فى المصادر الصليبية على أنه الدان Dan [٣٤]، إذ أن منطقة الجليل وبالتحديد الجزء المسمى الميدان[٣٥] أو السهل الفسيح المعروف باسم أرض السوق عند حوران ، وقع النهر المذكور فى منتصفها ، وعندها كان الناس يقدمون ومعهم سلعهم من أجل المتاجرة فيها[٣٦]، واعتبر السوق المذكور موسميًا حيث عقد خلال الصيف ، ويقرر هايد أنه أقيم عند وصول القافلة القادمة من مكة المكرمة، وفى بداية الفصل المذكور كان العديدون يهرعون إلى المنطقة حتى من بلاد ما بين النهرين[٣٧] ، ويلاحظ هنا أن تلك المنطقة عرفت باسم سهل موزرب Mauzarib ، وهناك احتمال أن عناصر من الغرب الأوربى شاركت فى السوق على اعتبار كون المنطقة قد عرفت لدى الصليبيين تحت اسم سويتا

Sueta ، ومثلت قسمًا من مملكة بيت المقدس الصليبية عند أقصى امتداد لها فى مواجهة دمشق[٣٨] وبعدت عن طبرية بنحو ستة عشر ميلاً .

ومن الممكن تصور؛ أن ذلك السوق اشتركت فيه عناصر متعددة من التجار من بلاد العراق، والشام، وكذلك من أوربا مما عكس اتساع نطاق التعامل التجارى فيه، ويلاحظ هنا أن طول مدة انعقاده ، وهى التى شملت أشهر الصيف عكست مدى ازدهار المنطقة تجاريًا ، ومن المفترض أن وجوده فى تلك المنطقة الحدودية ، وعند نقطة تلتقى فيها الحدود الإسلامية مع الصليبية ، ضمن له مكانة خاصة حيث تبادل كل طرف ما افتقد إليه ووجد لدى الطرف الآخر من سلع تجارية.

ومن الممكن القول؛ إن مثل تلك الأسواق كانت ذات صفة دولية، ولم تكن ذات طابع محلى فقط. وفيها عقدت صفقات البيع والشراء، والمبادلة بالنقد والمقايضة، وكذلك البيع المؤجل الدفع[٣٩] إلى غير ذلك من صور التعامل التجارى التى ازدهرت فى ذلك العصر.

وقد اكتسب السوق المذكور الواقع عند نهر اليرموك أهمية اقتصادية لمملكة بيت المقدس الصليبية وكذلك للتجار المسلمين فى المناطق الحدودية المجاورة لها على نحو خاص ، وتزايدت تلك المكانة الاقتصادية له من خلال إدراكنا أن عدداً من الرحالة الأوربيين؛ حرصوا على الإشارة إليه فى صورة كتابات فتيلوس Fetellus[٤٠]، ومن بعده ثيودريش Theoderich[٤١] على نحو عكس أنه صار حقيقة اقتصادية واقعة ، بصورة جعلت مثل أولئك الرحالة يحرصون على ذكره فى رحلاتهم .

وهكذا : يمكن القول إن الأنهار الحدودية مثل نهر اليرموك لعبت دورها فى التداخل الاقتصادى بين الصليبيين والمسلمين على الرغم من اشتعال العداء والصراع الحربى والسياسى بين الجانبين، ومن الممكن الافتراض أن ما حدث بالنسبة لموقع نهر اليرموك يمكن أن يصدق على أنهار حدودية أخرى بين مناطق الصليبيين والمسلمين مثل نهر العاصى على سبيل المثال ، وهكذا : لم تكن الأنهار الشامية حينذاك بالضرورة عوامل فصل بين الطرفين المتصارعين بل إنها أحيانًا كانت من عوامل الارتباط والاتصال .

وتوجد زاوية أخرى على جانب حيوى من الأهمية ؛ وهى أن المياه دخلت فى لعبة توازنات القوى بين الصليبيين وأعدائهم، فعلى الرغم من سعى الغزاه نحو إخضاع المناطق الذهبية الثلاث السالفة الذكر، فإن المسلمين امتلكوا مميزات مائية لايستهان بها؛ من خلال إخضاعهم

للظهير البرى، وظلت مسافات شاسعة من نهرى الفرات، والعاصى فى قبضتهم، وعلى ضفاف تلك الأنهار وجدت مدن إسلامية لعبت دوراً محوريًا فى قضية الصراع بين الطرفين، مثل حمص، وحمص، وحماه وغيرها، فاذا أضفنا إلى ذلك قسمًا من بحيرة طبرية، وكذلك نهر الأردن؛ أدركنا أن المسلمين امتلكوا مميزات لايستهان بها، خاصة مع إدراكنا للكثافات السكانية المتزايدة لديهم بالمقارنة بالصليبيين الذين عانوا من نقص العنصر البشرى أصلاً.

والملاحظ هنا: أن ذلك الوضع وفر للمسلمين نوعًا من الأمن المائي الذى يواجه الأمن المائى الصليبى، خاصة أنهم أصحاب الأرض فى الأساس، وليسوا غزاة غرباء قادمين من الغرب الأوربى، فاذا لاحظنا أن ذلك البعد المائى كان عصب قوة حركة الجهاد الإسلامى التى جيشت الجيوش من أجل مواجهة أعداء الإسلام؛ أدركنا كيف أن المياه لعبت دورها هى الأخرى لدى الجانب الإسلامى فى قضية المواجهة مع الصليبيين.

مهما يكن من أمر: أدرك الصليبيون أن «الأمن المائى» أساس كافة أشكال الأمن الأخرى لكيانهم، ولذلك حرصوا على الحفاظ على المياه وحمايتها قدر الاستطاعة، ومن الممكن ملاحظة أنهم اتبعوا فى سبيل ذلك عدة وسائل يمكن إيجازها فى الآتى:

أولاً: جعل أمر الحفاظ على مناطق توافر المياه فى المقام الأول بالنسبة لأهداف العسكرية الصليبية، وإذا كانت توسعاتهم اتجهت نحو ضم تلك المناطق، وقد سعوا من بعد ذلك إلى استمرار إخضاعها فى قبضتهم بكل ما أوتوا من قوة فى مواجهة أعدائهم من المسلمين، ومن الأمور ذات الدلالة: أن القلاع الصليبية، وهى التى قامت بدور محورى من أجل تدعيم أركان الكيان الغازى فى الأرض العربية، كان جزءاً من أهدافها حماية مصادر المياه لاسيما الأنهار سواءً فى المنابع أو المصبات أو مساراتها المهمة، ومن أمثلة ذلك: أن قلعة شقيف أرنون التى كانت تطل على نهر الليطانى بجنوب لبنان عملت على حماية ذلك النهر ليبقى تحت السيادة(٤٢) الصليبية، ثم أن قلاع بغراس (٤٣)، ودربساك (٤٤)، وحجر شغلن (٤٥)، والقصير (٤٦)، التابعة لإمارة أنطاكية، كانت تعمل - ضمن أهدافها المتعددة- على حماية تلك الإمارة المزدهرة مائيًا من خلال نهر العاصى والنهر الأسود، أما إمارة طرابلس؛ فنجد أن قلاع حصن الأكراد(٤٧)، والمرقب(٤٨)، والمرقبة(٤٩) قامت بالدفاع هى الأخرى عن مواردها المائية. كذلك هناك نطاق آخر للقلاع الصليبية فى وادى اليرموك، وامتداده فيما بين عمّان والعقبة خاصة حصنى الكرك، والشوبك، وغيرهما من القلاع (٥٠).

زد على ذلك أنه من خلال كتابات براور اتضحت الصورة المتعلقة بتوزيع القلاع التى شيدها الصليبيون مع مسارات الأنهار والبحيرات العذبة ، فعند نقطة التحول الحادة لنهر الليطانى كان حد المملكة الصليبية يتجه نحو الشرق ، ويعبر روافد نهر الأردن حتى يصل إلى قمة جبل الشيخ أو هرمون Hermon الجنوبية المكسوه بالجليد وتم تشييد قلعة الصبيبة أو النمرود على إحدى السلاسل الجبلية لذلك الجبل وقد طلت على بانياس ومعظم أملاك الصليبيين الشمالية الشرقية(٥١).

كذلك قام الغزاة بتشييد قلعتين صغيرتين على الجانب الشرقى من بحيرة طبرية فى صورة قلعة العال، وقصر بلدوين (قلعة بلدوين) ، ثم أنه عند عبور نهر اليرموك إلى شاطئه الجنوبى نجد حصنًا صليبيًا قويًا فى صورة حصن حابس جلدك وقد عرف لدى الصليبيين باسم كهف السواد أو قلعة السواد (٥٢).

ولامراء ؛ فى أن ذلك يؤكد لنا فكرة محورية فى صورة أن القلاع الصليبية قامت لكى تحمى الأمن المائى لصالح الغزاة - وذلك مع عدم إغفال باقى الدوافع الفعالة الأخرى التى من أجلها شيدت- وبالتالى ارتبطت خريطة توزيعاتها حينذاك ارتباطًا قويًا بتوزيع المياه العذبة فى صورة الأنهار ، والبحيرات العذبة التى وجدت فى بلاد الشام مما يدعم مقولة أن الصراع بين الصليبيين والمسلمين كان على شيئين أساسين؛ الأرض، والمياه، ومن ورائهما رفع الغزاة كافة الشعارات الدينية؛ من جلال تجميل وجه الحركة الصليبية وتبرير قيامها.

ثانيًا: السعى نحو تخزين مياه الأمطار فى المناطق التى لم تتوافر فيها الأنهار الجارية فى صورة الصهاريج (٥٣)، وخير مثال دال على ذلك مدينة بيت المقدس ذاتها، ومع ذلك نلاحظ أن الصهاريج فيها كانت تعمل إلى جانب البرك التى وجدت داخل أسوار المدينة، فيقرر البعض؛ أنه كانت هناك ثلاث برك كبيرة فى حى البطريرك وترد تحت اسم Lacus Bulneorum وبالقرب من يوشفات وجدت العين القديمة، وهى التى عرفت لدى المسلمين ببركة بنى إسرائيل(٥٤)، وإلى الشمال منها وجدت بركتان عرفتا باسم البركة الداخلية أو باسم Piscina Interior أو بركة الشاه Pool of The sheep أو Probatica Discina وكانت هناك بركتان وقعتا خارج المدينة الأولى بالقرب من بوابة القديس ستيفن St. Stephen بين مستعمرة المبرصين للقديس لازار St. Lazar(٥٥) ، وكنيسة القديس ستيفن فى الأرض المنخفضة غرب

شارع الأنبياء ، وعرفت ببركة ليجيريوس Legerius والثانية عرفت باسم بركة السلطان فى وادى هنوم، و بنيت بمبادرة من شخص سمي جرمين Germain[٥٦] ، وكانت المياه فى المدينة كافية لإمداد عدد كبير من حمامات المنازل، ومعنى ذلك كله : أن الصهاريج تعاونت معًا مع البرك فى توفير المياه لقاطنى المدينة المقدسة سواءً أولئك الساكنين فيها بصورة مستمرة أو الزائرين لها لعدة أيام ضمن رحلة حجهم إليها .

ثالثًا: من المحتمل أن الصليبيين من خلال إدراكهم لأهمية عنصر المياه، حرصوا الحرص أجمعه على عدم طرح مناطق المياه فى مفاوضاتهم مع المسلمين قدر الإمكان ، ما لم تحدث كارثة عسكرية تحل بمملكة بيت المقدس تزلزل أركان الوجود الصليبى، وبذلك تتغير الحسابات من خلال تغير الأوضاع السياسية والحربية الصليبية- الإسلامية، وهو أمر يكشف لنا عن حقيقة محورية، وهى أن الأمن المائى الصليبى شهد مراحل متفوقة من خلال ضعف الجبهة الإسلامية، وعدم قدرة المسلمين على تحقيق نجاحات حاسمة ضد الغزاة خاصة خلال نحو الأربعة عقود الأولى من تاريخ استقرارهم فى المنطقة ، لكن مع تمكن القيادات المسلمة من تحقيق إنجازات قلبت موازين القوى لصالح الأخيرين ، ووصلت إلى ذروتها من خلال معركة حطين ١١٨٧م / ٥٨٣هـ؛ كان ذلك يعنى أن هيمنة الصليبيين على مصادر المياه فى مناطق سيادتهم السياسية قد تراجعت إلى الوراء بعيداً وأن انتصارات المسلمين وجهت - فيما وجهت- صوب عصب الحياه لدى أعدائهم فى صورة المياه ، فلاعجب إذا أخضع المسلمون فى أعقابها الأنهار الشامية التى كانت تحت سيطرة الصليبيين من قبل، وهنا مكمن الإنجاز الكبير فى حطين، فالى جانب فتح الساحل ، وإسقاط القلاع الصليبية ، واسترداد بيت المقدس، هناك عودة مصادر المياه إلى المسلمين وتجريد أعدائهم من عنصر القوة الرئيسى، مع عدم إغفال وجود مواقع ظلت فى قبضة الصليبيين على الرغم من الهزيمة الكاسحة مثل طرابلس ، وأنطاكية، وحصن الأكراد ، والمرقب، وصور[٥٧].

ولاريب ؛ فى أن الصفحات السابقة كشفت لنا بجلاء عن الدور الحيوى الذى لعبته المياه فى تاريخ الصليبيين خلال المرحلة الممتدة من عام ١٠٩٩ إلى ١١٨٧م / ٤٩٢-٥٨٣هـ، غير أن من الأهمية بمكان ملاحظة أن عنصر المياه لايمثل مظهراً حيويًا دون وجود الإنسان كفاعل تاريخى يعمل على استغلال ذلك العنصر الطبيعى لدعم أهدافه العليا وخدمة مصالحه وهو أمر سعى الصليبيون ما وسعهم نحو تحقيقه بكل الوسائل الممكنة.

ذلك عرض لدور عنصر المياه فى تاريخ الصليبيين فى بلاد الشام خلال المرحلة المذكورة .

الهوامش

١- سامر مخيمر وخالد حجازى، أزمة المياه فى المنطقة العربية الحقائق والبدائل ، سلسلة عالم المعرفة، ط. الكويت ١٩٩٦م، ص٢٧ .

٢- نفسه، نفس المرجع ، ص٣٣ ، فتحي عبدالله فياض، «فلسطين الموقع والموضع . دراسة جيوبوليتيكية»، ندوة فلسطين عبر عصور التاريخ . ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص٣٧ .

٣- سامر مخيمر وخالد حجازى، المرجع السابق، ص٣٧ .

وعن نهر العاصى أنظر:

الإدريسى ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، جـ١ ، ط. بيروت ١٩٨٩م، ص٢٥٧ ، وعن نهر عرقه أنظر: نفسه، نفس المصدر ، ص٣٧٣ . وعن نهر إبراهيم أنظر: نفسه، نفس المصدر، ص٣٧٢، وعن نهر بيروت أنظر : نفسه ، نفس المصدر ، ص٢٤٧ .

٤- سامر مخيمر وخالد حجازى، المرجع السابق، ص٣٧ ويلاحظ أن نهر الليطانى أطلق عليه نهر ليونتيس Leontes عن ذلك أنظر:

Richard, " Agricultural Conditions in The Crusader States", in Setton , A History of the Crusades, vol. V , Madison 1985 , p. 253 .

٥- سليمان الخرابشه، نيابة طرابلس فى العصر المملوكى، ط. عمان ١٩٩٣م، ص٢٠ .

٦- الادريسى، المصدر السابق، ص٢٥٣ ، وفى ذلك يقول : «لها بساتين وأشجار كثيرة ويزرع بها قصب السكر» .

٧- هيثم الكيلانى، «الجولان فى حاضره ومستقبله» ، شؤون عربية ، العدد (١٠٥) مارس ٢٠٠١م، ص١٣٦ . وهى على جانب كبير من الأهمية لدراسة مرتفعات الجولان من الزوايا الجغرافية والاستراتيجية

٨- متى، الإصحاح (١٤)، يوحنا ، الإصحاح (٦) .

Pax, Sur les Chemins des Jesus, Tell Aviv 1970, p. 107 , with Jesus in the Holy land , Tell Aviv 1979 , p. 56 .

٩- Daniel, p. 62 .

١٠- عن وفرة الأسماك فى بحيرة طبرية والمتاجرة فيها أنظر :

William of Tyre, vol . II, p. 433 .

١١- عن عين سلوان أنظر:

Raymond D'Aguilers, Historia Francorum qui Ceperunt Iherusalem, Trans. by John Hugh Hill and laurita L. Hill, Philadelphia 1968, p. 118.

Daniel, p. 25-26, John of Wurzburg, p. 51.

بنيامين التطيلي ، الرحلة ، ت. عزرا حداد ، ط. بغداد ١٩٤٥م، ص١٠٢ ، حاشية (٢) ، المنهاجي السيوطي، اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى ، ق١ ، تحقيق أحمد رمضان ، ط. القاهرة ١٩٨٢م، ص٢١١-٢٢٤ ، عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، ط. القاهرة ١٩٧٤م، ص١٧ .

١٢- John of Wurzburg, p. 51.

١٣- Raymond D' Aguilers, p. 118.

١٤- الإدريسي ، المصدر السابق، ص٣٦٤ .

١٥- نفسه، نفس المصدر والصفحة .

١٦- نفسه، نفس المصدر والصفحة.

١٧- نفسه ، نفس المصدر والصفحة.

١٨- نفسه، نفس المصدر والصفحة .

١٩- نفسه، نفس المصدر، والصفحة.

٢٠- نفسه، نفس المصدر والصفحة.

وتجدر الإشارة إلى أن القزويني أشار إلى حمام آخر باسم الحسنية، وأشاد به إشادة كبيرة حتى أنه عده من «عجائب الدنيا» ؛ على نحو يعكس استمرار تلك الظاهرة في عصر الحروب الصليبية فيما بعد عصر الإدريسي في القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري، عن إشارته انظر :

القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد، ط. بيروت ، ب-ت . ص٢٦٨ .

وعن تلك الحمامات أنظر أيضًا :

إسحاق بن الحسين ، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، باعتناء فهمي سعد، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص٦٠ ؛ بنيامين التطيلي ، المصدر السابق ، ص١١١ .

٢١- Daniel, p. 66.

٢٢- Ibid, p. 28.

ويلاحظ أن نهر سنوف Snov وقع في مقاطعة تكرينكوف Tchernigov الروسية.

محمد مؤنس عوض ، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م ، ط. القاهرة ١٩٩٢م، ص٩٨ ، حاشية (٤٦) .

٢٣- نفسه، نفس المرجع ، ص٨٢ .

٢٤- Daniel , p. 62 .

٢٥- Fetellus, p. 24 .

٢٦- Ibid, p. 24 .

٢٧- Ibid, p. 24 .

٢٨- Theoderich, p. 64 .

٢٩- نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، ط. القاهرة ١٩٥٧م ، ص١٨٤ ؛ عبد العزيز سيد الأهل ، أيام صلاح الدين ، ط. بيروت ١٩٦١م، ص١٩٦ ؛ محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين، ط. بيروت ١٩٨٦م، ص٤٢٠-٤٢١ .

٣٠- William of Tyre , vol . II, p. 236 . Richard, Op. cit. , p. 253 .

٣١- عن ذلك أنظر: ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٥٦ .

٣٢- نفسه ، نفس المصدر ، ص٣٤٤ ، ابن العديم، زبدة الحلب ، جـ٢، ص٣٠٧ ، محمد مؤنس عوض ، الزلازل فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص٥٥-١٥٧ .

٣٣- محمد مؤنس عوض ، أضواء على الطب فى المناطق الصليبية ١٠٩٨-١١٧٤م ، سلسلة دراسات شرق أوسطية، مركز بحوث الشرق الأوسط- جامعة عين شمس عام ١٩٩٥م، ص٢ .

٣٤- Theoderich, p. 64 .

٣٥- Fetellus , p. 26 .

٣٦- Ibid, p. 26 .

٣٧- هايد، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، جـ١، ت. محمد رضا، ط. القاهرة ١٩٨٥م، ص١٨٣ .

٣٨- نفسه، نفس المرجع والصفحة.

أيضًا : William of Tyre , vol . II, p. 270 , p. 272 .

عبد الحافظ عبد الخالق يوسف، الأسواق فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام من ١٠٩٩ إلى ١٢٩١م، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة الزقازيق عام ١٩٨٩م، ص٧٦ ، محمد مؤنس عوض، «الأسواق التجارية فى عهد الدولة النورية »، الدارة ، السنة (١٦) ، العدد (٣) عام ١٩٩١م، ص٧٣ .

٣٩- نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٧٣م، ص٢٨٤ .

٤٠- Fetellus, p. 26 .

٤١- Theoderich , p. 64 .

٤٢- عن قلعة شقيف أرنون أنظر :

ابن شداد ، النوادر السلطانية، ص٩٧ : سرور على عبد المنعم، الدور السياسى لحصن شقيف أرنون عصر الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة طنطا عام ١٩٩٧م.

٤٣- عن قلعة بغراس أنظر: أبو الفداء ، تقويم البلدان، ص٢٥٨-٢٥٩ ، المقريزى . السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١ / ق١ ، ص١٠٠ ، حاشية (٨) ، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٣٢٦ : على عوده الغامدى،«حصن بغراس ودوره الحربى فى عصر الحروب الصليبية »، ندوة الإطار التاريخى للحركة الصليبية ، اتحاد المؤرخين العرب ، ط. القاهرة ١٩٩٥م.

٤٤- عن قلعة دربساك أنظر:

أبو الفداء، المصدر السابق، ص٢٦٠-٢٦١ ، ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص١٩٧ ، حاشية (٥) ، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤ ص١٢٢ .

٤٥- عن قلعة حجر شغلن أنظر: ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية، تحقيق أولرخ هارمان ، ط. القاهرة ١٩٧١م، ص٣٦٩-٣٧٠ .

٤٦- عن قلعة القصير أنظر:

المقريزى ، المصدر السابق، جـ١ / ق٢ ، ص٦٥ ، حاشية (٣) .

٤٧- عن حصن الأكراد أنظر: أبو الفداء، المصدر السابق، ص٢٥٩، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، جـ٢ ، ص١١٥ .

مصطفى طلاس ومحمد وليد الجلاد، قلعة الحصن حصن الأكراد ، ط. دمشق ١٩٩٠م، مرفت محمد سالم، حصن الأكراد، ودوره فى الصراع الصليبى الإسلامى ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة الاسكندرية عام ١٩٩٢م.

٤٨- عن قلعة المرقب انظر:

ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور ، ص٨٥ ، أبو الفداء ، المصدر السابق، ص٢٥٥ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ٤ ، ص١٤٥-١٤٦ ، أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص٩٤ .

John Poloner , Description of The Holy Land , Trans. by Aubrey Stewart, vol , P.P.T.S., vol . VI , London 1898 , p. 34 .

آمال هاشم ، المرقب وقلعتها ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي في عصر الحروب الصليبية (١٩٠٥-١٢٩١م / ٤٨٧-٦٩٠هـ) رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب- جامعة الإسكندرية عام ١٩٨٧م.

٤٩- عن حصن مرقبة انظر: ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور، ص٨٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص٣١٥ ، سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ج٢، ص١٢٩٢ .

٥٠- صلاح عبد المنعم، قلاع مملكة بيت المقدس الصليبية في الفترة ١٠٩٩-١١٩٢م / ٤٩٢-٥٨٨هـ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية البنات - جامعة عين شمس عام ٢٠٠٠م، ص٨٠-٨١ .

٥١- Prawer, The Latin kingdom of Jerusalem European Colonialism in The Middle Ages, London 1972, p. 42 .

مولر ، القلاع أيام الحروب الصليبية ، ت. محمد وليد الجلاد ، ط. دمشق ١٩٨٤م، ص٥٢- ص٥٣ .

٥٢- Ibid, p. 43 .

وعن قلعة حابس جلدك انظر: سعد محمد المومني، القلاع الإسلامية في الأردن الفترة الأيوبية والمملوكية، ط. عمان ١٩٨٨م ، ص٣٣٩-٣٤١ . وأود الإشادة بهذه الدراسة الممتازة .

٥٣- ويقرر برنجل أن أغلب المدن كانت تعتمد على الصهاريج، والعيون على الرغم من أنه في حالة أنطاكية وقيسارية وبيت المقدس كانت ملحقة بقنوات قديمة، عن ذلك انظر:

Pringle , " Architecture of the latin East 1098-1271 ", in the Oxford illustrated History of the Crusades, Oxford 1995, p. 169 .

وعن استعمال الصهاريج انظر:

William of Tyre , vol . II, p. 219 .

بنيامين التطيلي ، المصدر السابق ، ص١٠٢ .

مهجه السيد عبد العال، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام من خلال كتب الرحالة والجغرافيين العرب والأجانب المعاصرين للحركة الصليبية (٤٨٧-٦٩٠هـ/ ١٠٩٥-١٢٩١م) رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة الإسكندرية عام ١٩٨٧م، ص٩١ .

٥٤- Benvenicti, The Grusaders in the Holy Land , Jerusalem 1976, p. 56 .

٥٥- Ibid, p. 56 .

٥٦- Ibid , p. 58 .

٥٧- سعيد عاشور ، مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك، ط. بيروت ب-ت ، ص٦٢ ، ياسين سويد، «صلاح الدين واستراتيجية التوحيد للتحرير»، شؤون عربية ، العدد (٨٣) ، سبتمبر ١٩٩٥م، ص١٣٢ .

وأود أن ألفت نظر القارئ إلى أن الأطماع الاستعمارية فى المياه العربية فى القرون الوسطى من خلال المشروع الصليبى امتدت إلى العصر الحديث، ولا أدل على ذلك من اتجاه إسرائيل -صنيعة الاستعمار الأوربى البريطانى والأمريكى بالتبعية التاريخية- التى قامت بعدوانها على الدول العربية المجاورة لها عام ١٩٦٧م واستولت على مرتفعات الجولان والضفة الغربية من خلال وفرة المياه فيهما، وفيما بعد اتجهت إلى التوسع فى جنوب لبنان من أجل إخضاع نهر الليطانى لسيطرتها .

ولانغفل هنا أن حرب المياه فى منطقة الشرق الأوسط بدأت من خلال العلاقات الإسرائيلية - التركية والسدود التى أقامتها تركيا على نهر الفرات خاصة سد أتاتورك؛ على نحو أثر على منسوب المياه فى سوريا والعراق. وتعتزم تركيا تشييد عشرين سداً على ذلك النهر.

عن الأطماع الإسرائيلية فى المياه العربية أنظر:

عبدالله الدروبى، «المياه فى الاستراتيجية الإسرائيلية وآليات ووسائل تحقيقها»، مجلة مستقبل العالم الإسلامى، مركز دراسات العالم الإسلامى فى مالطة، عدد (١٥) عام ١٩٩٥م، ص٤١- ص٤٣ .

غسان دمشقية ، أزمة المياه والصراع فى المنطقة العربية ، ط. دمشق ١٩٩٤، ص١٠٤- ص١١٧ .

أيضًا هذه الدراسة المهمة : جمعه رجب طنطيش، المياه فى فلسطين دراسة فى الجغرافيا الاقتصادية والسياسية ، ط. بنى غازى ١٩٨٩م، ص٧٩ - ص١١٧ .

طارق المجذوب ، «المياه العربية فى استراتيجية اسرائيل الشرق أوسطية » ، المجلة السابقة ، ص٨٣- ص١١٠ .

سمير صالحة، «مياه إسرائيل فى العلاقات المائية العربية- التركية» المجلة السابقة، ص١١١- ص١٤٦ .

وأوصى القارئ بهذا الكتاب : كامل زهيرى، النيل فى خطر ، ط. القاهرة ١٩٩٩م، ص٢٢- ص٢٢٦ .

الفصل الخامس
المسيحية والإسلام
بين الاعتناق والارتداد عصر الحروب الصليبية

يتناول هذا الفصل بالدراسة: المسيحية والإسلام بين الاعتناق، وكذلك الارتداد خلال عصر الحروب الصليبية على مدى القرنين الثانى عشر، والثالث عشر الميلاديين / السادس، والسابع الهجريين .

والجدير بالذكر: أن الباحث الذى يتصدى لهذا الموضوع يواجه بعض الصعوبات تتمثل فى قلة إن لم تكن ندرة الإشارات المصدرية سواءً لدى المصادر التاريخية الصليبية أو الإسلامية، ولذلك عليه تتبع الشذرات المتناثرة هنا، وهناك ثم يستلهم روح العصر من أجل محاولة تكوين تصور تاريخي لما حدث خلال تلك المرحلة المؤثرة ، والفعالة من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى القرون الوسطى.

ويلاحظ أن كلاً من المؤرخين الصليبيين والمسلمين: جعلوا جل اهتمامهم منصبًا على الجوانب السياسية، والحربية، ولم تحظ قضية الاعتناق والارتداد الدينى بالنسبة للمسيحية والإسلام بنفس الدرجة من العناية لديهم، ولذلك جاءت إشاراتهم فى هذا المجال قليلة بل، ونادرة ومتناثرة هنا، وهناك .

والجدير بالذكر : أن الحروب الصليبية التى قامت من الغرب الأوربى الكاثوليكى ضد المسلمين فى الشرق الأدنى فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى ؛ تعددت التعريفات بشأنها ، ومنها أنها مرحلة من مراحل العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، أو أنها قسم من المسألة الشرقية question d'Orient [1]، وكذلك هناك من اعتبرها السياسة الخارجية للبابوية The Foreign Policy of the Papacy، على اعتبار أن البابوية هى التى خططت للمشروع الصليبى، وتبنته منذ أن كان مجرد فكرة حتى صار واقعًا ملموسًا، ونظر إليها براور Prawer على أنها حركة الاستعمار الأوربى فى العصور الوسطى The Europeam Colonialism in the Middle Ages[2]، ووصفها رنسيمان Runciman بأنها آخر الغزوات المتبربرة The Last of the Barbarian Invasions [3].

ومن الممكن أن نجد تعريفًا آخر لتلك الحروب الشرسة على أنها تمثل وبحق محاولة للتنصير سعت إليها البابوية بكافة الصور والوسائل من أجل تحويل مسلمى الشرق الأدنى عن الإسلام وجعلهم يعتنقون المسيحية الكاثوليكية ، ويكونوا تابعين لكنيسة روما التى اعتبرت نفسها سيدة الكنائس ، ومتزعمة عالم المسيحية Christendom؛ خاصة أن البابوية تولى أمرها فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى عدد من كبار البابوات الذين تملكهم الطموح الواسع لتحقيق ذلك الهدف ، ومن أبرز بابوات تلك المرحلة نذكر البابا ليو التاسع Leo IX (١٠٤٨-١٠٥٤م / ٤٤١-٤٤٧هـ) ، وجريجورى السابع Gregory VII (١٠٧٣-١٠٨٥م / ٤٦٦-٤٧٨هـ)، وأوربان الثانى Urban II (١٠٨٨-١٠٩٩م/ ٤٨١-٤٩٣هـ) ومعنى هذا ؛ أن القيادة الدينية لأوربا حينذاك كانت فى مُرحلة من القوة بحيث مكنها ذلك من تبنى تلك المشاريع التوسعية سياسيًا وعقائديًا فى آن واحد.

وواقع الأمر ؛ أن الخطاب التاريخى المؤثر والفعال الذى ألقاه البابا أوربان الثانى فى مجمع كليرمونت Clermont جنوبى فرنسا فى ٢٧ نوفمبر عام ١٠٩٥م(٤)، لايحتوى على أدنى إشارة مباشرة إلى الاتجاه التنصيرى؛ إلا أننا ينبغى أن ندرك أن ذلك الهدف كان من الأهداف المستترة للبابوية، تمامًا مثلما كان هدفها الخاص بتوحيد الكنائس الشرقية لسيادة الكنيسة الأم فى روما، ولم تعلن عن ذلك الهدف بالطبع، وهذا يعكس لنا حقيقة محورية ، وهى أن المشروع الصليبى كان له هدف معلن تبريرى فى صورة استرداد الأماكن المقدسة المسيحية فى فلسطين، وكذلك حماية المسيحيين الشرقيين من الاضطهاد - المزعوم- من جانب السلاجقة، وأهداف حقيقية لها شأنها غير معلنة بنفس الدرجة فى صورة سلب، ونهب ثروات الشرق من خلال مشروع استعمارى - أى استخرابى- منظم ، وضرب المسلمين فى عقر دارهم ، بزرع كيان صليبى دخيل فى قلب بلادهم ، وكذلك محاولة اختراقهم عقائديًا من خلال مشروع تنصيرى يسير جنبًا إلى جنب مع الجانب الحربى، يواكبه فى كافة مراحله وخطواته، وهكذا سار المنصرون من وراء الفرسان من أجل تحقيق الأهداف الاستراتيجية العليا المتعددة للحركة الصليبية. وكل ذلك يثبت لنا ثراء تجربة الحروب الصليبية من خلال تعدد دوافعها وأهدافها.

والمنطق يدعو إلى تصور أن البابوية التى خططت ببراعة للمشروع الصليبى بإحكام من خلال الواقع السياسى للغرب الأوربى ، والإمبراطورية البيزنطية، والشرق الإسلامى، لم يكن ليغيب عنها استغلال الحروب الصليبية؛ من أجل تصدير المسيحية خارج القارة الأوربية، وضرب الإسلام فى عقر داره، وفى أحد مناطق وجوده المتأصل تاريخيًا.

ومن المهم ملاحظة : أن الغرب الأوربى وكذلك الشرق البيزنطى فيما قبل اندلاع آتون الصليبيات بعدة قرون كان قد اكتسب خبرة كبيرة فى مجال التنصير من خلال عمق التجربة التاريخية للمسيحية ذاتها كدين على مدى القرن الحادى عشر الميلادى/الخامس الهجرى التى عاشتها حتى ذلك الحين سواءً بالوسائل السلمية أو القسرية ، ومن النماذج التى نتخذها كأمثلة ، ما أقدم عليه الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٩- ٣٩٥م) عندما جعل المسيحية بمثابة الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية، وتم منع كافة الاتجاهات الدينية المعادية ، والتى نظر إليها على أنها مهرطقة ، وفيما بعد ؛ قام الإمبراطور شارلمان Carolus Magnus (٨٠٠-٨١٤م / ١٨٤-١٩٨هـ) بنشر المسيحية فى صفوف عناصر السكسون ، والآفار ، واتجه إلى سفك الدماء فى مناطق السكسون فى صورة مذبحة ڤردان Verdan الشهيرة عام ٧٨٢م / ١٦٦هـ، والتى ذبح فيها أربعة آلاف وخمسمائة منهم لإجبار ذويهم على اعتناق تلك الديانة [٥]، وإذا انتقلنا إلى الشرق صوب روسيا ؛ نجد أن الأمير الروسى فلاديمير Vladimir (٩٨٠-١٠١٥م/ ٣٧٠-٤٠٣هـ) ، اتجه إلى فرض المسيحية كديانة رسمية لبلاده بعد الاتفاق على ذلك مع الإمبراطور البيزنطى باسل الثانى Basil II (٩٧٦-١٠٢٥م / ٣٦٦-٤١٦هـ) الذى زوجه أخته فى مقابل ذلك[٦]، وقد حارب فلاديمير العناصر الوثنية التى لاذت بالفرار إلى مناطق الغابات ، وظلت تقاوم لسنوات عديدة، وفى حقيقة الأمر؛ أن مجهودات فلاديمير من أجل تنصير الروس كانت تهدف إلى أن يكونوا تابعين لكنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية لاكنيسة روما، ومع ذلك فإن الأمر برمته كان دعمًا لحصاد الخبرة الأوروبية فى مجال التنصير، وهو أمر كان له تأثيره الفعال على مستقبل مشروع التنصير .

ومعنى ذلك؛ أنه خلال المراحل التاريخية السابقة على اندلاع الحروب الصليبية ، وجدت عدة أمثلة لغرس المسيحية فى مناطق مختلفة فى غرب وشرق أوربا، ولاريب فى أن ذلك كله كان له أثره فى تصديرها خارج تلك القارة على جواد التوسع الأوربى شرقًا فى صورة المشروع الصليبى ، وهكذا ؛ فإن اكتمال تنصير أوربا نفسها جعل قيادتها الدينية فى صورة البابوية تفكر فى الخروج بالتنصير كمشروع دينى وسياسى خارج حدود القارة إلى آسيا.

ويضاف إلى عنصر الخبرة التنصيرية ؛ نلاحظ أن المسيحية وصلت فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى على أيدى أبنائها فى الغرب الأوربى - دون أن تكون مسئولة عن ذلك بالطبع- إلى طريق مسدود من التعصب الشديد، والعداء لكل ما هو غير مسيحى،

ورفض الحوار مع أصحاب الديانات الأخرى، وتصوير العالم على أنه المجال الحيوى العام لنشر تلك الديانة على حساب معتنقى الديانات الأخرى، ويلاحظ أن الحوليات الأوربية فى القرون الوسطى نظرت إليهم على أنهم كفار infidels يجب إدخالهم إلى معسكر المسيحية بأية صورة حتى بالوسائل القمعية والقسرية.

ومن الأمور ذات الدلالة؛ أن المؤرخ المجهول المعاصر للحملة الصليبية الأولى والمشارك فى أحداثها ، وصاحب الجستا Gesta ، أشار فى معرض حديثه عن السلاجقة إلى أنهم فرسان أشداء وتمنى أن يكونوا مسيحيين (٧) ، وأوضح فى هذا الشأن أنهم لو كانوا مسيحيين لأمكن توسيع عالم المسيحية إلى أبعد حد، ولأمكن للصليبيين السيادة على ذلك العالم، ويبدو أن مثل تلك الإشارة العرضية دلت على رغبة قوية فى توسيع عالم المسيحية من جانب أحد الفرسان الذين شاركوا فى أحداث التوسع الأوربى حينذاك؛ مما يعكس أن الرغبة فى توسيع نطاق مقتنعى تلك الديانة كان من الأهداف المبكرة للمشروع الصليبى ، وإذا كان هذا هو شأن أحد المحاربين فى تلك الحملة ، فإن ذلك الاتجاه بالضرورة كان أكثر وضوحًا لدى العناصر التى عملت فى السلك الكنسى ، وعلى رأسها البابا شخصيًا .

وتجدر الإشارة : إلى أن حركة التنصير التى واكبت المشروع الصليبى وجد فيها القائمون عليها فرصتهم الذهبية لإنعاشها فى بلاد الشام مع مقدم الصليبيين إليها؛ إذ أنه من قبل ؛ كان الغرب الأوربى يقدم إلى المنطقة فى صورة عناصر الحجاج، والرحالة، والتجار؛ من أجل زيارة الأماكن المسيحية المقدسة فى فلسطين، وكذلك المشاركة فى حركة التبادل التجارى بين الغرب والشرق، أما الآن؛ فقد تمكن الغرب الأوربى من زرع كيانه الدخيل على أرض المنطقة ، ومن ثم؛ وجد الاحتكاك المباشر بين أصحاب الديانتين المسيحية والإسلام. وكان المسلمون فى موقف المنهزم عسكريًا ، بينما الصليبيون فى موقف المنتصر على نحو أدى إلى إحباط نفسى عام لدى المسلمين لاينكر، وهو وضع لم يتوفر من قبل إلا من خلال المشروع الصليبى ذاته والنجاحات التى حققها الغزاه منتهزين فى ذلك الانقسام السياسى والمذهبى الذى كان عليه المسلمون حينذاك بالإضافة إلى استبسالهم فى تحقيق أهدافهم الاستعمارية على حساب أبناء المنطقة.

والجدير بالإشارة هنا : أن الاتجاه التنصيرى جاء من خلال أهداف مزدوجة حرص الصليبيون على تحقيقها، ورغبتهم الجامحة فى تغيير الهوية الدينية لأبناء المنطقة من المسلمين ، وهم

الغالبية ، وقد عمل الصليبيون على تغيير الواقع الديموغرافي ، وكذلك الطبوغرافي ثم العقائدي، ولانستطيع فهم توجههم نحو تحقيق الهدف الأخير دون تناول ما حققوه على المستويين الديموغرافي ، والطبوغرافي بشئ من الإيجاز .

فعلى المستوى الديوغرافي ؛ نجد أن الصليبيين حرصوا على إقامة المذابح الوحشية التي حلت بالمسلمين من أنطاكية إلى بيت المقدس ليس فقط من أجل إشباع الرغبة الجامحة لديهم للانتقام والسادية Sadism؛ بل إنهم أرادوا القضاء - قدر الإمكان- على البنية السكانية المسلمة؛ حتى يسهل انتزاع الأرض وإيقاف المقاومة التي من الممكن أن تحدث ضدهم من قبل أن تولد، ومن الملاحظ أن تلك المذابح تراوحت بين مذابح صغيرة، وأخرى كبيرة حسب اختلاف، وتباين الكثافة السكانية من مدينة إلى أخرى في بلاد الشام. وإن وصلت إلى ذروتها في صورة مذبحة بيت المقدس الذائعة الصيت ١٥ يوليو- ٢٥ يوليو ١٠٩٩م / ٤٩٢ هـ[٨]، وأقرت بها المصادر اللاتينية ذاتها . وعلى أثر تلك الوقائع الدموية والوحشية تدفق المهاجرون المسلمون من المناطق المنكوبة بالغزو الصليبي إلى المدن المسلمة التي ظلت بمنأى عن الخطر الداهم الوافد، مثل دمشق ، وحلب ، وحمص ، وحماه، والموصل ، والقاهرة . وغيرهم، ولامراء في أن الصليبيين حققوا جانبًا كبيراً من أهدافهم من خلال تلك السياسة الدموية، وانعكاسها الديوغرافي ، مع ملاحظة أن الأمر بمثل هذه الصورة لن يستمر في بلاد الشام بنفس الدرجة نظراً لرغبة الغزاة - فيما بعد لاسيما منذ العقد الثاني من تاريخ وجودهم في المنطقة - في الإفادة من الوجود السكاني المسلم في دوره الإنتاجي لاسيما على المستويين الزراعي، والحرفي.

أما على المستوى الطبوغرافي : فقد حاول الصليبيون تغيير هوية المنطقة بتغيير واقعها الجغرافي، من خلال زرع مستعمرات صليبية وطرد الفلاحين المسلمين الأصليين، كما حدث في مستعمرات البيرة [٩]، والقبيبة [١٠]، وكفر مالك [١١]، وغيرها ، كذلك إقامة عشرات القلاع، والحصون التي وزعت في مناطق استراتيجية لتمزيق المنطقة جغرافيًا ، وسياسيًا؛ لمنع اتصال أبناء المنطقة بعضهم البعض، وإعاقة الوحدة بينهم بكل الصور. وكذلك لتأمين وجودهم وسط محيط إسلامي يناصبهم العداء الشديد، وهكذا شيدت القلاع بطول المملكة وعرضها[١٢] ، وقد أدت تلك السياسة إلى تغيير معالم الأرض وإفقادها طبيعتها السابقة بالنسبة للسيادة السياسية الإسلامية، وأشعرت المسلمين بالاحتلال والمهانة وأن أرضهم- وهي

أثمن ما يملكون فى دنياهم- تفر منهم إلى أيدى الغزاه الخبراء فى أمور الاحتلال والاستيطان فى القرون الوسطى.

أما على المستوى العقائدى؛ فقد اتجه المشروع الصليبى إلى تغيير هوية أبناء المنطقة المنكوبة من خلال تنصيرهم وتحويلهم عن الإسلام وهو أخطر الأهداف على اعتبار أن ذلك مثل الهوية الدينية لسكان المنطقة، ولكن هل نجحت خطط الصليبيين فى تغيير هوية المنطقة على مستوى جغرافية الأديان التى تفوق الإسلام فيها بصورة وضاحة أم فشلوا ؟ ذلك ما ستتناوله الصفحات التالية.

من الأمور الملفتة للانتباه ؛ أن السياسة التنصيرية للصليبيين، سعت إلى معرفة عقائد المسلمين، حتى يمكن مواجهتهم بالمخططات التى قدموا إلى المنطقة من أجل تنفيذها ، وفى هذا المجال؛ لم يكن من قبيل المصادفة أن تتم ترجمة القرآن الكريم لأول مرة إلى اللغة اللاتينية Lingua latina خلال القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى فى ذروة الصراع الإسلامى- الصليبى، وبعد مرور خمسة قرون كاملة على ظهور الإسلام.

والواقع أن تلك الترجمة حدثت عام ١١٤٣م / ٥٣٨هـ بناء على تكليف من جانب بطرس الموقر Peter the Venerable ؛ رئيس دير كلونى Cluny[١٣] بفرنسا الذى توفى عام ١١٥٧م / ٥٥٢هـ، وقام ذلك الرجل برحلة إلى أسبانيا فيما بين عامى ١١٤١-١١٤٣م / ٥٣٦-٥٣٨هـ، وشكل لجنة بمساعدة رجل يدعى ريموند التطيلى Raymond of Tudela ، وقد أنجز تلك الترجمة العالم الإنجليزى روبرت الراتينى Robertus Retenensis ؛ وكان يشغل منصب رئيس الشمامسة بمدينة بمبلونا بمساعدة راهب ألمانى يدعى هرمان Herman ، وكذلك رجل يدعى بطرس التطيلى Peter of Tudela، وهناك من يرجح أن الأخير قام بدور بارز فى مجال ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية عام ١١٤٣م / ٥٣٨هـ، وبعد اكتمالها تم إرسالها إلى رئيس دير كلونى العام الذى وضعها تحت تصرف كل من يريدها من القائمين على أعمال التنصير[١٤] خاصة من كبار رجال الكنيسة .

ومما يجدر ذكره؛ أن تلك الترجمة اللاتينية الأولى للقرآن الكريم؛ تعد أقرب إلى التلخيص الموسع منها إلى الترجمة، وهى لاتلتزم بالنص من ناحية الدقة والحرفية، كما أنها لاتلتزم بترتيب الجملة فى الأصل القرآنى، وإنما تقوم باستخلاص المعنى العام فى أجزاء السورة الواحدة، ثم تقوم بالتعبير عن هذا بترتيب خاص من أفكار المترجم[١٥] ، ويضاف إلى ذلك ؛ وجود أخطار جزئية فى فهم بعض الآيات القرآنية فى تلك الترجمة.

ومن المهم ملاحظة، خطورة الترجمة اللاتينية الأولى للقرآن الكريم : إذ على أساسها قامت الترجمات الأخرى إلى اللغات الأوربية الحديثة، من ذلك الترجمة الإيطالية التى قام بها أريفابينى Arrivabene عام ١٥٤٧م/ ٩٦٩هـ، والتى على أساسها قامت الترجمة الألمانية التى قام بها سالمون شفايجر Salmon Schweigger عام ١٦١٦م / ١٠٣٨هـ واعتماداً على الترجمة الألمانية قامت الترجمة الهولندية عام ١٦٤١م / ١٠٦٣هـ(١٦) ، وهى بالتالى أساس عدد من الترجمات الأوربية الحديثة للقرآن الكريم.

على أية حال : نلاحظ أن تلك الترجمة التى ظهرت إلى الوجود عام ١١٤٣م / ٥٣٨هـ: لاتخلو من دلالات مهمة فقد جاءت فى وقت احتدم فيه الصراع الإسلامى- الصليبى فى بلاد الشام، وينبغى ألانفصل بين ما يحدث فى شرق البحر المتوسط وغربه، فلاانفصال فى الواقع التاريخى خلال تلك المرحلة بين ما يحدث فى أسبانيا، وفرنسا ، وبلاد الشام، على اعتبار أن الحروب الصليبية ذاتها ظاهرة تاريخية بحر متوسطية ، وقد كان من شأن تلك الترجمة جعل القوى الصليبية أكثر اقترابًا من معرفة عقائد المسلمين من خلال قرآنهم الذى شكل على مدى عصورهم أساس مقاومتهم لكافة الاتجاهات العدوانية ضدهم، ويكشف لنا ذلك عن أن البعد التنصيرى حينذاك لم يكن عشوائيًا بل من خلال «أساس علمى» على الرغم من الأخطاء الواردة فى الترجمة المذكورة ، كذلك لانغفل أهمية أن يكون دير كلونى هو المشرف عليها ، وقد قام ذلك الدير على نحو خاص بدور بارز فى حركة الإحياء الدينى فى الغرب الأوربى منذ تأسيسه عام ٩١٩م / ٣٠٩هـ ، ولانغفل أن من المؤرخين الأوربيين من نظر للحروب الصليبية على أنها إفراز طبيعى لدور ذلك الدير على نحو خاص .

من ناحية أخرى؛ نجد أن الصليبيين فى بلاد الشام عملوا على تغيير دور العبادة الإسلامية، فعملوا على تحويل المساجد إلى كنائس ، أو الإفادة من بعض المساجد فى أغراض أخرى، من ذلك أنهم أطلقوا على المسجد الأقصى معبد سليمان Templum Solomonis وقسموه إلى ثلاثة أقسام، الأول كنيسة ، والثانى مسكن لهيئة الداوية Templars ، والثالث مستودع لذخائرهم، كذلك جعلوا من السراديب التى أسفل المسجد اصطبلاً لخيولهم ولجمالهم(١٧)، ومن الممكن القول، أن ما اتبع حيال المسجد الأقصى يُعد مثالاً لما حل بالعديد من دور العبادة الإسلامية فى بلاد الشام، فى المناطق التى أخضعها الصليبيون وعبر ذلك عن طابع العداء تجاهها مع ملاحظة أن ذلك المسلك لاينفصل عن السياسة التنصيرية التى رأت فى

المساجد عدواً عليها هدمه نظراً لكون المسجد رمز الإسلام، ولأهمية، وحيوية دوره فى حياة الجماعة المسلمة ذاتها.

ومن الممكن أن يثار هنا تساؤل مهم حول جدوى الجهود التى بذلها الصليبيون من أجل نشر المسيحية فى صفوف المسلمين فى بلاد الشام، وفى تقديرى أن المصادر العربية تحتل مكانة بارزة فى هذا الشأن نظراً لأنها مصادر أصلاً معادية للصليبيين، ولذلك فإن إيرادها لأية نماذج للتنصير؛ تعد ذات شأن خاص لعدم الاشتباه فى وجود طابع ما للمبالغة فى رواياتها ؛ مع عدم إغفال الإفادة بطبيعة الحال من المصادر التاريخية التى ألفها مؤرخون صليبيون حتى تكتمل لدينا صورة الأمر على نحو وضّاح.

وواقع الأمر؛ أننا نجد ذكراً لحادثتين منفردتين للتنصير؛ وردتا لدى كل من الفارس والأديب أسامة بن منقذ الشيزرى (ت ٥٨٤هـ / ١١٨٥م) ، ثم الرحالة الأندلسى ابن جبير (ت حوالى ٦١٦هـ/ ١٢٢٠م) وأوضحا نماذج لأمر التنصير فى نطاق المسلمين فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية خاصة خلال القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى، ، ومن الممكن الإفادة من إشاراتهما للاقتراب من حقيقة الاتجاه التنصيرى حينذاك على المستوى الفردى؛ وهو أمر له حيويته فى فهم التنصير على المستوى الجماعى.

وفيما يتعلق برواية أسامة بن منقذ - وهو الخبير بشئون الصليبيين- نجد أنه ذكر أمر شاب مسيحى، اعتنق الإسلام، وحسن إسلامه - ظاهريًا- فى صورة الصلاة ، والصوم[١٨] ، وتم تزويجه بإمرأة مسلمة صالحة، ورزق منها بابنين بلغا من العمر قرابة ست سنوات [١٩] ، ومن بعد ذلك؛ اتجه ذلك الشاب مع ابنيه إلى أفاميه الخاضعة لسيادة الصليبيين ، وأعلن ارتداده عن الإسلام، وعودته مرة أخرى إلى المسيحية[٢٠]، وشمل ذلك الارتداد بالطبع طفليه الصغيرين المغلوبين على أمرهما بحكم سيطرة والدهما .

أما رواية الرحالة الأندلسى ابن جبير ؛ فنجد أنه أشار إلى رجل مغربى صحبه فى الطريق من دمشق إلى عكا، وكانت الأخيرة خاضعة للسيادة الصليبية ، وحدد موطنه بأنه من بونه ؛ وهى من أعمال بجايه [٢١] ، وتم أسره من جانب الصليبيين حتى تم افتداؤه، وبلغ عكا ضمن إحدى القوافل التجارية، وهناك أعلن ارتداده عن الإسلام وتحوله إلى المسيحية[٢٢]، ويبدو أن من العوامل التى ساعدت على ذلك التحول العقائدى، سنوات الأسر بالإضافة إلى أنه كما قرر ابن جبير «صحب النصارى، وتخلق بكثير من أخلاقهم»[٢٣] بالإضافة إلى ضعف الإيمان فى نفسه.

وقيمة الروايتين السابقتين ، أنهما من عصر شغل فيه المؤرخون المعاصرون بتسجيل المعارك الحربية ، والصراعات السياسية عن ذكر مثل تلك الأحداث ، ومع ذلك؛ هناك ملاحظتان مهمتان ينبغى أن نلاحظهما من خلال رواية ابن جبير السابقة:

أولاً : إن تلك الحادثة ذات طابع فردى صرف ، وخلت رحلة ذلك الرحالة من أدنى إشارة أخرى للتنصير سواء الفردى أو الجماعى على نحو يوضح أنها كانت أشبه شئ بالحادثة الاستثنائية المنفردة التى لم يورد صاحبها تكراراً لها ، وفى حالة حدوث حالات جماعية فى هذا الصدد لما أعرض رحالتنا عن الإشارة إليها من خلال إدراكه لخطر ذلك على الإسلام على ما عرف عن ابن جبير من عاطفة دينية قوية .

ثانيًا : من الضرورة بمكان ملاحظة أن الحادثة السابقة ليست استثناءً عدديًا فقط، بل إنها أيضًا تمثل استثناءً تاريخيًا بالنسبة لدور المغاربة فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية؛ إذ قدمت أعداد كبيرة منهم إلى هناك كنوع من الاستجابة الشعبية الإسلامية للتحدى الصليبى على الرغم من بعد المسافة بين بلادهم وبلاد الشام، ويلاحظ أنهم أبلوا بلاءً حسنًا فى جهاد الصليبيين ، واشتركوا فى العديد من المعارك الحربية ؛ على نحو عكس أن قضية الجهاد حينذاك لم تكن قضية مشرقية فحسب ، بل ومغربية أيضًا ، وهكذا؛ نجد تلك الحادثة الاستثنائية لاتدعونا إلى التشكك فى دور المغاربة الجهادى الذى أقرت به رحلة ابن جبير نفسه[٢٤].

ومن الجلى البين : أن الفارق الأساسى بين روايتى أسامة بن منقذ ، وابن جبير؛ أن الرجل المغربى كان مسلمًا وارتد إلى النصرانية، أما الشاب الذى لجأ إلى الصليبيين فى أفاميه ، فكان مسيحيًا ثم تحول إلى الإسلام ثم ارتد عنه إلى المسيحية، ويلاحظ أن أسامة بن منقذ أورد تلك الحادثة بصورة منفردة، ولم يورد فى كتابه إشارة أخرى لحادثة مشابهة للتنصير سواء الفردى أو الجماعى، مما يعكس- على الأرجح- قلة إن لم يكن ندرة تلك الحالات ، مع عدم إغفال أن ارتداد الرجل المغربى أدى- بالضرورة- إلى ارتداد ابنيه؛ وهو أمر يعكس الفارق فى ارتداد الأعزب عن الأب صاحب الأسرة.

من زاوية أخرى؛ أفادت نصوص المصادر العربية المعاصرة السالفة الذكر فى إيجاد تصور عام عن وسائل الصليبيين للتنصير، وقد يكون من رسائلهم فى ذلك الإفادة من وجود الأسرى المسلمين لعدة أعوام فى صفوفهم لمحاولة تغيير أفكارهم ، ومعتقداتهم الدينية، كما حدث

بالنسبة لذلك للمرتد المغربى، ومن المحتمل وجود مغريات مادية قدمت للبعض منهم. وهو أمر متوقع بحكم طبيعة الموقف ذاته .

ويضاف إلى ذلك ؛ هناك ما ورد لدى أحد المؤرخين المسلمين بشأن ارتداد كبير قضاة سروج - الواقعة إلى الجنوب الغربى من الرها- وذلك خلال حكم الأمير الصليبى بلدوين دى بورج Baldwin de Bourg (١١٠٠-١١١٨م / ٤٩٤-٥١٢هـ). وفى وقت متزامن مع حكم أتابك الموصل جاولى سقاوة ١١٠٦-١١٠٨م / ٥٠٠-٥٠٢هـ ، ويلاحظ أن ذلك المرتد ؛ تردد أنه هاجم الإسلام بعبارات شنيعة[٢٥] على نحو أثار حفيظة المسلمين عليه فى داخل مناطق الصليبيين التابعة لإمارة الرها Edessa الصليبية، وقد اتجه جاولى سقاوة إلى مخاطبة بلدوين دى بورج فى شأنه- خاصة مع وجود صلات قوية بين الطرفين- ولذلك وجدنا الأمير الصليبى يسعى إلى التخلص من كبير قضاة سروج المذكور حفظًا للأمن داخل توابع إمارته، وكذلك من أجل إرضاء أتابكية الموصل التى سعت إلى ذلك.

وفى حقيقة الأمر؛ يعد إدراكنا لتلك الحادثة محدوداً على اعتبار ندرة ما وصل إلينا من إشارات مصدرية بشأنها ، ولذلك من العسير تناول دوافعها، وتطوراتها، مع ملاحظة أن الملفت للانتباه فيها الوضعية الدينية البارزة لذلك المرتد، وهو أمر لم يتوافر للحادثتين السابقتين ، مع ملاحظة أن هناك فارقًا آخر بين حادثة كبير قضاة سروج ، والمثالين السابقين فى صورة رد فعل الصليبيين ، فعلى الرغم من أنهم احتضنوا النموذجين المغربيين ؛ إلا أنهم فى الحالة الأخيرة فتكوا بصاحبها لدواعى أمنية وسياسية على الأرجح- كما أسلفت- وفى تقديرى أن الوضعية الدينية الخاصة لكبير القضاة المشار إليه هى التى حتمت ذلك الموقف الصليبى الرسمى المعادى له، وفى حالة كونه بدون ذلك المنصب لما تم التعامل الصليبى معه بتلك الصورة، وهكذا ينبغى أن نضع فى اعتبارنا دومًا وضعية المرتد ومكانته .

وإلى جانب تلك الحوادث الفردية للارتداد عن الإسلام ؛ هناك حادثة مهمة لانغفل فى صورة ارتداد جماعى واعتناق للمسيحية وذلك فى شمال الشام وبالتحديد فى بزاغة فى شمال شرق حلب، حيث حدثت حملة صليبية بيزنطية هناك عام ١١٣٨م / ٥٣٢هـ بقيادة الإمبراطور البيزنطى حنا كومنين (١١١٨-١١٤٣م / ٥١٢-٥٣٧هـ) ، وقد تمت مهاجمة حصن بزاغة ، وفى أعقاب الحصار الذى فرض عليه؛ استسلم المسلمون بعد وقوعهم فى قبضة أعدائهم ، غير أنهم نكثوا بعودهم ، وغدروا بهم، وفى تلك الأحداث تنصر قاضى بزاغة ، وما يقدر بأربعمائة من المسلمين، ويقرر البعض أن مثل ذلك الاعتناق كان من قبيل التقية [٢٦]: والتى تعنى أن يبطن المرء عقيدته ويظهر عكسها، وهى التى يجيزها الإسلام وقت الخطر المحدق بأهله.

ومن المتصور أن تلك الحادثة تعد أكبر عملية ارتداد عن الإسلام ، واعتناق المسيحية، ولانغفل في هذا المقام الارتباطات القسرية التي لازمتها ، الأمر الذي يعكس لنا أن الصليبيين عجزوا- خلال ذلك العصر - عن طرح المسيحية طرحًا جماعيًا دون وسائل قمعية أو قسرية : يعكس إخفاقهم في هذا الشأن .

ويبدو أن اتجاه الصليبيين إلي التنصير ؛ تغير حسب تغير ظروف الصراع الإسلامي - الصليبي، وقد رأى الصليبيون الاتجاه إلي نشر المسيحية في صفوف الأطفال ، وهم كائنات صغيرة قابلة للتشكيل العقائدي ومقاومتها ضعيفة بطبيعة الحال ، ونجد ذلك بجلاء من خلال امتداد المشروع الصليبي إلي البعد الأفريقي، وتوسع الصليبيين في مصر خلال الصليبية الخامسة التي قادها الملك الصليبي حنا دي برين ، وخلال أحداثها؛ تم تحويل نحو ٤٠٠طفل مسلم مصري إلي المسيحية (٢٧) ، وتعميدهم ، وكشف ذلك بجلاء عن البعد التنصيري حينذاك، بعد امتداد ذلك المشروع إلي مصر، وأن الهدف المذكور كان واحداً سواءً بالنسبة للوجود الصليبي في بلاد الشام أو في أرض الكنانة ، وهكذا أبت الحركة الصليبية إلا أن تغزو قلوب الأطفال الأبرياء وتجعلهم جزءًا من آتونها الذي شمل بالتالي الرجال والنساء، والأطفال. ويكشف لنا ذلك أن المنصرين اتجهوا إلي مخاطبة كافة الأعمار لدعم الهدف التنصيري الذي تحرقوا شوقًا إلي تحقيقه بأية صورة .

على أية حال ؛ من المهم ملاحظة أنه خلال القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري ، حدث تطور له تأثيره على المجال التنصيري ؛ إذ ظهرت في أوربا أربع جماعات رهبانية في صورة جماعة الفرنسيسكان وكانوا يدعون في انجلترا باسم الإخوان الرماديين ؛ دلالة على لون أقبيتهم التي يرتدونها ، وسموا في فرنسا بالإخوان الفقراء، أما في ألمانيا فعرفوا بالإخوان الحفاة، وقد أسسها القديس فرنسيس الأسيزي Francis of Assisi ، وهناك جماعة الدومنيكان أو الإخوان المبشرين ، وقد سموا في انجلترا باسم الإخوان السود إشارة إلي لون ملابسهم التي ارتدوها ، ويلاحظ أن مؤسس الجماعة هو القديس دومنيك القشتالي St. Dominic of Castile، ولانغفل أيضًا جماعة الرهبان الكرمليين أو جماعة مريم العذراء ، وهي التي انتسبت إلي جبل الكرمل بفلسطين وعرفوا بالإخوان البيض حيث ارتدوا ملابس بيضاء اللون، أما الجماعة الرابعة؛ فهي جماعة الإخوان الأوغسطينيين الذين انتسبوا للقديس أوغسطين (٢٨).

وبصفة عامة؛ ساهم رهبان تلك الجماعات فى العمل التنصيرى خاصة الفرنسيسكان، والدومنيكان على نحو سيكون له أثره على مستقبل نشر المسيحية فى منطقة الشرق الأدنى فى ذلك العصر.

ويلاحظ أن الصليبيين اتجهوا إلى تنصير القيادات الإسلامية على اعتبار أن ذلك سييسر لهم تنصير القطاعات الشعبية بعد أن تمكنوا من قلوب الحكام ، ولدينا من ذلك العصر محاولتان الأولى فى صورة محاولة تنصير السلطان الكامل الأيوبى (٦١٥-٦٣٥هـ/ ١٢١٨-١٢٣٨م) خلال أحداث الحملة الصليبية الخامسة، حيث قدم إليه القديس فرنسيس الأسيزى ، ودعاه إلى اعتناق المسيحية[٢٩]، غير أن ذلك السلطان الأيوبى اعتذر عن قبولها، وعامل ذلك القديس معاملة حسنة، ومن المتصور أن هذه هى المرة الأولى التى تعرض فيها المسيحية على أحد سلاطين الدولة الأيوبية غير أنها باءت بالفشل المبين، ومن المتصور أن الكامل الأيوبى كانت لديه خبرة بأساليب المنصرين فى ذلك العصر، ومما يدعم ذلك التصور : أن ذلك السلطان كان يسمح بعقد مناظرات دينية فى مقارنة الأديان بين فقهاء مسلمين، ورجال دين مسيحيين، حيث نعرف على سبيل المثال حدوث مجلس مناظرة بين البطريرك كيرلس بن لقلق ، وبولس البوشى مع عدد من الفقهاء المسلمين[٣٠].

أما المثال الثانى : فيتمثل فى صورة الحملة الصليبية التى قادها الملك الفرنسى لويس التاسع Loius IX (١٢٢٦-١٢٧٠م / ٦٢٢-٦٦٦هـ) على تونس، وذلك خلال حكم المستنصر الحفصى (٦٤٧-٦٧٥هـ / ١٢٤٩-١٢٧٧م) ، وقد هدفت الحملة - بالإضافة إلى جانب مطامعها الاقتصادية والسياسية- إلى محاولة تنصيره[٣١] ، مستغلة فى ذلك معاملته الطيبة للتجار المسيحيين ، الذين كانت تربطهم علاقات تجارية مع السلطنة الحفصية ، بيد أن هدف الحملة باء بالإخفاق ؛ إذ قاد المستنصر الحفصى التونسيين لمقاومة الغزاة ؛ بالتالى فشلت المحاولة الثانية لتحول قائد من قيادات المسلمين نحو المسيحية، وجاء موقف المستنصر الحفصى مدعمًا لموقف الكامل الأيوبى من قبل .

على أية حال ؛ من المؤكد أن ذلك الجهد التنصيرى للصليبيين، سواءً فى المشرق أو المغرب الإسلاميين، ترك آثاره على المسلمين؛ إذ أنهم شعروا بوحدة حقيقية بينهم تجاوزت الحدود الإقليمية حيث أدركوا أن المشروع الصليبى استهدف عقيدتهم الدينية ذاتها؛ مع عدم اغفال كافة الدوافع الأخرى، وهنا يبرز دور بالغ الأهمية لعناصر من العلماء ، والفقهاء ؛ من أجل

الرد على النصارى كجزء مما يعرف بمقارنة الأديان ، ومن الملاحظ فى هذا الصدد أن هناك ثلاث مناطق ازدهرت كمراكز للتأليف فى المجال المذكور ، فى صورة بلاد الشام، ومصر والأندلس، وذلك نظراً لوقوعها فى مناطق التخوم العقائدية والثقافية فى عصر شهد أصلاً المواجهة بين أبناء الديانتين السماويتين المسيحية والإسلام.

ويلاحظ فى هذا الشأن ، أننا نجد التأليف فى الرد على النصارى من قبل مقدم الصليبيين إلى المنطقة، على نحو مثل رصيداً تاريخيًا أفاد بخبرته من اتجه إلى التأليف فى هذا الصدد ، سواءً فى المشرق أو المغرب الإسلاميين ومن أمثلة ذلك؛ ما ألفه الجاحظ[٣٢] (ت ق ٣هـ / ٩م) ، والجوينى[٣٣] (ت ق ٥هـ / ١١م) ، وابن حزم[٣٤] (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م) ، والوليد الباجى[٣٥] (ت ٤٧٤هـ / ١٠٨١م) ، وغيرهم .

والجدير بالذكر ؛ أن مؤلفات الرد على النصارى خلال مرحلة الحروب الصليبية اتسمت - بصفة عامة- فى هذا المجال بملامح رئيسية ، وهى كالآتى :

أولاً : أنها جاءت كرد فعل إسلامى لمحاولة التنصير التى قادتها البابوية من خلال مشروعها الحربى فى صورة تلك الحروب ، حيث أدرك الفقهاء المسلمون ضرورة الدفاع عن الإسلام فى مواجهة العدوان الذى يتعرض إليه فى عقر داره ، ولاريب فى أن ذلك الاتجاه منهم يعكس إدراكهم لخطورة المرحلة ، وأهمية المواجهة العقائدية بين أبناء الإسلام وأبناء المسيحية الذين تعصبوا لها ، وهى منهم بريئة .

ثانيًا : غزارة الإنتاج التأليفى فى الرد على النصارى بصورة تكاد تكون غير مسبوقة على الأرجح فى صورة مؤلفات نثرية أو منظومات شعرية ، ومن أمثلة ذلك ما ألفه الغزالى[٣٦] (ت ٥٠٥هـ / ١١١١م) ، وأبو عبيده الخزرجى[٣٧] (ت ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م) ، ونصر بن يحيى المهندى[٣٨] (ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) وأبو البقاء الجعفرى[٣٩] (ت ق٧هـ/ ١٣م) والقرطبى[٤٠] (ت ٦٧١هـ / ١٢٧٣م) ، والقرافى[٤١] (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٦م) ، وابن تيمية[٤٢] (ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٩م) ، ابن القيم[٤٣] (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٢م) ومن أمثلة المنظومات الشعرية ، منظومة البوصيرى[٤٤] - المادح الأشهر للنبى صلى الله عليه وسلم(ت حوالى ٦٩٦هـ / ١٢٩٦-١٢٩٧م) الشعرية ؛ مما يعكس أن الأدب العربى حينذاك ساهم نثراً وشعراً فى المواجهة العقائدية مع الصليبيين، ولاريب فى أن التأليف فى ذلك المجال مثل موجة من موجات التأليف الأخرى التى شهدها عصر الحروب الصليبية لدى المسلمين مثل التأليف فى مجال الجهاد ، وكذلك فضائل المدن الشامية مثل بيت المقدس، ودمشق، وغيرهما.

ثالثًا : ساعدت الخبرة الطويلة التى توافرت للمسلمين فى المرحلة السابقة على مقدم الصليبيين للمنطقة ، وكذلك من خلال المناظرات مع رجال الدين المسيحى وجهد من تحول من الأخيرين إلى الإسلام- ساعدت على تدعيم ذلك الاتجاه نحو الرد على النصارى فى عصر الصليبيات؛ على نحو سيكون له أثره الفعال فى دعم القاعدة العقائدية ودافعية المسلمين لمواجهة أعدائهم على أرض بلاد الشام ومصر وغيرها من المناطق التى تعرضت لغزوهم.

وفى تصورى؛ أن العقبة القوية التى واجهت مخططات الصليبيين التنصيرية كانت من خلال الإسلام نفسه كدين سماوى امتلك مقومات خاصة واكبت العقل الإنسانى ، فلاعجب - والأمر كذلك- أن وجدنا الصليبيين أنفسهم يقبلون على اعتناقه ، على نحو يكشف لنا عن أن ذلك الدين غير توجهات الصليبيين فى المجال المذكور رأسًا على عقب .

وهناك حقيقة محورية ؛ وهى أن المصادر التاريخية الصليبية ذاتها اعترفت بحوادث اعتناق الصليبيين الإسلام سواءً على المستوى الفردى أو الجماعى؛ مما أعطى لإشاراتها أهمية خاصة، ومن الجلى البين أنها اضطرت إلى ذكر ذلك كواقع تاريخى، ومن المتصور احتمال وجود حالات أخرى لم تصل إلى مسامع المؤرخين فلم يوردوا عنها ذكراً . لأن نفوسهم عافت ذكر مثل تلك الأخبار التى لاتتفق مع عقيدتهم.

فعلى المستوى الفردى ؛ نجد أن رايموند الثالث صاحب طرابلس Raymond III of Tripolis (١١٥٢-١١٨٧م / ٥٤٧-٥٨٣هـ) الذى وقع فى الأسر. تهذبت أخلاقه لدى المسلمين من خلال تعامله معهم ، وأقبل على تعلم لغة الضاد ، ودرس حياة المسلمين، ووصل به الأمر إلى الدرجة التى يقال معها أنه اتفق مع السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى على أن يرغب الصليبيين فى إمارة طرابلس على اعتناق الإسلام ، بيد أن وفاته أوقفت مثل ذلك الاتفاق وتنفيذه كما يقرر البعض[٤٥].

ومن زاوية أخرى ؛ قام أحد الفرسان الإنجليز الذين انتسبوا إلى هيئة الداوية Templars وعرف باسم روبرت اوف سانت اليانوس Robert of St. Elianus فى عام ١١٨٥م / ٥٨١هـ بالارتداد عن المسيحية، وأقبل على اعتناق الإسلام [٤٦]، وقيمة تلك الإشارة تتمثل فى أنه انتمى لواحدة من أكثر الهيئات الدينية الحربية الصليبية تعصبًا ضد الإسلام وأهله .

أما حالات الاعتناق الجماعى للإسلام؛ فنجد عدة أمثلة دالة عليها خلال ذلك العصر، وإن اختلفت أعداد المعتنقين من حالة إلى أخرى .

ويقدم لنا أحد المؤرخين الصليبيين فى صورة أودو الدولى Odo of Deull - الذى عاصر الملك الفرنسى لويس السابع Louis VII (١١٣٧-١١٨٠م / ٥٣٢-٥٧٥هـ) وحملته على بلاد الشام يقدم إشارات لها شأنها فى هذا الصدد ؛ إذ يقرر أنه خلال أحداث ما يعرف بالصليبية الثانية ، كانت هناك جموع من الصليبيين متقدمة فى آسيا الصغرى Asia Minor صوب بيت المقدس عبر ممرات فريجيا Phrygia وذلك عام ١١٤٨م / ٥٤٣هـ، ووصلت عناصرهم إلى مدينة أطاليا Atalia الساحلية الواقعة إلى جنوب شرق آسيا الصغرى على ساحل البحر المتوسط جنوب غربى قونية ، وقد سبب لهم البيزنطيون- وفق ما تورده الرواية التاريخية الصليبية- متاعب جمة، ونهبوا أموالهم، بينما لاقوا معاملة طيبة من جانب أعدائهم المسلمين الذين قدموا أصلاً من أجل محاربتهم، وكان لذلك الموقف أثره الكبير فى إقبال نحو ثلاثة آلاف منهم نحو اعتناق الإسلام جماعيًا (٤٧)، ويلاحظ أن ذلك حدث بمحض إرادتهم دونما أية ضغوط قسرية مما أعطى للحادثة المذكورة قيمة خاصة ، وعلى نحو يفند تمامًا فرية انتشار الإسلام بحد السيف فى القرون الوسطى التى راجت لدى قطاع من الباحثين الغربيين المحدثين.

والجدير بالذكر: أن تلك الرواية التاريخية ذات دلالات مهمة، فقد جاءت من جانب الصليبيين أنفسهم ، ونجد أن ذلك المؤرخ الفرنسى يصب اللعنات على أولئك الذين ارتدوا عن المسيحية ، وهو أسلوب متوقع فى مثل تلك الحالات ، وهكذا: يجنب ورودها فى كتابات أحد المؤرخين الصليبيين المعاصرين يجنب أمر التشكك فيها، وهى تكشف لنا بجلاء أن الإسلام كدين سماوى ، امتلك جاذبية خاصة حتى بالنسبة لأعدائه الذين قدموا كغزاة لدياره ، وحتى بالنسبة لأولئك الذين لم يقيموا مدة طويلة بجوار المسلمين ولم يتعاملوا معهم بصورة مستمرة، ويلاحظ أنه على مدى عصر الحروب الصليبية لم يحدث أن ارتد مسلمون نحو المسيحية يمثل ذلك العدد الضخم السالف الذكر، إذ فى حالة حدوث ذلك لم يكن المؤرخون الصليبيون ليحجموا عن ذكره فى حولياتهم ، والإفادة من ذلك الأمر فى حالة حدوثه- للدعاية الدينية والسياسية لكيانهم فى المنطقة .

أضف إلى ذلك: كان لشخصية السلطان صلاح الدين الأيوبى خلال ذلك العصر دورها وأثرها الفعال فى إعجاب المعاصرين بها حتى فى أوساط الصليبيين أنفسهم ، ولذلك نسجت حوله أسطورة من جانب المعاصرين واللاحقين من المسيحيين الأوربيين(٤٨) - كما أوضحت من

قبل- سواءً فى عصر الصليبيات أو من بعده، ومن المتصور أن الفروسية الإسلامية التى مثلها ذلك السلطان المتحضر ساهمت بصورة أو بأخرى فى تقريب الإسلام ، وأخلاقياته للصليبيين، فلاعجب إذا أدركنا أنه فى أعقاب معركة حطين الحاسمة عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ والتى انتصر فيها المسلمون تحت قيادته اتجه ستة من الفرسان الصليبيين نحو اعتناق الإسلام، وهكذا ؛ نجد اعتناقًا جماعيًا للإسلام حينذاك من خلال تلك المجموعة الصليبية الصغيرة [٤٩].

ولانغفل ؛ أنه خلال أحداث الصليبية الثالثة، خاصة أثناء حصار عكا من جانب القوات الصليبية، اتجه عدد من الصليبيين إلى الارتداد عن المسيحية واعتناق الإسلام ، وأشار مصدر من المصادر التاريخية الصليبية إلى عددهم على أساس أن كثيرين من الصليبيين فعلوا ذلك، دون تحديد رقم محدد ، وإن تم تصوير الواقعة على أساس أن المجاعة التى أصابت جموع الصليبيين أدت إلى إقدامهم على ترك ديانتهم والاتجاه صوب المسلمين ، وكما هو متوقع تم إمطارهم باللعنات من جانب كاتب ذلك المصدر [٥٠].

وهكذا؛ يمكن القول أن المواجهة بين المسيحية والإسلام خلال عصر الحروب الصليبية أثبتت حقيقة لا لبس فيها، وهى: أن الصليبيين عجزوا عن «تصدير» ديانتهم إلى المنطقة على نطاق كبير، وحافظت المنطقة على هويتها الدينية من خلال الإسلام ؛ إذ أن تلك الهوية لم تتكون خلال مدة زمنية قصيرة، بل إنها نشأت وترسخت على مدى خمسة قرون كاملة، هى عمر الإسلام كدين سماوى عند ذلك العصر الذى شهد المواجهة بين الشرق والغرب فى القرون الوسطى، ومن المتصور أن التحديات الخارجية- بصفة عامة - أدت إلى زيادة تمسك أبنائه به. ولانغفل أن التاريخ سلسلة متصلة من التحديات والاستجابات .

ومن ناحية أخرى؛ أدى إخفاق الصليبيين فى نشر المسيحية من خلال العمليات العسكرية إلى تحول تفكيرهم نحو أسلوب جديد قاده ريموند لول Raymond Lull (١٢٣٥-١٣١٥م / ٦٣٣-٧١٤هـ) الذى كان من الرهبان الفرنسيسكان ، ووصف بأنه أكثر المنصرين الذين ارتحلوا إلى عالم الإسلام ذيوعًا فى الصيت [٥١]، وقد اتجه إلى إتباع أسلوب علمى قائم على تعلم اللغة العربية من جانب المنصِّرين، ورأى أن على الكنيسة الاتجاه نحو الإقناع بدلاً من أسلوب الحرب فى مواجهة المسلمين [٥٢]، ودعوتهم للمسيحية، ويلاحظ أنه فكر فى ضرورة تنصير عناصر التتار من أجل اكتساب ميادين جديدة للتوسع المسيحى فى القارة الآسيوية ، ومما يذكر هنا أنه اعتقد أن على المنصِّرين إتباع أسلوب قائم على «الحب، والصلوات، وانهمار الدموع»

فى التعامل مع الوثنيين، ويرى البعض؛ أنه بفضل جهود ذلك المنصّر وافق مجمع فيينا عام ١٣١١م / ٧١٠هـ على تأسيس ستة مدارس لدراسة اللغات الشرقية فى القارة الأوربية[٥٣]، وهكذا : أدى فشل المشروع التنصيرى خلال عصر الحروب الصليبية في بلاد الشام ومصر وتونس إلى اتجاه القائمين عليه فيما بعد إلى اتباع أساليب جديدة من أجل تحقيق أهدافهم الكبرى فى المنطقة ، ومعنى ذلك بعبارة أخرى، أن تجربة التنصير على الأرض العربية دفعت المؤسسة الدينية فى الغرب الأوربى إلى تطوير نفسها ، والبحث عن أساليب جديدة من أجل تحقيق المكاسب تلو الأخرى على حساب الإسلام وأهله .

ذلك عرض لأمر المسيحية والإسلام بين الاعتناق والارتداد عصر الحروب الصليبية على مدى القرنين ١٢ ، ١٣ م / ٦ ، ٧هـ .

الهوامش

١- Marriott, The Eastern Question , Oxford 1958, p. 1 .

٢- Prawer , The latin kingdom of Jerusalem , The European Colonialism in The Middle Ages, London 1973 .

٣- Runciman, A History of the Crusades, Vol. I, London 1978 , The Preface.

٤- عن خطاب البابا أوربان الثانى انظر:

The Account of Fulcher of Chartres Written 1100-1106), The Account of Robert of Rheims (Written before 1107) The Account of Guilbert of Nogent (Written before1108) , The Account of Baldric of Bourguail (Written 1108) in louise and Jonathan Riley - Smith , The Crusades, Idea and Reality (1095-1274), London 1981, pp. 40-49 .

Peters, The First Crusade, The Chronicles of Fulcher of Chartres and other Source Materials, Pennsylvania 1971, pp. 2-15 .

Kelly , Oxford Dictionary of Popes , Oxford 1968 , p. 159 .

The Oxford Dictionary of Byzantium, prepared a Dambarton Oaks, vol . III, Oxford 1991 , p. 143-144 .

Munro , " The Speech of Pope Urbanus II at Clermont ", A.H.R., vol . II, 1905, pp. 231-247 .

أنظر أيضًا : قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية نصوص ووثائق، ط. القاهرة ١٩٨٥م، ص٧٣-٨٩ . حيث نجد الترجمة العربية لنصوص الخطاب من خلال المؤرخين المعاصرين للمجمع .

٥- Kleinclause , Charlemagne, Paris 1934 , p. 134 .

٦- عن اعتناق فلاديمير المسيحية وفرضها على رعاياه انظر:

Meyendorff and Paynes, " The Byzantine Inheritance in Russia ", in Paynes and Moss , Byzantium an Introduction to the Eastern Roman Civilisation, Oxford 1952 , p. 371-372, Vasiliev, A History of the Byzantine Empire, vol . I, Madison 1958 , p. 323 , Ostrogorsky ,

A History of the Byzantine State, Trans. by Hussey, Oxford 1960 , p. 304 .

بوريس راو شنباخ ، «تعميد كييف»، رسالة اليونسكو ، العدد التذكارى بمناسبة مرور ألف عام على دخول المسيحية في روسيا القديمة، عدد رقم (٣٢٥) ، يونيو ١٩٨٨م، ص٤ - ص٨ ، ليلى عبد الجواد ، تاريخ الروس من خلال المصادر العربية ، ط. القاهرة ١٩٩٠م، ص٥٥ ، طارق منصور، الروس والمجتمع الدولى ٩٤٥-١٠٥٤م، ط. القاهرة ٢٠٠١م، ص١٠١-١٠٢ .

٧- Anonymous , The Deeds of the Franks and other Pilgrims , Trans . by R. Hill, London 1962, p. 21 .

أيضًا :

Hill, " The Christian View of the Muslims at the Time of the First Crusade ", in the Eastern Mediterranean Lands in the Period of the Crusades, ed. by Holt , London 1977, p..2.

٨- عن تلك المذبحة انظر:

d'Aguilers , The Deeds of the Franks, p. 51 , Fulcher of Chartres, AHistory of the Expedition to Jerusalem, Trans. by Rita Rian, Tennesse 1969 , p. 122 .

Raymond d'Aguilers, in Peters, The First Crusade, pennsyvania 1971, p. 209 .

ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق أميدروز ، ط. بيروت ١٩٠٨م، ص١٣٧ ، حسن حبشى، الحرب الصليبية الأولى ، ط. القاهرة ١٩٥٨م، ص١٧٩ ، حاتم الطحاوى، «الصليبيون يدخلون القدس» ، العربى ، العدد (٤٩٥) ، فبراير ٢٠٠٠م، ص٦٣-٦٥ ، عليه الجنزورى ، الحروب الصليبية (المقدمات السياسية) ، ط. القاهرة ١٩٩٩م، ص٢٥٩ .

٩- البيرة ؛ وقعت على بعد ستة عشر ك.م إلى الشمال من القدس على الطريق المؤدى إلى مدينة نابلس، ويلاحظ أن هناك عدة مواقع عرفت باسم البيرة ، فهناك البيرة الواقعة على الضفة الشرقية لنهر الفرات على الطريق من الرها إلى عينتاب، وهناك موضع آخر على شط الفرات بين أعمال الجزيرة فوق جسر منبج ، وأخيراً البيرة فى الأندلس، عن المواقع التى حملت ذلك الاسم أنظر:

ياقوت ، معجم البلدان ، ط. بيروت ب-ت ، ص٣٨٧ ، أبو الفداء، تقويم البلدان، تحقيق رينو ودى سلان، ط. باريس ١٨٤٠م، ص٢٦٨ ، ص٢٦٩ ، القزوينى ، آثار البلاد وأخبار العباد، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص٥٠٢ ، عبد الواحد ذنون طه ، الفتح والاستقرار العربى الإسلامى فى شمال أفريقيا والأندلس ، ط. بغداد ١٩٨٢م، ص٢١٧ ، ص٢٣٠ ، ص٢٤٨ .

وعن البيرة الواقعة بين القدس ونابلس أنظر:

John of Wurzburg, Description of the Holy land , Trans. by Aubrey Stewart , P.P.T.S., vol . V, London 1896 , p. 14 .

Theoderich , Description of the Holy Places, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., vol . V, london 1896 , p. 14 , note (3) .

Ruhricht, Regesta Regni Hierosolymitani, Oeniponti 1893, p. 69 .

Pringle, " Magna Mahumeria (al- Bira) : The Archaeology of a Frankish New Town in Palestine ", in crusade and settlement , ed. by Peter W. Edbury, Cardiff 1985, pp. 148 - 168.

سعيد البيشاوى، الممتلكات الكنسية فى مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م) ، ط. الاسكندرية ١٩٩٠م ، ص١٨٥-١٨٦ .

١٠- القبيبة : وقعت إلى الشمال الغربى من القدس، عنها أنظر: سعيد البيشاوى، المرجع السابق ، ص١٥٢ .

١١- كفر مالك : وقعت على بعد ٣ ك.م من نابلس، وحدها من الشمال قرية ترمسعيا، وخربة ، وكفر ستيتا، عن كفر مالك أنظر : Ruhricht , Regesta, p. 33-34 .

١٢- من أمثلة تلك القلاع : أرسوف ، أنطرطوس، حصن الأكراد ، المرقب، صفد ، هونين ، تبنين، عثليث، بغراس ، دربساك ، حجر شغلن، الفولة، غزة، الداروم، بيت جبرين، تل الصافية، الكرك ، الشوبك ، أيله، شقيف أرنون، المرقب، مرقبه، العال، جسر بنات يعقوب، عكار، يحمور ، صيدا، نمرود عن القلاع الصليبية انظر: ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ط. بيروت ب-ت ، ص٥٤٢، ابن خلكان ، وفيات الأعيان، جـ٧، ص١٧٧، ابن شداد الحلبى، الأعلاق الخطيرة، جـ٢، ص١٥٢ .

William of Tyre, vol . I, p. 469 .

The City of Jerusalem , Trans. by C.R. Conder , P.P.T.S., vol . VI , London 1894, p. 32 .

John Poloner , Description of the Holy land , Trans. by Aubrey Stewart , P.P.T.S., vol . VI, London 1898, p. 34 .

Fedden , Crusader Castles, Beirut 1957 .

Lawrence, Crusader Castles, London 1936 .

مولر ، القلاع أيام الحروب الصليبية ، ص٤٥ - ص١٢٩ مصطفى طلاس ومحمد وليد الجلاد ، قلعة الحصن حصن الأكراد ، ط. دمشق ١٩٩٠م.

صلاح عبد المنعم ، القلاع فى مملكة بيت المقدس الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى، رسالة ماجستير غير منشورة كلية البنات جامعة عين شمس عام ٢٠٠٠م.

طالب الصوافى، القلاع والحصون فى شمال فلسطين فى فترة الصراع الفرنجى الإسلامى (٤٩٢- ٦٩١هـ / ١٠٩٩-١٢٩١م) دراسة تاريخية استراتيجية، ط. عكا ٢٠٠٠م .

بسام العسلى ، فن الحرب الإسلامى أيام الحروب الصليبية، م٤، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص٣١٦- ص٤٠٠ .

١٣- عن بطرس المبجل الذى يعده البعض مؤسس الدراسات الإسلاماتية لدى مسيحيى القرون الوسطى، انظر:

Leclerq , Pierre le Venerable , Paris 1946 .

Kritzeck, Peter The Venerable and Islam , Princeton 1964 .

Southern , Western Views of Islam in the Middle Ages, Cambridge 1962 , p. 38 .

السيد أحمد أبو الفضل.، «انتشار ترجمات معانى القرآن الكريم فى شرق العالم ومغربه »، مجلة البحوث الإسلامية، العدد (٣٠) ، ربيع الأول- ربيع الثاني- جمادى الأول . ط. الرياض ١٤١١هـ، ص٢٥٩ ، محمد عبد الحميد زقزوق ، «الرسالة المحمدية فى المؤلفات الغربية»، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة ، جامعة قطر، العدد (٤) ، الدوحة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص٧٩ ، اليكسى جورافسكى، الإسلام والمسيحية ت. خلف محمد الجراد، سلسلة عالم المعرفة، العدد (٢١٥) ، ط. الكويت ١٩٩٦م، ص٨١- ص٨٤ . عفاف شكرى، «حول ترجمة معانى القرآن الكريم»، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة (١٥) ، العدد (٤٢) ، ط. الكويت ٢٠٠٠م، ص٢٨ .

محمد محمد أبوليلة، الجذور التاريخية والجسور الحضارية بين الإسلام والمغرب، دراسات إسلامية ، العدد (٦٩)، ط. القاهرة ٢٠٠١م، ص٦١ .

والجدير بالذكر هنا: أن بطرس المبجل ألف كتابًا مهمًا فى مجال التنصير هو: دحض العقيدة الإسلامية ، وهو باللاتينية: Liber Contra Sectam sive haeresim Saracenorum.

عن ذلك أنظر: الكسى جورافسكى ، المرجع السابق ، ص٨٤ .

وينبغى إدراك أن طبيعة العصر فى الغرب الأوربى حينذاك اتجهت إلى العداء الشديد نحو الإسلام وهو أمر تطور تاريخيًا من القرن السابع الميلادى / الأول الهجرى حتى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى. حيث نظرت أوربا للإسلام على أنه عقيدة ابتدعها محمد وتوصف بالكذب ، والتشويه المتعمد للحقائق ، وهو دين التفسخ ، والانحلال الخلقى، والشهوات الحسية، وكذلك العنف ، والقسوة، والدموية، بينما الواقع عكس ذلك بطبيعة الحال. عن ذلك انظر :

محمد الدعمى، «تاريخ التأريخ الأوربى للإسلام والعرب من العصر الوسيط حتى عصر الثورة الصناعية»، الكلمة ، العدد (١٦) ، السنة (٤) عام ١٩٩٧م، ص٩٧ الكسى جورافسكى، المرجع السابق، ص٧٥ .

ومن أفضل الدراسات التى تتناول الرؤية الأوربية للإسلام فى العصور الوسطى دراسة سوزرن التالية:

Southern, Western Views of Islam in the Middle Ages, Cambrdge 1978 .

١٤- السيد أحمد أبو الفضل ، المرجع السابق، ص٢٥٩ أيضًا : جمال الدين الشيال ، التاريخ الإسلامى وأثره فى الفكر التاريخى الأوربى فى عصر النهضة ، ط. بيروت ب-ت ، ص٢٢ .

١٥- محمد عبد الحميد زقزوق ، المرجع السابق، ص٧٩ ، حاشية (١) .

١٦- نفسه، نفس المرجع والصفحة.

أنا مارى شيمل ، الإسلام دين الإنسانية ، ت . صلاح عبد العزيز محجوب ، دراسات إسلامية، العدد (٦٠) ، رجب ١٤٢١هـ/ أكتوبر ٢٠٠٠م ، ص٢٠ .

وعن الترجمة اللاتينية للقرآن الكريم، أنظر :

D'Averny , " Deux Traductions latins du Coran au Moyen Age", A.H. D.L.M.A., T. XXII - XXIII, Année 1947-1948 , pp. 69-131 .

وعن الترجمات الأوربية الحديثة أنظر:

جان سوفاجيه وكلود كاهن، مصادر دراسة التاريخ الإسلامى، ت. عبد الستار الحلوجي وعبد الوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة، ط. القاهرة ١٩٩٨م، ص١٩٨ .

ميشيل جحا ، الدراسات العربية والإسلامية فى أوربا ، معهد الانماء العربى ، ط. بيروت ١٩٨٢م. ص٢٥٨-٢٥٩ .

١٧- الإدريسى ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، جـ٤ ، تحقيق جابريل ، وديلاڤيلا وآخرون ، ط. نابولى

١٩٧٧م، ص٣٦٠، أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، تحقيق قاسم السامرائي ، ط. الرياض ١٩٨٧، ص١٥٣ ، محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون فى مملكة بيت المقدس الصليبية، ص١٢٦ .

١٨- أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص١٢٧ .

١٩- نفسه، نفس المصدر والصفحة .

٢٠- نفسه، نفس المصدر والصفحة.

٢١- ابن جبير ، الرحلة ، ط. بيروت ١٩٦٤م، ص٢٨١ .

٢٢- نفسه، نفس المصدر والصفحة.

٢٣- نفسه، نفس المصدر والصفحة.

٢٤- نفسه، نفس المصدر والصفحة.

وعن دور المغاربة فى جهاد الصليبيين أنظر أيضًا :

عبد الهادى التازى ، «بلاد الشام فى الوثائق الدبلوماسية المغربية» المؤتمر الأول لتاريخ بلاد الشام، ط. عمان ١٩٧٤م، ص٤٣٤ ، أحمد بدر، «الأندلسيون والمغاربة فى القدس»، مجلة أوراق المعهد الأسبانى العربى العدد (٤) ، عام ١٩٨١م، ص١٣٣ .

٢٥- ابن الأثير ، الكامل، جـ١٠ ، ط. القاهرة. ١٢٩٠هـ، ص١٧٤ ، أيضًا : عماد الدين خليل ، المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى عصر ولاة السلاجقة فى الموصل ٤٨٩-٥٢١هـ / ١٠٩٥-١١٢٧ م. ط. الرياض ١٩٨١م، ص٩٤ .

٢٦- عن تلك الحادثة أنظر: ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق أميدروز، ص٢٦٥ ، حسن عبد الوهاب، المحاولات التبشيرية فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ط. الإسكندرية ب-ت ص١٣١ وعن الرأى الخاص بالتقية انظر ما أورده الزميل الفاضل، د. حسن عبد الوهاب فى عمله القيم المشار إليه .

٢٧- Jacques de Vitry, A History of Jerusalem, Trans. by Aubrey Stewart , P.P.T.S., vol. IX, London 1896, p. 138 .

Oliver of padernborn , The Capture of Damicta, Trans. by John Cavigan, Philadelphia 1948 , p. 38 .

٢٨- علي عوده الغامدي، «الراهب الفرنسيسكان ريموند لول ومحاولاته نشر النصرانية في شمال

إفريقية»، المؤرخ العربي، العدد (٦) ، م (١)، مارس ١٩٩٨م، ص١٣٣ ، محمود الحويري ، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، ط. القاهرة ١٩٧٩م، ص٢٣٦ .

وعن القديس فرنسيس الأسيزي أنظر:

Attwater , The Penguin Dictionary of Saints, London 1978 , p. 136-137 .

Baldwin , " Mission to the East in the Thirteenth and Fourteenth Centuries ", in Setton, A History of the Crusades, vol . V, Madison 1985, p. 455-456 .

عبدالله الربيعي. أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية، ط. الرياض ١٩٩٤م، ص١٦٧ وعن القديس دومنيك القشتالي انظر: Attwater, p. 105-106 .

٢٩- Kedar, Crusade and Mission European Approaches Towards The Muslims , Princeton 1984 , p. 122-123 .

محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص٣٠٦-٣٠٧ .

٣٠- جورج شحاته قنواتي ، المسيحية والحضارة العربية، ص٢١١ .

عن كيرلس بن لقلق انظر: ابن لقلق ، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، م(٤) ، جـ (١) ، نشره انطون خاطر، ازولد بورمستر، ط. القاهرة ١٩٧٤م، ص«هـ» ، «و» من التصدير .

٣١- Duggan, The Story of the Crusades, London 1963 , p. 244 .

حياة الحجي، السياسة الصليبية للملك الفرنسي لويس التاسع، ط. الكويت ١٩٨٣م، ص١٠٣ ، محمد العروسي المطوي ، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في الغرب الإسلامي، ط. بيروت ١٩٨٦ن، ص٢٠٤ ، روبار برونشفيك، تاريخ أفريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥ م، جـ١ ، ت. حمادي الساحلي، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص٨٩ .

وعن مقاومة التونسيين للغزو الفرنسي أنظر: ابن أبي دينار ، المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، ط. بيروت ١٩٩٣م، ص١٥٨-١٥٩ ، ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك ، نشر مالكوم ليونز ، جـ١ ، ط. كمبردج ١٩٧١م، ص١٧٩: مصطفى الكناني ، حملة لويس التاسع الصليبية على تونس ١٢٧٠م/ ٦٦٨-٦٦٩هـ، ط. الاسكندرية ١٩٨٥م، ص١٣٥-٢٧١ ، فايز نجيب اسكندر ، المقاومة الإسلامية في مواجهة العدوان الصليبي على تونس سنة ٦٦٨-٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م ، ط. القاهرة ١٩٨٦م، ص٥-ص٤١ ، ويلاحظ أن سيمون للويد أغفل ذكر مقاومة التونسيين للويس التاسع على الرغم من

إقرار المصادر التاريخية الصليبية بذلك انظر : سيمون للويد ، «حملتا القديس لويس الصليبيتان» ت. عادل زيتون ، الثقافة العالمية، العدد (٨٧) ، مارس - أبريل ١٩٩٨م، ص١١٦ .

عن ذلك بالتفصيل انظر هذه الدراسة الممتازة :

عبدالله الشرفي ، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع / العاشر ط. تونس ١٩٨٦م.

٣٢- أنظر : رسالة الرد على النصارى، تحقيق محمد عبدالله الشرقاى ، ط. القاهرة ١٩٤٨م.

ومن أمثلة : المؤلفات الخاصة بالرد على النصارى حتى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أنظر:

على بن ربن الطبري (ت ق ٣هـ / ٩م) «الرد على النصارى» و«الدين والدولة». وهو أول نتاج وصلنا في الجدل الإسلامي المسيحي كتبه نصراني نسطوري اعتنق الإسلام .

الإمام الزيدي القاسم الرسي (ت ق ٣هـ / ٩م) الرد على النصارى .

الفيلسوف الكندي (ت ق ٣هـ / ٩م) الرد على النصارى .

ابن عيسى الوراق (ت ق٣هـ / ٩م) الرد على النصارى .

رسالة الحسن بن أيوب (ت ق٤هـ/ ١٠م) إلى أخيه أيوب وهو من المتكلمين المعتزلة ، وكان مسيحيًا واعتنق الإسلام.

٣٣- أنظر كتابه : شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل، تحقيق أحمد حجازي السقا، ط. القاهرة ١٩٧٩م.

٣٤- أنظر كتابه : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ط. القاهرة ب-ت .

٣٥- أنظر : رده على رسالة الراهب الفرنسي هيو الكلوني Hugh of Cluny : رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبو الوليد الباجي عليها، دراسة وتحقيق محمد عبد الله الشرقاوي ، ط. القاهرة ١٩٨٦م.

٣٦- أنظر كتابه : الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل، دراسة وتحقيق محمد عبدالله الشرقاوي، ط. الرياض ١٤٠٣هـ.

٣٧- أنظر كتابه : بين الإسلام والمسيحية، تحقيق محمد شامه ، ط. القاهرة ١٩٧٩م.

٣٨- أنظر كتابه : النصيحة الإيمانية، تحقيق محمد عبدالله الشرقاوي ، ط. القاهرة ١٩٨٦م.

٣٩- أنظر كتابه : الرد على النصارى، تحقيق محمد محمد حسانين ، ط. القاهرة ١٩٨٨م.

٤٠- أنظر كتابه : الإعلام ، تحقيق أحمد حجازى السقا ، ط. القاهرة ١٩٨٠م.

٤١- أنظر كتابه : الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، ط. القاهرة ب-ت .

٤٢- أنظر كتابه : الجواب الصحيح فيمن بدل دين المسيح، ط. القاهرة ب-ت .

٤٣- أنظر كتابه : هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى، ط. القاهرة ب-ت .

٤٤- أنظر قصيدته : البوصيرى ، ديوانه، تحقيق محمد سيد كيلانى، ط. القاهرة ١٩٥٥م، ص١٢٧-١٧١ .

وأشار البعض إلى أن البوصيرى قام بشرح القصيدة المذكورة نظراً لطبيعتها الجدلية واللاهوتية ، عن ذلك أنظر: محمد رجب النجار ، «القدس في الفلكلور والأساطير العربية»، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد (٤٠) ، السنة (١٠) صيف ١٩٩٢م، ص٤٧ .

٤٥- توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام، ت. حسن إبراهيم وزميلاه، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص١١١، عمر عبد السلام تدمرى، تاريخ طرابلس السياسى والحضارى عبر العصور ، عصر الصراع العربى-البيزنطى والحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٨٤، ص٥٠٩ .

٤٦- نفسه، نفس المرجع والصفحة.

٤٧- Odo of Deul, De profectione Ludovici in Orientem , ed. by Virginia Gingerick Berry , New York MCM XLVIII, p. 141 .

أيضًا : إسحق عبيد، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين ، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص٢٠٤ .

ويقرر ما نصه : «لقد جاء عطف الترك هذا بأكبر الأثر وأعمقه على نفس الفرنجة ، ولذا فإن ثلاثة آلاف منهم اعتنقوا الإسلام، ومن الثابت أن الترك لم يجبروا واحداً منهم على هجر مسيحيته ».

نفسه ، نفس المرجع والصفحة.

على عوده الغامدى، أنطالية فى عصر الحروب الصليبية ، ط. مكة المكرمة ١٩٩٧م، ص٢٠ - ص٢١ ؛ عبد السلام زيدان ، الحملة الصليبية الثانية ١١٤٧-١١٤٩م رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة أسيوط عام ٢٠٠٠م، ص١٨١ .

٤٨- عن ذلك أنظر: كارول هيلنبراند ، صلاح الدين: تطور أسطورة غربية، ص٩٦-١١٠ وأيضًا هذا البحث القيم : جزيل الجومرد وناصر جاسم ، «سيرة صلاح الدين الأيوبى فى الدراسات الاستشراقية الناطقة بالإنجليزية»، مؤته للبحوث والدراسات، م (١٣) ، العدد (٧) ١٩٩٨م، ص١١ - ص٣٥ .

٤٩- توماس أرنولد، المرجع السابق، ص١١١ .

٥٠- Chronicle of the Third Crusade A Translation of the Itinerarium Peregrinorium et
'esta Regis Ricardi, Trans. by Helen Nicholson , London 1997 , p. 132 .

٥١- على عوده الغامدى، المرجع السابق ، ص١٤٤ .

وعن رايموند لول انظر:

Zwemer , Raymond lull First Missionary to the Moslems, London 1902.

Peers, Alife of Ramon lull, London 1927 .

Foulet , " The Epic Cycle of the Crusades" in Setton, A History of the Crusades , vol .
VI , Wisconson 1989, p. 91 .

عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ت . فيليب صابر سيف ، ط. القاهرة ١٩٩٠م، ص٨٣-٨٤ .

٥٢- محمود الحويرى، المرجع السابق، ص٢٣٧ .

٥٣- نفسه، نفس المرجع والصفحة.

الفصل السادس

«النبوية» ودورها فى المواجهة السنية- الشيعية ببلاد الشام من خلال رحلة ابن جبير

يتناول هذا الفصل بالدراسة : «النبوية» ودورها فى المواجهة السنية- الشيعية فى بلاد الشام فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى من خلال رحلة الرحالة الأندلسى ابن جبير[١]، ويتعرض لإشاراته فى هذا الشأن ويعمل على المقارنة والمقابلة بينها وبين ما ورد فى المصادر التاريخية العربية عن بلاد الشام عصر الحروب الصليبية.

والملاحظ: أنه على الرغم من الأهمية الكبيرة التى أولاها الباحثون لتلك الرحلة لاسيما فى مجال الأوضاع الحضارية لبلاد الشام حينذاك؛ إلا أن «النبوية» ودورها فى المواجهة السنية- الشيعية لم تحظ باهتمام الدارسين - فى دراسة مستقلة- على الرغم من الأهمية الكبيرة التى احتوتها رحلة ابن جبير فى هذا الشأن.

ويتطلب الأمر: التعرض بايجاز لحجم المواجهة بين الجانبين خلال المرحلة التى سبقت مقدم ابن جبير إلى بلاد الشام : من أجل فهم أبعاد دور النبوية حينذاك ، إذ لا انفصال بين تاريخ تلك المواجهة فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى عن أحداثها فى النصف الثانى منه، كما يحتاج الأمر تتبع أصول الإسماعيلية النزارية ، ونشأتها من أجل رصد التطورات التاريخية التى أفرزت - بالتالى- دور النبوية.

والواقع : أن عهد الخليفة الفاطمى المستنصر لدين الله (٤٢٧-٤٨٧هـ/ ١٠٣٥-١٠٩٤م) شهد مقدم أحد الدعاة الإسماعيلية من فارس ونعنى به الحسن الصباح[٢] ، وأثار قضية خلافة المستنصر ، وأوضح له الخليفة أن خليفته هو ابنه الأكبر نزار [٣]، بيد أن الوزير الفاطمى الأفضل بن بدر الجمالى؛ عمل على أن يكون الخليفة من بعده ابنه الأصغر المستعلى حتى يسهل إخضاعه فى عصر الوزراء العظام أو وزراء التفويض الذين بيدهم مقاليد الأمور، ولدينا صورة للخلاف بين الجانبين فى شكل السجلات المستنصرية[٤] : وهى التى تدافع عن حق المستعلى دفاعًا قويًا بحكم أنها عبرت عن وجهة النظر الرسمية بطبيعة الحال، وهكذا؛ نجدها تؤكد على فكرة أن الخليفة المستنصر كان يدنيه منه، ويخصه بعلومه الإلهية[٥]، ويلاحظ أن

الأفضل تمكن من قمع تمرد نزار الذى ثار على ذلك التغيير، واتجه إلى الإسكندرية حيث ألقى القبض على ما بقى لديه من أتباع ومؤيدين[٦].

بيد أن الحسن الصباح وقف موقفًا مضاداً من الوضع الجديد، وأخذ يدعو لأحقية نزار فى الخلافة ، وظهر إلى الوجود النزارية أتباع نزار ، والمستعلية أتباع المستعلى، وعمل الحسن الصباح على تشييد صرح الدولة النزارية التى كانت لها مقوماتها ، ونظامها السياسى فى إيران، وتمكن من الاستيلاء على قلعة ألموت[٧] (عش العقاب) البالغة المنعة ، والحصانة عام ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م بجنوب بحر قزوين ، وكذلك عدد من القلاع الحصينة الأخرى، ولاريب فى أن الواقع الجغرافى الجبلى التضاريس هناك ؛ أفاده فى تكوين دولته ومقاومة القوى المعارضة بالإضافة إلى قدرته الكبيرة على إخضاع أتباعه ، والسيطرة باحكام عليهم.

والجدير بالذكر؛ أن ذلك الداعية عمل على تكوين نظام خاص من الدعوة الإسماعيلية وجدت فيه عناصر بارزة منها: شيخ الجبل [٨]، وكبار الدعاة [٩]، والدعاة [١٠]، والرفاق[١١]، والملاصقون [١٢]، ثم أخيراً الفدائيون [١٣]، ولعل أخطر ما فى تلك العناصر ، العنصر الأخير؛ حيث عمل الفدائيون على التخلص من أعداء الحسن الصباح، وكانوا من العناصر الشابة القوية البنية الجسدية ، الذين إجادوا استعمال الخناجر ، والطعن بها، وتوافرت فيهم صفات مثل الشجاعة ، والإقدام، وكان الفداوى ينتظر شهوراً وربما أعوامًا يترقب فيها الفرصة السانحة من أجل الإنقضاض على ضحيته[١٤] ، وبصفة عامة ؛ أطاع الفدائيون الأوامر الصادرة لهم طاعة عمياء .

مهما يكن من أمر ؛ وجدت عدة عوامل، جعلت الفرصة مهيأة لانتشار مذهب الإسماعيلية النزارية فى بلاد الشام ، منها طبيعة المنطقة من الناحية الجغرافية ، واحتوائها على المناطق الجبلية التى سمحت باحتماء أصحاب المذاهب المتطرفة فيها، وتنامى النزعة الاستقلالية لقطاعات من أصحاب تلك المذاهب، وهكذا تمزقت المنطقة بين عناصر مختلفة عقائديًا، ومتقوقعة على نفسها، كذلك نلاحظ أن من عوامل انتشار الإسماعيلية النزارية أيضًا أن المذهب الشيعى كان له أتباعه فى بلاد الشام حيث كانت الدعوة الفاطمية قد حققت نجاحات هناك من قبل حدوث الانشقاق بين النزارية، والمستعلية، ويضاف إلى ذلك ؛ أن الأحداث السياسية المضطربة فى بلاد الشام لعبت دوراً بارزاً فى تهيئة الفرصة المناسبة لعناصر الإسماعيلية النزارية لتوطيد أقدامهم[١٥]، خاصة من خلال دخول السلاجقة لبلاد الشام،

والغزو الصليبى فى المنطقة وما أحدثه من اضطراب فيها، وكذلك طابع التنافس والتناحر بين القوى المحلية الشامية خاصة من خلال تفكك الدولة السلجوقية ، وتنامي نظام الأتابكيات، وهو أمر لاحظناه فى علاقات حلب ودمشق وغيرهما من حواضر الشام.

مهما يكن من أمر : تمثل المظهر البارز لنشاط الإسماعيلية النزارية فى إشهار سلاح الاغتيال فى وجوه الخصوم من القيادات المحلية السنية، وخلال الأربعة عقود الواقعة من عام ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م إلى عام ٥٢٦هـ / ١١٣٢م، توالى سقوط العديد منها بخناجر الفداوية، وهكذا: سقط أول ضحاياهم وهم الوزير السلجوقى الأشهر نظام الملك عام ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م[١٦] ، وفيما بعد توالى تساقط قيادات محلية فى بلاد الشام والجزيرة ، ونجد أن جناح الدولة حسين صاحب حمص اغتيل عام ٤٩٦هـ / ١١٠٣م [١٧]، وبعده بثلاث سنوات سقط خلف بن ملاعب صاحب أفاميه عام ٤٩٩هـ / ١١٠٥م[١٨]، وطالت خناجر الإسماعيلية النزارية أتابك الموصل شرف الدين مودود[١٩] الذى اغتيل عام ٥٠٧هـ/ ١١١٣م فكان استشهاده فى الحقيقة اغتيالا لقائد حركة الجهاد الإسلامى خلال تلك المرحلة المبكرة من تاريخها ، وإن تم بعثها على أيدى أتابكة الموصل الآخرين ممن أتوا من بعده، ثم من بعده تم اغتيال أحمديل صاحب مراغة فى العام التالى مباشرة؛ أى عام ٥٠٨هـ / ١١١٤م [٢٠]. كذلك سقط من ضحاياهم اقسنقر البرسقى أتابك الموصل عام ٥٢٠هـ / ١١٢٦م[٢١]، ونال بورى بن طغتكين ذات المصير عام ٥٢٦هـ/ ١١٣٢م[٢٢]، ولحق به ابنه من بعد ذلك بثلاث سنوات [٢٣].

ولاريب : فى أن استعراض نشاط الإسماعيلية النزارية خلال السنوات السابقة يكشف لنا عن اختيارهم الدقيق لضحاياهم ، وتمكنهم من بعث الفوضى ، والانقسام فى صفوف المسلمين السنيين لاسيما فى بلاد الشام ، والجزيرة فى وقت كانوا فيه فى أشد الحاجة للاتحاد والتماسك معًا فى مواجهة الغزو الصليبى الذى أخذ يثبت أقدامه فى المنطقة عامًا بعد آخر، وذلك على حساب كل من القوى السنية والشيعية فى آن واحد، وهكذا يمكن القول أن نجاحات الصليبيين خلال تلك المرحلة لايكشف لنا عن «عبقرية» صليبية ما؛ وإنما يكشف لنا عن صراع داخلى وتناحر بين قوى المسلمين ؛ على نحو هيأ للغزاة الدخلاء فرصة تاريخية لصنع كيانهم المتنامى على الأرض المسلمة، مع عدم إغفال استبسال القيادات الصليبية فى زرع وجودها فى المنطقة.

ومن الأمـور ذات الدلالة؛ أن عناصر الإسـمـاعـيليـة النزارية وجـدت أحـيـانًا فى الكيـان الصليبى قوة سياسية معضدة لهم فى المواجهة مع القوى السنية، وهكذا ؛ وجدنا أحد قادتهم وهو على بن وفا قد وقف إلى جانب الصليبيين ضد المسلمين بقيادة نور الدين محمود فى معركة أنب عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م، ولقى مصرعه فى ساحة الوغى[٢٤]، ولاريب فى أن ذلك الموقف كشف لنا بجلاء مأساة الانقسام والتصارع المذهبى التى عاشها المسلمون فى بلاد الشام فى ذلك الحين، وجاء الغزو الصليبى ليكشف ذلك الانقسام بوضوح .

وفى واقع الأمر ؛ إن المواجهة السنية- الشيعية خلال تلك المرحلة كانت من عوامل إضعاف المقاومة الإسلامية، ويكفى أن العديد من قادة الجهاد تعرضوا للاغتيال ونذكر هنا أن طعنات الفداوية الغادرة - فيما بعد- وجهت للسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى- القائد البارز لحركة الجهاد الإسلامى فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى - مرتين إلا أنه لم يصب بسوء.

على أية حال ؛ فمن ملامح المواجهة السنية- الشيعية فى القرن المذكور، حدوث مذابح تلحق بالإسماعلية النزارية فى شمال الشام ووسطه، ومن أمثلتها مذبحتى حلب عام ٥٠٧هـ/ ١١١٣م، ودمشق عام ٥٢٣هـ/ ١١٢٩م، وسيتم التعرض لأحداثهما بايجاز نظراً لأهمية ذلك فى تناول إشارات ابن جبير بشأن المواجهة المذكورة .

أما بالنسبة للمذبحة الأولى[٢٥] ؛ فنعرف أن ألب أرسلان بن رضوان بن تتش؛ عمل على التخلص من تزايد النفوذ الإسماعيلى فى المدينة ، والذى استشرى فى عهد والده، واتجه إلى الاعتماد على القوى المحلية السنية بدلاً من القوى الشيعية الإسماعيلية ، وعاونه بعض الفقهاء السنيين لاسيما ابن الخشاب، وشارك الأحداث - وهم عناصر مسلحة من سكان المدن الشامية حينذاك- والعامة بدورهم فى تلك الوقائع ، وتم تعقب الإسماعيلية فقتل منهم الكثيرون ولاذ منهم من لاذ بالفرار إلى المناطق المجاورة طلبًا للأمن ، وتعد مذبحة حلب أول مذبحة فى بلاد الشام ضد الإسماعيلية فى عصر الحروب الصليبية على هذا النحو ، وعكست طبيعة المواجهة السنية- الشيعية خلال تلك المرحلة.

وفيما يتعلق بمذبحة دمشق التى جرت عام ٥٢٣هـ/ ١١٢٩م[٢٦]؛ من الملاحظ أنها كانت أعنف من سابقتها ، وفيها أمر تاج الملوك بورى بقتل عناصرهم التى وصفت بالباطنية فى كل موقع بالمدينة وبالفعل نالتهم السيوف، والخناجر، ولعب الأحداث دورهم فى تطور الموقف.

مهما يكن من الأمر؛ من الضرورة بمكان الاتجاه إلى نصوص ابن جبير فى أمر المواجهة بين الجانبين ، وفى ذلك الصدد يقول : « ... سلط الله على هذه الرافضة، طائفة تعرف بالنبوية ، سنيون يدينون بالفتوة، وبأمور الرجولة كلها، وكل من ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه منها، يحزمونه السراويل فيلحقونه بهم، ولايرون أن يستعدى أحد منهم فى نازلة تنزل به ، لهم فى ذلك مذاهب عجيبة، وإذا أقسم أحدهم بالفتوة برَّ قسمه ، وهم يقتلون هؤلاء الروافض أينما وجدوهم ، وشأنهم عجيب فى الألفة والائتلاف »[٢٧].

وفى موضع آخر من الرحلة يقول عن بلدة بزاغة فى شمالى الشام: «ويناظرها فى جانب البطحاء قرية كبيرة تعرف بالباب ، وهى باب بين بزاغة وحلب ، وكان يعمرها منذ ثمانى سنين قوم من الملاحدة الإسماعيلية لايحصى عددهم إلا الله، فطار شرارهم ، وقطع هذه السبيل فسادهم ، وإضرارهم ، حتى داخلت أهل هذه البلاد العصبية، وحركتهم الأنفة، والحمية فتجمعوا من كل أوب عليهم ، ووضعوا السيوف فيهم، فاستأصلوهم عن آخرهم ، وعجلوا بقطع دابرهم، وكومت بهذه البطحاء جماجمهم ، وكفى الله المسلمين عاديتهم وشرهم ، وأحاق بهم مكرهم ، والحمدلله رب العالمين، وسكانها اليوم قوم سنيون ... »[٢٨].

والجدير بالذكر هنا؛ أن مهمة هذا الفصل التعامل مع النصين المذكورين ، وتحليلهما من أجل التوصل إلى دلالات تاريخية محددة بشأن المواجهة السنية- الشيعية حينذاك ، ويلاحظ أن الباحثين اختلفوا فى شأن ما ورد فى هذين النصين، بل إن منهم من خلط بين الحقائق كما سيتم توضيحه مفصلاً قدر الجهد المتواضع .

ومن الجلى البين؛ من خلال تلك النصوص أن النبوية عناصر من الفتيان السنيين الذين عملوا على محاربة عناصر الشيعة الاسماعيلية النزارية، ويبدو أن نسبة النبوية ترجع إلى النبى محمد (ﷺ) ، وعلى الرغم من ذلك ؛ خلط البعض بين النبوية والبيانية ، والأخيرة[٢٩]؛ إحدى الطرق الصوفية التى وجدت فى بلاد الشام فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى ، ونسبت إلى الشيخ أبى البيان الزاهد القرشى[٣٠] (ت ٥٥١هـ / ١١٥٦م) وهو من كبار شيوخ الصوفية فى ذلك العصر.

والواقع أننا؛ كى نتناول بالبحث النبوية ودور أولئك الفتيان فى مواجهة عناصر الإسماعيلية فى بلاد الشام خلال النصف الثانى من القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى ؛ لابد أن نتناول الجهود التى قام بها الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، وقد عمل

ذلك الخليفة على إحداث صحوة الخلافة العباسية، ومن مظاهرها: إحياء تقاليد الفتوة والفروسية العربية من جديد [٣١]، ووجدت آداب متعددة للفتيان منها ارتداء السراويل، والأحزمة، وشرب الماء والملح، وغيرها من المراسيم، ولدينا بعض المصادر المهمة مثل ما ألفه ابن البقال[٣٢]، وابن عمار[٣٣] توضح تلك الجوانب على نحو مفصل.

وجدير بالتنويه: أن العديد من الفرق الفروسية ظهرت في ذلك العصر مثل الرهاصية، وهي المنسوبة إلى عمر الرهاص [٣٤]، والخليلية التي تنسب إلى إبراهيم الخليل [٣٥]، وأيضًا النبوية [٣٦]، وتعد الأخيرة من فرق الفتيان المهمة، ولعبت دوراً فعالاً ضد عناصر الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام كما سيتضح لنا.

ومن الملاحظ: ندرة إشارات المصادر التاريخية بشأن النبوية، والدور الذي قامت به باستثناء شذرات متناثرة هنا وهناك، توصف بالفعل بالندرة، ولانجد لدينا مادة تاريخية مفصلة تشفي غليل الباحث لكشف النقاب عن دورها حينذاك، ومع ذلك: بفضل نصوص ابن جبير أمكن إلقاء الضوء بشأن ذلك الدور بالإضافة إلى المصادر التاريخية الأخرى بطبيعة الحال خاصة المتخصصة في تاريخ المدن الشامية لاسيما الشمالية.

ومن المتصور: أن تنظيم النبوية مثل حقيقة واقعة في بلاد الشام عندما زارها الرحالة الأندلسي ابن جبير، ومن ثم أشار إليه بمثل تلك الصورة الواضحة، وهكذا: فإن النبوية كانت موجودة في بلاد الشام حوالي عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م وهو تاريخ زيارة ابن جبير لها، أي خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، مما يفند قول ديمومبين حينما تصور أن تنظيمات الفتيان في ممارستها للأنشطة الحربية ضد الإسماعيلية كانت في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي [٣٧].

ويتجه فرانز تيشنر- عمدة دارسي تاريخ الفتوة الإسلامية- إلى الربط بين النبوية ووجودهم في دمشق[٣٨]، على اعتبار أن نص ابن جبير السابق الذكر جاء خلال حديثه عن تلك المدينة التاريخية الخالدة، والحقيقة أن النص السابق يوضح بجلاء ارتباط وجود النبوية بمناطق تواجد الإسماعيلية، ولم يكن ذلك مقصوراً على دمشق بل إن الأحداث أثبتت أن القسم الشمالي من بلاد الشام شهد النصيب الأوفر من نشاط النبوية على ما هو مرجح.

ويرى برنارد لويس - مؤرخ الاسماعيلية البارز- أن النبوية تنظيم إسلامي ضد الشيعة في العراق[٣٩] ومع ذلك: يبدو أن واقع عملياتهم لم يكن قاصراً على العراق: بل إن بلاد الشام أيضًا شهدت فصولاً من أدوارهم الحربية ضد العناصر الإسماعيلية النزارية.

أما بالنسبة للأمثلة المتعلقة بالأدوار الحربية التى خاضتها عناصر النبوية؛ فالحقيقة أن المصادر التاريخية السنية المعاصرة واللاحقة لاتلقى أضواء كافية فى هذا الشأن ، وربما كان سبب ذلك يعدو فى المقام الأول- إلى أن المعارك التى خيض غمارها ضد الإسماعيلية النزارية من جانب النبوية كانت تقع فى مناطق نائية ، ومتطرفة ، فلم تحظ باهتمام كبير من المؤرخين ، أو ربما أن نشاطهم تزايد فى مرحلة ما ثم ما لبث أن ضعف لأسباب أدت إلى ذلك لم تكشف المصادر النقاب عنها، مع ملاحظة أن كافة تلك التصورات مجرد فروض لايمكن تأكيدها أمام صمت المصادر التاريخية.

ومع ذلك ؛ يلاحظ المصادر التاريخية التى اهتمت بشمالى الشام خاصة أبرزت ذلك الدور فى منطقة الباب، ومن الضرورى أن نتناول موقعها الجغرافى لندرك بالتالى أهميته فى توجهات النبوية إلى تلك المنطقة على نحو خاص ، ويلاحظ أن الباب وقعت على بعد عشرة أميال من مدينة حلب عند وادى عرف بوادى بطنان ، وكانت المسافة بين منبج والباب تقدر بنحو ميلين، ومن جهة أخرى ؛ يمكن ملاحظة وقوع الباب إلى الشمال الشرقى من حلب، وإلى الجنوب الغربى من منبج ، وإلى الجنوب من بزاغة (وهى حاليًا تعرف ببزاعة) ، ونظراً لقربها من الأخيرة؛ وصفت بأنها باب بزاغة [٤٠].

ومن الضرورى إدراك أهمية المنطقة على المستوى التجارى الإقليمى والدولى، فمن المعروف أن شمال الشام، وعلى نحو خاص مدينة حلب[٤١] وما جاورها من أعمال مثل الباب ، وبزاغة وقنسرين ارتبط ارتباطًا وثيقًا على الصعيد التجارى بشمال العراق ، وخاصة الموصل [٤٢]، وما جاورها من مناطق قريبة منها، وغدت القوافل التجارية فى حركة نشطة بين الجانبين ومن المتصور أن الباب وقعت ضمن مناطق النشاط التجارى بين حاضرة شمال الشام، وحاضرة شمال العراق؛ مما أعطى لها أهمية خاصة ، وهى بالتالى لم تكن فى نطاق ثانوى أو بعيدة عن مجال الاحتكاك الإقليمى فى النطاق الجزرى والشامى ، مع ملاحظة أن المدن الصغيرة المجاورة للحاضرتين المذكورتين شاركت فى صنع الازدهار التجارى الذى توافر لهما فى ذلك العصر.

أما على المستوى الدولى؛ فالملاحظ أن الباب أشار أبوالفداء إلى توافر زراعة أشجار التوت فيها لأجل القز[٤٣]، ولانغفل هنا؛ أن تلك المنطقة مثلت جزءاً من طريق الحرير وقد بدأ من الصين فى حوض نهر تاريم فيما يعرف بتركستان الصينية، ثم امتد إلى منغوليا، وحوض نهر تاريم الصحراوى، وممرات أفغانستان ، وبلاد فارس، ثم اتجه إلى بلاد الرافدين ومنها إلى

بلاد الشام، ومن هناك تفرع إلى فرعين أحدهما اخترق الأناضول إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية أو اتجه إلى موانئ البحر المتوسط حيث وجدت السفن التجارية لشحن منتجات الحرير إلى المدن الأوربية(٤٤).

وهكذا؛ من الممكن تصور أن تلك المدينة كانت لها أهميتها على مستوى التجارة الدولية في صورة طريق الحرير، وهي مثلت بذلك جزءًا من المرحلة الأخيرة من الطريق المذكور في بلاد الشام، ومنطقي تصور أن ذلك الطريق حقق لمن يخضعه مكاسب طائلة من عوائد حركة الصادرات والواردات - مع ملاحظة أن الحرير عُدَّ أحد أركان التجارة الدولية في العصور الوسطى في صورة التوابل ، والحرير ، والرقيق ، والذهب ، وهي سلع تجارية عالمية توصف وبحق بأنها عابرة للقارات ، ووجدت شعوب العالم في القرون الوسطى في التعامل بها واستهلاكها على الرغم من اختلاف الأقوام ، والأديان، والأعراق بل والتصارع بينها أحيانًا كما في ظاهرة الحروب الصليبية ذاتها.

ومن الممكن القول؛ أن ذلك الموقع الحيوي تجاريًا شكل ازدهار دور الباب ، وجعل لها مكانة خاصة في شمال الشام، وأن نظرة متأنية إلى خريطة شمال الشام يمكن من خلالها إدراك أنها وقعت بين منبج المزدهرة تجاريًا، وحلب التي توصف بالفعل بأنها القلب التجاري للمنطقة ، ومعنى ذلك أن ذلك النطاق احتوى على العديد من الخطوط التجارية من وإلى بلاد الشام، وحقيقة أن الباب ذاتها لم تكن ذات مستوى عمراني رفيع : إذ أن ابن جبير نفسه قرر أنها قرية كبيرة (٤٥)؛ إلا أن منبج إلى الشرق منها وصفت بأن أسواقها وسككها فسيحة متسعة ، ودكاكينها، وحوانيتها كأنها الخانات ، والمخازن اتساعًا وكبرًا(٤٦). كذلك نجد بزاغة نفسها ظهرت فيها التجارة ، وصفت بأنها جمعت بين المرافق السفرية ، والمتاجر الحضرية كما لاحظ ذلك الرحالة(٤٧).

ويقرر ابن جبير في معرض تناوله للصدام العنيف الذي وقع في الباب ، والذي أدى إلى إحداث مذبحة ضد الاسماعيلية النزارية بها- يقرر أنهم «طار شرارهم ، وقطع هذا السبيل فسادهم وإضرارهم»(٤٨) وحقيقة الأمر : أن الإشارة المذكورة من الممكن توضيحها من خلال زاويتين؛ الأولى من خلال إدراكنا لازدهار حركة القوافل التجارية في المنطقة ومن المفترض أن عناصر الاسماعيلية النزارية كان بمقدورهم شن عمليات إغارة للسلب ، والنهب على القوافل التجارية المارة بالمنطقة ، ومن الممكن الافتراض بأن ذلك هدد المصالح الاقتصادية للعناصر

السنية على نحو أدى إلى وصول الموقف السياسى بين الطرفين إلى ذلك الصدام الحربى العنيف. ومن المفترض أن العامل الاقتصادى- بالإضافة إلى العامل المذهبى- عمق التصارع بين الجانبين ، ولانغفل كذلك، الجانب الأمنى؛ إذ أن أعمال الاسماعيلية النزارية الخاصة بسلب ونهب القوافل هددت الأمن فى تلك المنطقة ذات الحساسية الخاصة بين شمال الشام وشمال العراق.

أما الزاوية الثانية: فيمكن إدراكها من خلال توضيح المؤرخ الحلبى ابن العديم- الخبير بتاريخ مناطق شمالى الشام- : إذ ذكر لجوء الاسماعيلية النزارية فى جبل السماق الواقع ضمن مناطق حلب الغربية إلى القيام باحتساء الخمور ، والقيام بممارسة الجنس مع المحارم[٤٩]- كما تقول الرواية السنية- بل أوضح أنهم تسموا بالصفاه بل إن منهم من اعتبر راشد الدين سنان مقدم الاسماعيلية (٥٥٩-٥٨٩هـ/ ١١٦٣-١١٩٣م) فى بلاد الشام بأنه «ربه» ، على الرغم من إنكار ذلك المقدم مسلكهم فعمل على قتال كبارهم والفتك بهم [٥٠]، ومن المتوقع - على ضوء ذلك- اتجاه القوى السنية إلى مقاوة مسلك العناصر المذكورة التى لم تكن لتقبل ذلك التوجه الذى رفضه راشد الدين نفسه، وهو مقدمهم حينذاك .

وقد يتجه البعض إلى القول بأن جبل السماق وقع إلى الغرب من حلب ، بينما الباب إلى الشمال الشرقى منها ، وبالتالى كل له نطاقه الجغرافى، وحقيقة الأمر: من المتصور الارتباط الوثيق بين الأحداث هنا وهناك خاصة أن رواية ابن العديم توحى بذلك من خلال اتصالها وترابطها ، وعلى أساس ذلك فمن المفترض أن مسلك الاسماعيلية النزارية لم يكن قاصراً على جبل السماق بل امتد لمناطق أخرى منها الباب نفسها.

ومن المنطقى تصور : أن الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود الذى تولى المقاليد بعد وفاة والده عام ٥٧٢هـ / ١١٧٤م [٥١]، ومن معه من المستشارين لم يقبلوا اضطراب الأمور فى تلك المنطقة والانحراف - وفق الرواية السنية- الذى صار عليه قطاع من الإسماعيلية النزارية، وهكذا ظهر لنا الجانبان الاقتصادى، والعقائدى فى الأحداث التى حلت بالباب .

مهما يكن من أمر؛ فوفق ما يورده ابن العديم: وقع صدام عنيف هناك عام ٥٧٣هـ / ١١٧٥م واشتركت فيه عناصر النبوية ضد الاسماعيلية النزارية ، ويقدر أحد المؤرخين أعداد النبوية بأنهم نحو عشرة آلاف[٥٢]، وقد قتلوا من الإسماعيلية ثلاثة عشر ألفًا ، وذبحوهم ذبحًا وتتبعوهم فى المغاير (جمع مغارة) عندما التجأ إليها الفارون من هول تلك المذبحة،

وعلى الرغم من إدراكنا لطابع المبالغة الذى اعتادته المصادر التاريخية عمومًا فى عالم القرون الوسطى فى مثل تلك الأحوال لعدم وجود أجهزة إحصاء دقيقة وكذلك بعض المراجع الحديثة ، إلا أن الصدام الذى وقع بين عناصر النبوية والاسماعيلية هناك كان كبيراً من خلال إدراكنا للنتائج التى تمخض عنها .

وهناك عدد من الملاحظات بشأن تلك المذبحة يمكن إيرادها كالآتى :

أولاً : دلت إشارة ابن العديم إلى اشتراك النبوية فى تلك الأحداث عام ٥٧٣هـ/ ١١٧٥م دلت على أن النبوية كانت موجودة فى بلاد الشام حتى من قبل مقدم ابن جبير وقيامه برحلته فى ربوع المنطقة ، ومع ذلك؛ من العسير تصور بدايات ذلك الوجود نظراً لصمت المصادر التاريخية المعاصرة ، وقد تصور البعض أن النبوية ظهرت فى نهاية القرن الحادى عشر وبداية القرن الثانى عشر الميلادى (٥٣) ، غير أن ذلك التوجه لايعتمد على مصادر تدعمه ففى حالة كون ذلك على حق لأشارات المصادر التاريخية لدورهم طوال النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى، الأمر الذى لم يحدث مما يضعف تلك المقولة. كما لانستطيع - أمام صمت المصادر- اثبات هل النبوية مثلت تطويراً لأداء عناصر الأحداث أم لا ؟.

ثانيًا : اختارت عناصر النبوية منطقة ذات كثافة سكانية اسماعيلية مرتفعة فى الباب، وكان ذلك على ما يبدو من خلال تزايد أعدادهم فى الأعمال الشامية الشمالية مثل حلب ، وبزاغة ، وسرمين وغيرها، والدليل على تزايد كثافتهم فى الباب قبيل المذبحة أن ابن جبير ذكر أن أعدادهم كانت كبيرة، ولايحصى عددهم إلاّ الله تبارك وتعالى، مع ملاحظة أن الجماعات الدينية والمذهبية المتطرفة فى ذلك العصر لجأت إلى التركز والتكتل فى مناطق جغرافية محددة كأن تكون مناطق جبلية محصنة بطبيعتها أو منعزلة طلبًا للحماية، والأمن، وخشية الإذابة فى مجتمعات أكبر مغايرة لها عقائديًا .

ثالثًا : إن طبوغرافية منطقة وادى بطنان ، والباب ، وبزاغة أدت إلى أن يكون هجوم النبوية على المراكز الاسماعيلية شاملاً - على الأرجح- وبالتالى تزايد أعداد القتلى فى صفوفهم- مع إدراكنا لتزايد أعدادهم أصلاً هناك-. ودلت عبارات ابن جبير على تعاظم خسائرهم البشرية إذ يقول «وضعوا السيوف فيهم فاستأصلوا عن آخرهم»(٥٥)، كما أن نص ابن العديم السالف الذكر فى توضيح ذات الصورة من خلال لجوء

الإسماعيلية إلى المغارات طلبًا للنجاة بأنفسهم.

رابعًا : يبدو أن أحداث الباب ظلت ماثلة في الأفق حتى بعد وقوعها بأعوام بحيث أن ذلك الرحالة أشار إليها عندما مر بالمنطقة عام ٥٨٠هـ / ١١٨٤م، وذكر أنه حدث فيها منذ ثماني سنوات قديمة للاسماعيلية ، مما يعكس أن الروايات الشفوية ظلت ترددها طوال تلك الأعوام وهي بالتأكيد لم تبعد زمنيًا طويلاً عن وقائعها .

خامسًا : أدت تلك الأحداث - وهذا هو المهم- إلى تغيير خريطة التوزيعات الديموغرافية في شمال الشام على أساس مذهبي لصالح العناصر السنية ، وعلى حساب الشيعة الاسماعيلية بدليل أن ذلك الرحالة نفسه ذكر أن أهل الباب عندما زارها «قوم سنيون»[٥٦]، وربما دل ذلك على حدوث هجرة- وربما تهجير دون إمكانية التثبيت من ذلك نظراً لعدم إفصاح المصادر - للعناصر التي من المحتمل بقائها دون أن ينالها المصير الدموي السابق من المنطق المنكوبة إلى المناطق الأكثر تركزاً للعناصر الاسماعيلية طلبًا للحماية والأمن، ومن المفترض أن القيادة السنية عملت على إيجاد كيان سكاني سني في الباب ؛ ليقف أمام أية محاولة لعودة النفوذ الاسماعيلي إليها الأمر الذي يعكس أنه في أعقاب حدوث مثل تلك المذابح كانت توزيعات السكان تتعرض للتغيير ؛ وفق المعطيات الجديدة التي نتجت عن تلك الأحداث ، وأن التوزيعات الجديدة كانت على أساس عقائدي مثلما كان من قبل حدوث تلك المذابح غير أن الفارق الجوهري تمثل في أن الوضع الجديد كان دومًا لصالح القوة المنتصرة وفي حالتنا كانت تلك القوة للسنة

سادسًا : يلاحظ أن ما حل بالإسماعيلية النزارية في الباب لم يكن جديداً على المواجهة السنية- الشيعية على مدى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ؛ فمن قبل حدثت مذبحتا حلب عام ٥٠٧هـ/ ١١١٣ م، ودمشق عام ٥٢٣هـ / ١١٢٨م، كما أسلفت الإشارة من قبل- ولكن اختلفت المذبحتان المذكورتان عن مذبحة عام ٥٧٣هـ/ ١١٧٥م ؛ إذ أن عناصر الأحداث شاركت بنصيب وافر في توجيه المذبحتين، والاصطدام باسماعيلية حلب ودمشق، أما في أحداث العام الأخير فقد قامت النبوية بدورها الحربي خلالها، ويوجد فارق جوهري آخر وهو أن أحداث الباب كشفت لنا عن أن مقاومة الاسماعيلية النزارية لم تكن فقط في المدن الشامية الكبرى فقط، بل حتى في المناطق

التى لاتعد بأى حال من الأحوال من المدن مثل الباب التى وصفها ابن جبير نفسه بأنها «قرية كبيرة» ، ومن جهة ثالثة؛ من الواضح أن أعداد القتلى من الإسماعيلية فى المذبحة فاق ما حدث فى حلب ، ودمشق ، وفق الانطباع الذى تقدمه لنا نصوص المصادر التاريخية ، مع ملاحظة أن وقائع مذبحة دمشق عام ٥٢٣هـ / ١١٢٨م أدت إلى سقوط العديد منهم ، وقدرت بعض المصادر أعدادهم بستة آلاف [٥٧]، على حين اتجه البعض إلى تقديرهم بنحو عشرة آلاف [٥٨] ، وينبغى بالطبع ملاحظة إمكانية المبالغة فى التقديرات فى كتابات مؤرخى تلك المرحلة التاريخية على نحو خاص .

وتوجد ناحية أخرى اختلفت فيها أحداث الباب عن أحداث حلب ودمشق ؛ فعلى حين نجد مادة مصدرية وفيرة عن أحداث المدينتين المذكورتين ؛ إلا أن أحداث الباب ندرت الإشارات بشأنها بصورة ملفتة للانتباه على الرغم من أهميتها فى زيادة توضيح حجم المواجهة القائمة بين التوجهين السنى والشيعى، ومن هنا جاءت الأهمية الكبيرة التى أعلقها على ما أورده أمير الرحالة المسلمين عصر الحروب الصليبية ابن جبير.

ذلك عرض لموضوع النبوية ودورها فى المواجهة السنية- الشيعية فى بلاد الشام من خلال رحلة ابن جبير .

الهوامش

١- عن ابن جبير أنظر:

المقرى، نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، جـ٣، ط. القاهرة ١٩٤٩م، ص١٤٣ ، ابن الصابونى ، تكملة إكمال الإكمال، تحقيق مصطفى جواد ، ط. بغداد ١٩٥٧ م، ص١٩٩، حاشية (٢) كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ت. صلاح الدين عثمان ، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص٢٩٨، صلاح الدين المنجد، المشرق فى نظر المغاربة والأندلسيين ، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص١٨-١٩ ، عبد القدوس الأنصارى، مع ابن جبير فى رحلته، ط. القاهرة ١٩٧٦م، ص٢١-٣٦ ، هنرى لامنس، «بلاد سوريا فى القرن الثانى عشر وفقًا لرواية ابن جبير »، المشرق ، العدد (٧) ، السنة (١٠) ، عام ١٩٠٧م، ص٣٨٧، زكى حسن ، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٤٥م، ص٧٠-٧١، عبد الفتاح وهيبه، جغرافية العرب فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص١٨-١٩، أحمد رمضان ، الرحلة والرحالة المسلمون، ص٣٢٣ .

٢- عن الحسن الصباح ودوره فى الدعوة الاسماعيلية الجديدة أنظر: الراوندى، راحة الصدور وآية السرور، ت. الشواربى وحسنين والصياد ، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص٢٣٧-٢٣٩ ، الجوينى، تاريخ جهانكشاى، ت. محمد السعيد جمال الدين ، ضمن كتاب دولة الاسماعيلية فى إيران ، ط. القاهرة ١٩٧٥م، ص١٨٤ - ص٢٠٦ ، ابن ميسر، تاريخ مصر، تحقيق هنرى ماسيه، ، ط. القاهرة ١٩١٩م، ص٦٨ ، العلوى، بيان الأديان ، نشر الخشاب ، مجلة كلية الآداب- جامعة القاهرة، م (١٣) ، جـ١، عام ١٩٥٧م، ص٤٣ ، طه شرف ، دولة النزارية أجداد أغاخان، ط. القاهرة ١٩٥٠م، ص٣٥ ، ص٤٢ - ص٤٣ ، كامل حسين ، طائفة الاسماعيلية، ط. القاهرة ١٩٥٩م، ص٦٤ ، برنارد لويس، الدعوة الاسماعيلية الجديدة، ت. سهيل زكار ، ط. بيروت ١٩٧١م، ص١٧ .

٣- المقريزى ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، جـ٢ ، تحقيق محمد حلمى ، ط. القاهرة ١٩٧٣م، ص٣٢٣ .

Margoliouth, "The Assassins", in E.R.E., vol. I, p. 139.

٤- السجلات المستنصرية ، تحقيق عبد المنعم ماجد، ط. القاهرة ١٩٥٤م، سجل رقم (٣٥) ، ص١٠٩- ص١١٨ ، ابن ظافر الأزدى ، أخبار الدول المنقطعة، تحقيق أندريه فرييه، ط. القاهرة ١٩٧٢م، ص٨٣-٨٤ .

٥- السجلات المستنصرية ، سجل رقم (٣٥) ، ص١١١ .

٦- العظيمى، تاريخ العظيمى، نشر كلود كاهن، الجريدة الآسيوية عام ١٩٣٨م، J.A., Année 1938، ص٣٧٠، ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، جـ٢ ، ص٤٥٠، منى رضوان ، الأسرة

الجمالية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٨٢م، ص٣٤-٣٥ .

٧- وقعت قلعة ألموت فى إقليم آذربيجان جنوب بحر قزوين ، وشيدت على شعب ضيقة ، فوق قمة صخرية عالية في قلب جبال البرز، وتحكمت في واد ضيق يبلغ امتداده نحو ثلاثين ميلاً، وعرضه فى أعرض تقاطعه نحو ثلاثة أميال، وتقع على ارتفاع ستمائة قدم فوق سطح البحر ، وكان من الممكن الوصول إليها عن طريق ممر ضيق منحدر حلزوني، عنها أنظر:

القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد ، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص٣٠١ .

Malheson, Persia An Archaeological Guide, London 1972, p. 56 .

٨- عنه : ماركو بولو ، رحلات ماركوبولو ، ت. عبد العزيز توفيق جاويد، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص٦٤-٦٥ ، إدوارد براون ، تاريخ الأدب فى إيران، ت. الشواربى، ط. القاهرة ١٩٥٤م، ص٢٥٢ ، على أدهم ، الجمعيات السرية، ط. القاهرة، ص٢٧ .

٩- عنهم : على أدهم، المرجع السابق، ص٢٧ .

١٠- نفسه، نفس المرجع والصفحة.

١١- نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

١٢- طه شرف ، المرجع السابق ، ص٨٧ .

١٣- Margoliouth, The Assassins, p. 140.

أيضًا : Stanklas, Un Grand Maitre des Assassins au Temps de Saladin, Paris 1877 .

Lockhart, " Hassan Al- Sabala and The Assassins", B.S.O.A.S., London 1929 .

١٤- طه شرف، المرجع السابق، ص٨٠ .

١٥- عن ذلك بالتفصيل انظر:

Lewis, " The Ismailites and the Assassins", in Setton , A History of the Crusades, vol . I, Pennsylvania 1955, p. 110-111 .

عبد النعيم حسنين، سلاجقة إيران والعراق، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص١٠٠، دولة السلاجقة، ط. القاهرة ١٩٧٥م، ص٨٨ .

١٦- الحسينى ، أخبار الدولة السلجوقية ، تصحيح إقبال ، ط. لاهور ١٩٢٣م، ص٦٦، ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أميدروز ، ص١٢١ ، ابن العديم، ترجمة نظام الملك من بغية الطلب، نشر سوفاجيه Sauvaget ، مجلة الدراسات الإسلامية مجلد عام ١٩٣٣م، R.E.I, Année 1933, pp. 230-248 .

١٧- ابن القلانسى ، المصدر السابق، ص١٤٢، ابن العديم، بغية الطلب فى تاريخ حلب ، القسم الخاص بتراجم السلاجقة ، تحقيق على سويم، ص١٢٢-١٢٣ ، سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، جـ/٨ ق١ ، ج١ . حيدر آباد الدكن ١٩٥٠م، ص١٣ .

Gibb, The Damascus Chronicle of the Crusades, London 1932 , p. 57 .

Lewis, Op. cit , p. 111, Margoliouth, Op. cit., p. 140 .

١٨- زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، جـ٢ ، ص١٥١-١٥٢ .

Cahen, " The Turkish invasion", in Setton, A History of the Crusades, vol . I, pennsylvania 1955, p. 165 .

السيد العزاوى، فرقة النزارية، تعاليمها ورجالها على ضوء المراجع الفارسية ، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص١٠٧ .

١٩- عنه أنظر : ابن القلانسى ، المصدر السابق، ص١٨٧ .

Fink, :" Maudud of Mosul Precursor of Saladin", M.W., T. XL III, 1953, pp. 18-37 .

٢٠- ابن العديم ، بغية الطلب- تراجم السلاجقة، ص١٦١ .

٢١- ابن القلانسى، المصدر السابق، ص٢١٤، ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢، ص٢٣٢، ابن الأثير، الباهر ص١٥، حامد غنيم، الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٧٢م، ص١٧، سعيد الديوجى، الموصل فى العهد الأتابكى، ط. بغداد ١٩٥٨م، ص١٩ .

Cahen, la Syrie du nord a' L'epoque de Croisades , Paris 1940, p. 304 .

Stevenson, The Crusaders in the east , Beirut 1963, p. 118 .

٢٢- ابن القلانسى ، المصدر السابق، ص٢٣٠، ابن الأثير، الكامل، جـ١٠ ، ص٢٥٥، ابن قاضى شهبة، الكواكب الدرية فى السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، ط. بيروت ١٩٧١م، ص٧٨ .

٢٣- أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، جـ٣، ط. استانبول ١٢٨٦هـ، ص٩ .

٢٤- ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢، ص٢٩٨-٢٩٩ .

٢٥- ابن القلانسى، المصدر السابق، ص١٨٩-١٩٠، ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص١٦٨ ، سبط بن الجوزى ، المصدر السابق، جـ٨ / ق١ ص٤٨، زكى نقاش، الحشاشون وأثرهم فى المجتمع، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة القاهرة ١٩٥٢م، ص١٢٣ ، أحمد رمضان، المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص٧١ .

٢٦- ابن القلانسى ، المصدر السابق، ص٢٢٣ .

العماد الأصفهاني ، البستان الجامع لجميع تواريخ الزمان، نشر كلودكاهن مجلة الدراسات الشرقية، العددان (٧) ، (٨) ، عام ١٩٣٧-١٩٣٨م، ص١٢١ .

B. E.O., VII- VIII, Année 1937-1938 .

٢٧- ابن جبير ، الرحلة ، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص٢٥٢ .

٢٨- نفسه، ص٢٢٤-٢٢٥ .

٢٩- ذكر ذلك حسين نصار عند تحقيقه لرحلة ابن جبير أنظر ، ص٢٦٩، حاشية (١)، وشاركة نفس الاتجاه نقولا زيادة ، حيث اعتبرها من كبريات الطرق الصوفية الشامية، أنظر:

نقولا زيادة ، دمشق في عصر المماليك، ط. بيروت ١٩٦٦م، ص١٢٨ ويلاحظ أن المحقق الراحل سامى الدهان قرأ اسم النبوية على أنه البنوية انظر ، زبدة الحلب، جـ٣ ، ص٣٢ .

ويلاحظ أن المستشرق الكسندر خاتشاتريان ، لم يتمكن من التوصل إلى ماهية النبوية وهلى هى طائفة صوفية أم جماعة من الفتيان ، انظر : أهل الفتوة والفتيان فى المجتمع الإسلامى، ط. بيروت ١٩٩٨م، ص٩٢-٩٣ .

٣٠- عن مصادر ترجمة الشيخ أبى البيان الزاهد القرشى صاحب الطريقة البيانية أنظر:

ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٥ ، ط. القاهرة ، ص٣٢٤ ، المنهل الصافى المستوفى بعد الوافى، جـ١ ، تحقيق نجاتى، ط. القاهرة ١٩٦٥م، ص٤٨ ، حاشية (٣) .، النعيمى ، الدارس فى تاريخ المدارس، جـ٢ ، تحقيق جعفر الحسنى، ط. دمشق ١٩٤٨م، ص١٩٢ ، العدوى ، الزيارات، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط. دمشق ١٩٥٦م، ص٥٣-٥٤ ، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، جـ٤ ، ط. القاهرة ١٣٥١هـ. ص١٦٠ .

٣١- عن ذلك انظر:

ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠، ص٤٤٠ ، ابن القوطى، تلخيص مجمع الآداب فى معجم الألقاب، تحقيق مصطفى جواد، جـ٤ / ق١ ، ط١ . بغداد ١٩١٢م، ص١٤٨ ، ابن الساعى، الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير، جـ٩ ، ط. بغداد ١٩٣٤م، ص٢٥١- ٢٥٢ ، ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك ، م٥ / ج١، تحقيق الشماع ، ص١١٢، أحمد أمين، الصعلكة والفتوة فى الإسلام، ط. القاهرة ١٩٥٣م، ص٦٦، عمر الدسوقى، الفتوة عند العرب، ط. القاهرة ب-ت، ص٢٣٢ ، واصف بطرس غالى، تقاليد الفروسية عند العرب ، ت. أنور لوقا، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص٣١، جيرارد زلنجر ، «الفتوة هل هى الفروسية الشرقية»، ضمن كتاب دراسات إسلامية، ت. مجموعة من الباحثين باشراف نقولا زيادة ، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص٢٢١، محسن صالح محيى الدين ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى الشرق فى عهد الناصر لدين الله العباسى، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٤م، ص٦٧-٦٨ .

٣٢- ابن البقال (ت ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م) المقترح فى المصطلح فى تعليم رمى البندق والصيد ، ألفه للخليفة العباسى الناصر لدين الله، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٣٥٠٦ ج.

٣٣- ابن عمار الحنبلى (ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٤م) الفتوة ، تحقيق مصطفى جواد والنجار والهلالى والعيسى، ط. بغداد ، ١٩٥٨م.

٣٤- نفسه، نفس المصدر، ص٥٠ .

٣٥- عمر رضا كحالة، دراسات اجتماعية فى العصور الإسلامية، ط. دمشق ١٩٧٣م، ص٢٨ .

٣٦- ابن جبير، الرحلة ، ص٢٥٢ ، ابن عمار، المصدر السابق ، ص٥٠ .

٣٧- Demombynes, Muslim Institutions, Trans. by Meeheneyor, London 1954 , p. 41 .

٣٨- فرانزتيشنر ، «الفتوة والخليفة الناصر»، ضمن كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين، ت. صلاح الدين المنجد، ط. القاهرة ١٩٥٥م، ص١٩٠ .

٣٩- Lewis, The Assassins, A Radical Sect in Islam, London , p. 114 .

٤٠- عن موقع الباب انظر:

ياقوت ، معجم البلدان، جـ١ ، ط. بيروت ١٩٥٥م، ص٣٠٣ ، أبو الفداء، تقويم البلدان ، ص٢٢٦ ، شيخ الربوة ، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، تحقيق مهرن، ط. بطرسبرج ١٨٣٥م، ص٢٠٥ ، ابن الشحنة، الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب، تحقيق سركيس، ط. بيروت ١٩١٩م، ص١٧٢ .

أما عن وادى بطنان الذى وقعت فيه الباب أنظر:

القزوينى ، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، تحقيق فاروق سعد ، ط. بيروت ١٩٧٣م، ص٢٢١؛ شيخ الربوة ، المصدر السابق، ص٢٠٥ .

٤١- عن الأهمية التجارية لمدينة حلب انظر:

ياقوت ، المصدر السابق، ج٧، ص٢٨٥ ، شيخ الربوة ، المصدر السابق، ص٢٠٢ ، هايد، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ص١٨٠ .

Elisseeff, Nur Al- Din un Prince Musulman au Temps des Croisades, T. III, Damas 1967 , T. III, pp. 859-862.

٤٢- عن الطرق التجارية الدولية المارة بشمال العراق وشمال الشام أنظر: طريق الشرق الأقصى- الخليج العربى- الشام، انظر عنه، ماركوبولو، رحلات ماركوبولو ، ص٣٨ ، نعيم زكى فهمى، طرق التجارة الدولية ومحطاتها أواخر العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٧٣م، ص١١٧-١١٨ ، هايد ، المرجع

السابق، ص٤٧-٥٩ ، عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. دمشق ١٩٨٠م، ص١٧٦، حاشية (٥٤) ، أحمد رمضان ، شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص١٩٠ .

٤٣- تقويم البلدان، ص٢٧١ .

٤٤- عن طريق الحرير أنظر:

على أبوعساف ، «طريق الحرير والطرق التجارية الأقدم» ، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، السنة (١٢) ، العددان (٣٩)، (٤٠) ، كانون الأول ١٩٩١م، ص٧٢-٨٢ ، عبد الرحمن حميدة، «طريق الحرير بين ابن بطوطه وماركوبولو» العدد المذكور ، ص٩٦-١١٨ ، نعمان محمود جبران، «محاولات المغول السيطرة على طريق الحرير- أسباب ونتائج»، العدد المذكور ، ص١٣٨-١٥٥ .

٤٥- الرحلة، ص٢٢٤ .

٤٦- نفس المصدر، ص٢٢٣ .

٤٧- نفس المصدر، ص٢٢٤ .

٤٨- نفس المصدر ، والصفحة.

٤٩- زبدة الحلب، جـ٣، ص٣١ .

٥٠- نفس المصدر ، جـ٣، ص٣٢ .

٥١- نفس المصدر والصفحة.

٥٢- برنارد لويس، المرجع السابق، ص١٣٣ .

٥٣- بسام إسخيطه ، «الفروسية سلاح الردع فى الحروب القديمة»، الحرس الوطنى، عدد يناير ١٩٨٩م، ص٦٩ .

٥٤- الرحلة ، ص٢٢٤ .

٥٥- نفس المصدر، ص٢٢٤-٢٢٥ .

٥٦- نفس المصدر، ص٢٢٥ .

٥٧- ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص٥٣٤ ، ابن قاضى شهبة، المصدر السابق، ص٩٥ .

٥٨- سبط بن الجوزى ، المصدر السابق، ص١٣٠ .

الخاتمـــة

تمخضت الفصول السابقة عن عدد من النتائج المهمة التى من الممكن إيرادها بايجاز على النحو التالى :

أولاً: إن هناك إشكالية حقيقية فى دراسة تاريخ الحروب الصليبية تجلت من خلال طبيعة المصادر التاريخية التى وصلت إلينا من ذلك العصر، خاصة فى صورة ارتباطها الرسمى، وارتباط المؤرخين المعاصرين بزاوية الكاريزما أو المحبوبية والجاذبية الخاصة لدى قيادات بعينها دون غيرها، كذلك هناك تغييب دور البعد الشعبى، وكذلك فعاليات المرأة ولاريب فى أن ذلك القصور فى المادة التاريخية التى وصلت إلينا من مؤرخى تلك الحقبة قد أثرت بدورها فى تصوراتنا الحالية لأحداث ذلك العصر. ومما زاد من أبعاد مشكلات دراسة عصر الحروب الصليبية؛ أن الجوانب السابقة يمكن إدراكها من خلال قراءة متأنية لمصادر كل من الفريقين المتصارعين سواءً المسلمين أو الصليبيين ، وليس الأمر بقاصر على مصادر فريق دون الآخر، وقد جاء ذلك كله وسط تزايد الاهتمام من جانب مؤرخى ذلك العصر بالأحداث السياسية، والحربية فى المقام الأول ؛ بحكم طبيعة الصراع بين الشرق والغرب حينذاك.

ثانيًا : من الملفت للانتباه ؛ أن وحدة الشام ومصر فى صورة ما أطلق عليه «الشام ومصر» وقفت سداً منيعًا أمام مطامع الصليبيين؛ فقد تعامل قادة الجهاد الإسلامى خاصة منذ عهد مهندس الحركة نور الدين محمود مع قضايا بلاد الشام ، ومصر كوحدة واحدة، وهكذا مثلت الدماء المصرية قوة فعالة فى جسد حركة الجهاد بالتعاون مع الشقيقة الجغرافية والتاريخية الأبدية بلاد الشام ، ومن الأمور الجديرة بالملاحظة ؛ أنه يندر وجود حدث تاريخى أو شأن على مدى تاريخ الصراع الإسلامى الصليبى وقع فى مصر دون أن يكون له آثاره فى بلاد الشام والعكس صحيح، مما كشف عن التلازم والتوأمة التاريخية بين الإقليمين، فاذا أضفنا إلى ذلك ما اتصفت به تلك المنطقة من ناحية الاحتواء والفلترة، والامتصاص واللفظ حيال أعدائها أدركنا أن الخواص الجغرافية ، والتاريخية لها احتوت الهجمة الصليبية بكافة أهدافها لتلفظها فى النهاية لتعود من حيث أتت، وهكذا يحق للمرء أن يقول أنه لكى نفهم طبيعة الاستجابة الإسلامية للتحدى الصليبى، علينا إدراك الخصوصية الجغرافية، والتاريخية للشام، ومصر التى وقفت بشعوبها فى وجه ذلك التحدى، مع عدم إغفال الارتباط الوثيق بين شمال الشام ، وشمال العراق بطبيعة الحال.

ثالثًا : وجدت عوامل داخلية وخارجية أدت إلى فشل المشروع الصليبى، ومن أمثلة العوامل الداخلية : تعصب المشروع الصليبى وعنصريته ضد كل ما هو غير مسيحى كاثوليكى، وعدم تجانس البنية السكانية الصليبية وكذلك الاعتماد على الغرب الأوربى ، والعجز عن الخروج بعيداً عن النطاق الآسيوى ، ومساوئ فرق الرهبان الفرسان خاصة الاسبتارية والداوية ، وتصارعهم من أجل المال والسلطة، أى من أجل الدنيا على الرغم من أنهم فى الأساس من الرهبان !!!، ولانغفل أن هناك عدداً من المشكلات الإدارية والمالية التى واجهت الصليبيين ولم يستطيعوا لها دفعًا ، ثم إخفاق مشروعهم لتنصير المنطقة، وبالتالى عجز البابوية عن مواجهة الإسلام فى عقر داره ، ناهيك عن الفجوة التى وجدت لدى الصليبيين بين جيل التشييد والبناء الذى قدم من الغرب الأوربى فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى، والأجيال الصليبية التى تمشرقت ، وضعفت لديها الرغبة فى القتال خاصة عناصر البولانى أو الأفراخ الذين نتجوا عن التزاوج بين الصليبيين والمسيحيين الشرقيين.

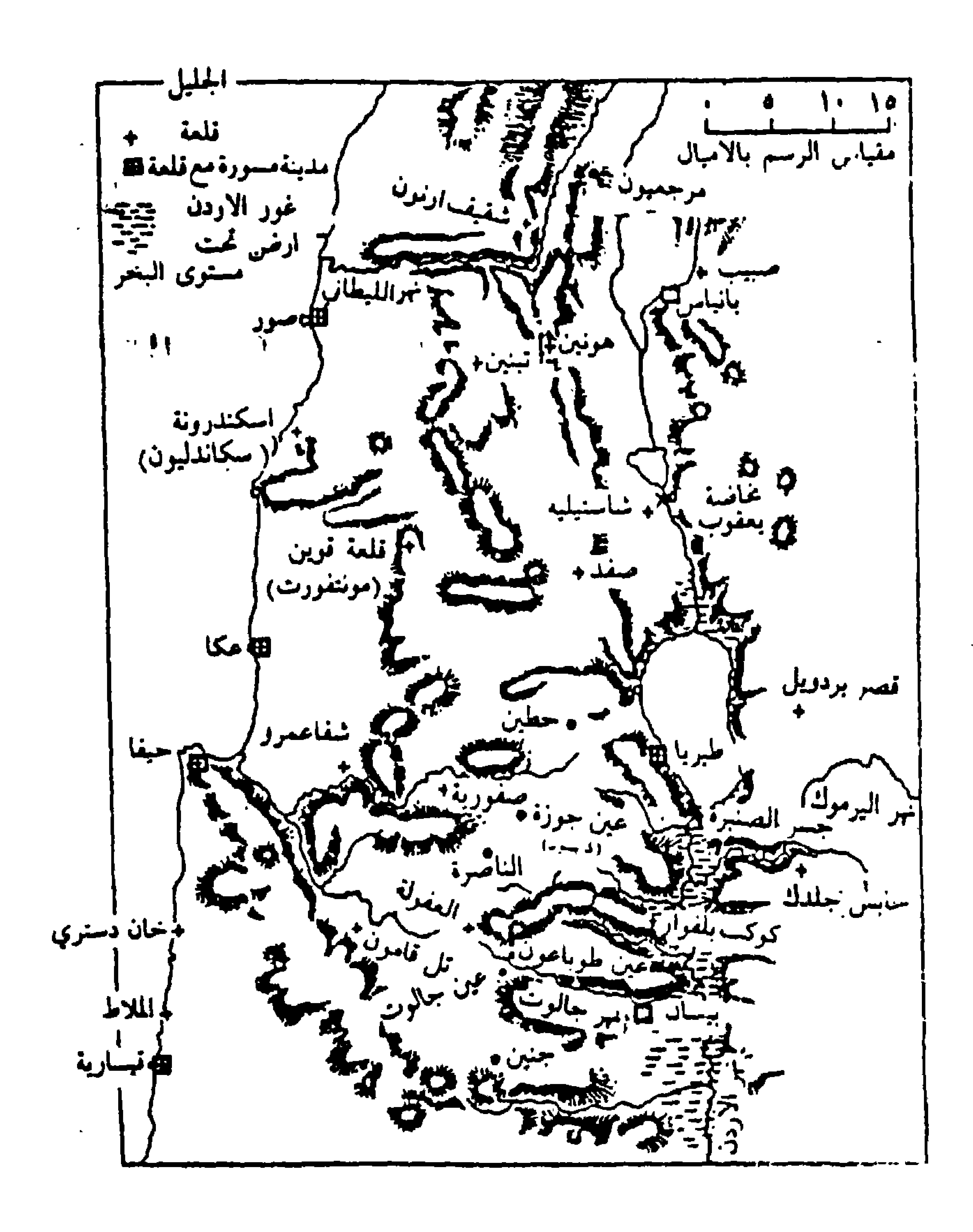
أما العوامل الخارجية : فهى تعنى فعاليات حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين على مدى تاريخ وجودهم فى المنطقة، وهى التى نجحت فى إسقاط الإمارات الصليبية ، وكذلك المملكة ذاتها، وحقيقة أن فعاليات العوامل الخارجية لها شأنها الكبير ولاتقل عن تأثير عوامل الداخل : إذ أن تفاعلها معًا أدى فى الختام إلى إفشال المشروع الصليبى برمته، ويلاحظ هنا أن من بين فعاليات العوامل الداخلية ، دور المسلمين الخاضعين للاحتلال الصليبى والذين وقفوا قدر جهدهم ضده ووفق ما سمحت به الظروف التاريخية ذاتها التى أحاطت بالصليبيين، ويلاحظ أن الأخيرين عجزوا عن إيجاد حل حقيقى يمكنهم من احتواء ذلك القطاع الذى وصف بالكثافة السكانية النسبية وتركز فى المناطق الريفية على نحو خاص ، مع عدم إغفال أن أمر إفشال المشروع الصليبى احتاج أمداً طويلاً؛ من أجل نجاح تفاعل العوامل السابقة معًا ضد ذلك المشروع الدخيل الذى كان ضد منطق الجغرافيا والتاريخ .

رابعًا : شكلت الأنهار والبحيرات الشامية العذبة هدفًا استراتيجيًا للقوى الصليبية الغازية من أجل ضمان عنصر البقاء والاستقرار فى المنطقة على حساب سكانها الأصليين فلاعجب إذا ما أخضعوا المناطق الثلاثة الذهبية فى صورة الأنهار اللبنانية، ومرتفعات الجولان، والضفة الغربية لنهر الأردن واستماتوا فى الدفاع عنها فى مواجهة القوى الإسلامية المعادية لهم، ومن

المهم ملاحظة أن نجاح أحد طرفى الصراع فى تحقيق أهدافه الاستراتيجية العليا ارتبط ارتباطًا وثيقًا بحرمان الطرف الآخر من مصادر المياه التى هى أساس الوجود والبقاء فى المنطقة، وهكذا ندرك بجلاء أن عنصر المياه والأمن المائى كان متواجداً بقوة فى دائرة الصراع الصليبى- الإسلامى.

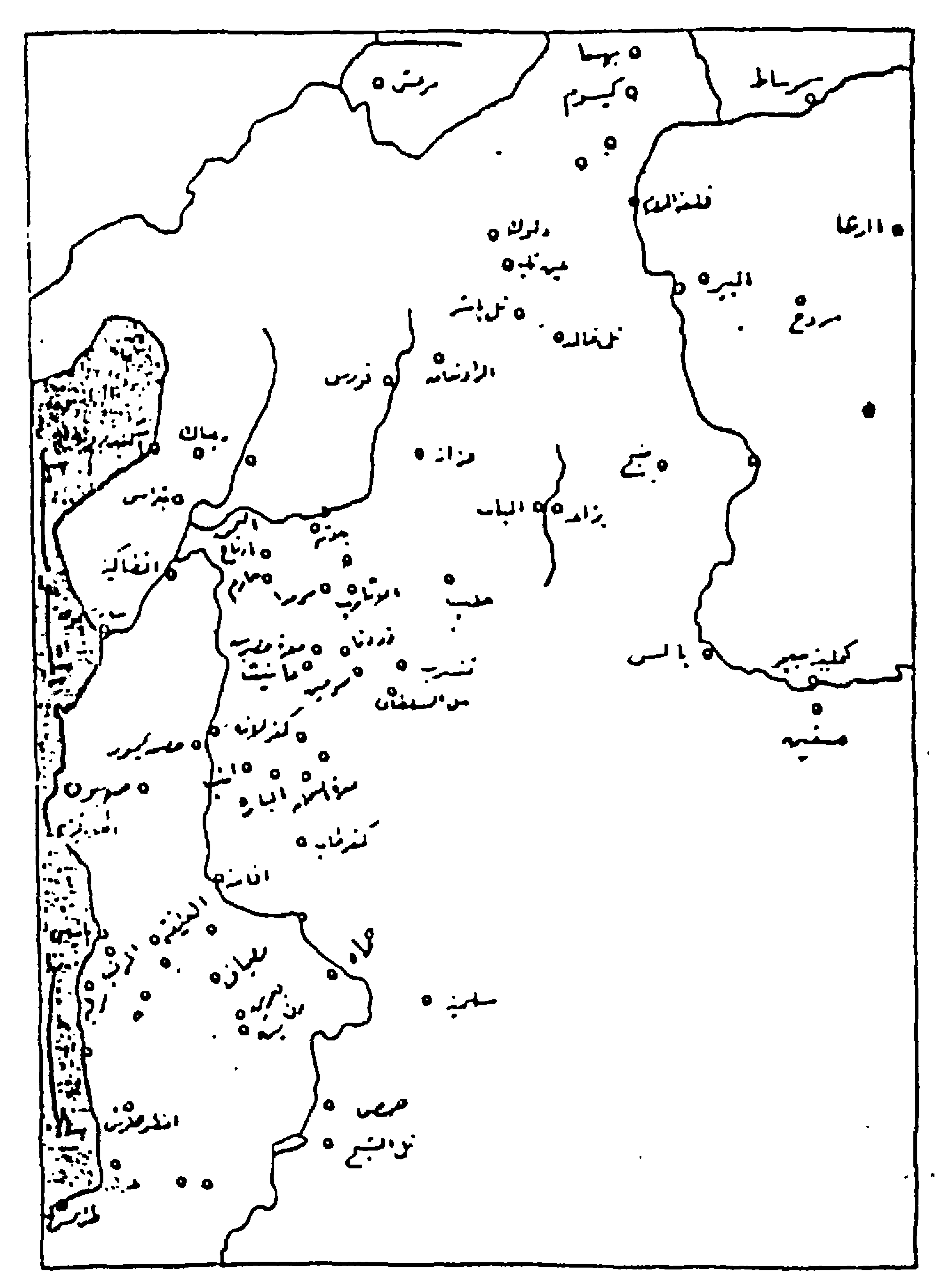
خامسًا : حاولت البابوية جاهدة جعل النطاق الجغرافى الذى وصلت إليه جيوش الصليبيين؛ مجالاً لتصدير المسيحية الكاثوليكية خارج النطاق الأوربى ، غير أن ذلك الهدف باء بالخسران المبين ، وتمسك أبناء المنطقة بدينهم - باستثناء حالات فردية وجماعية محدودة- كهوية دينية. بل حدث ما لم يتوقعه مهندسو المشروع الصليبى فى صورة اعتناق عناصر من الصليبيين للإسلام بلغوا أحيانًا عدة آلاف بصورة تدل بجلاء على أن الإسلام كدين كانت له جاذبيته حتى بالنسبة لأعدائه وهو أمر تكرر أيضًا بالنسبة للمغول فيما بعد ؛ على نحو عكس قدرة ذلك الدين السماوى على مخاطبة كافة الأقوام، والأعراق فى كل زمان ومكان حتى أعدائه .

سادسًا : اتضح من خلال الدراسة أن «النبوية» كعناصر فروسية إسلامية سنية لعبت دوراً مهمًا فى مواجهة العناصر الشيعية فى شمال الشام عصر الحروب الصليبية. على نحو أشار إليه الرحالة الأندلسى الفذ ابن جبير مما أفاد فى إلقاء الضوء على حقيقة محورية تتمثل فى وجود مواجهتين فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية؛ مواجهة سنية- شيعية ، ثم مواجهة سنية - صليبية، ويلاحظ أن المواجهتين كانتا قسمًا من عصر تاريخى له خصائصه المميزة فى صورة عصر المواجهة بين عالمى المسيحية والإسلام وليس فى الامكان فهم احدى المواجهتين بمعزل عن الأخرى.

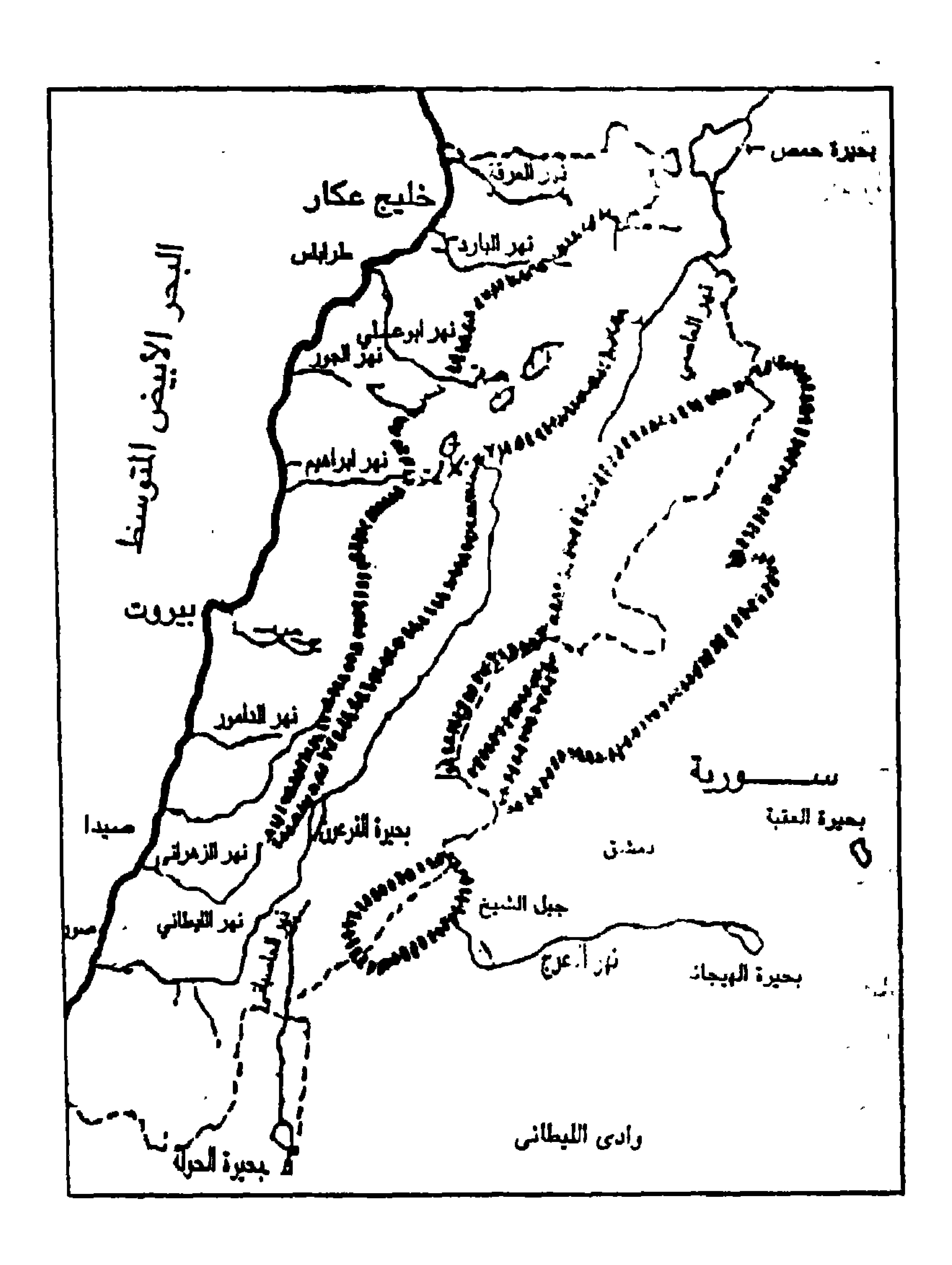


القلاع الصليبية والأنهار فى شمالى فلسطين

نقلاً عن سميل، الحروب الصليبية . تَ. سامى هاشم . ط. بيروت ١٩٨٢م

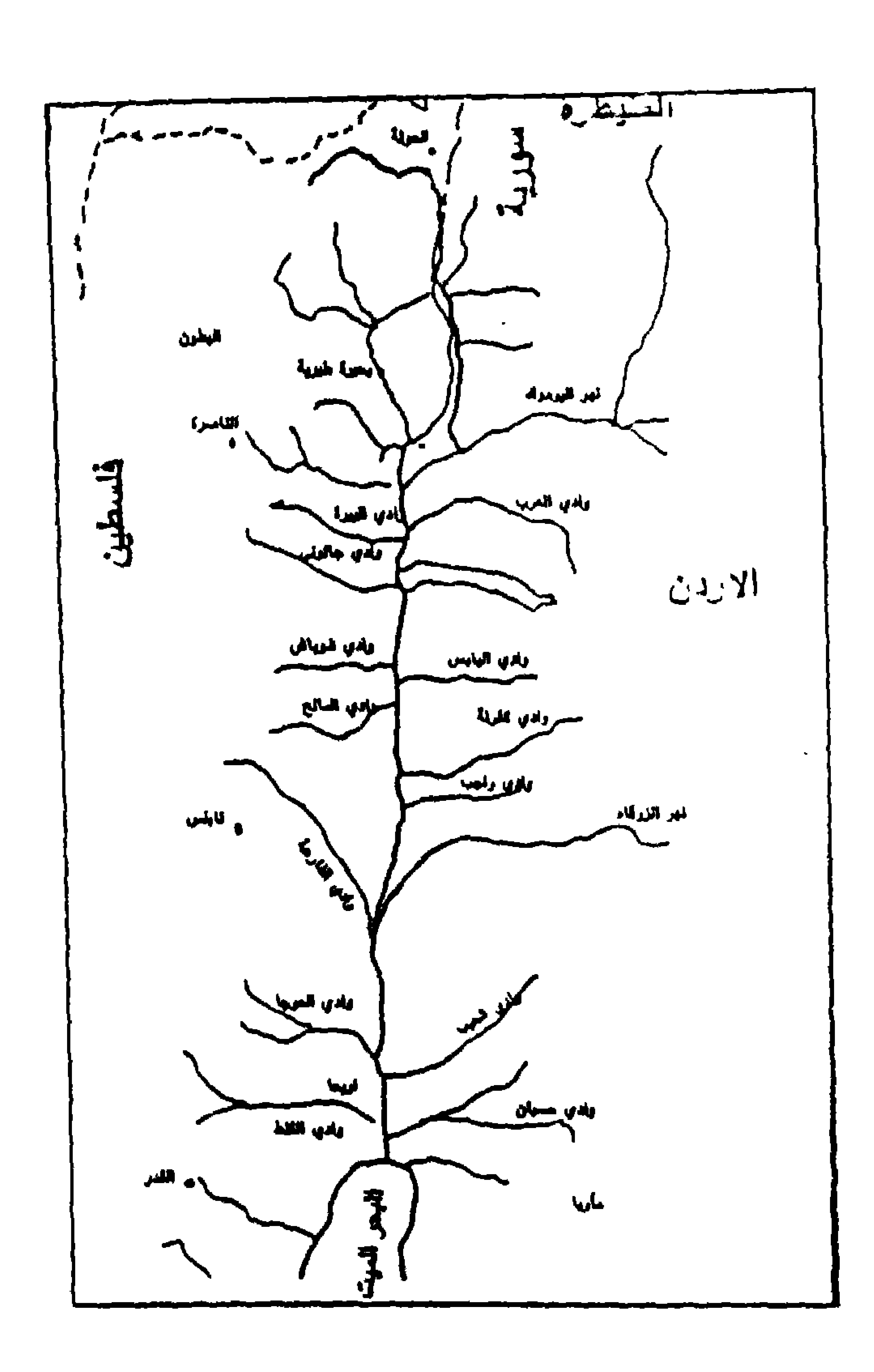


شمال الشام نقلاً عن العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية.



أنهار لبنان نقلاً عن :

سامر مخيمر وخالد حجازى ، أزمة المياه فى المنطقة العربية، ط. الكويت ١٩٩٦م



نهر الأردن وروافده نقلاً عن :

سامر مخيمر وخالد حجازى، أزمة المياه فى المنطقة العربية

قائمة المختصرات

List of Abbreviations

- A. H.R. : American Historical Review.
- A. H. d. L. M.A.: Arshives d' Histoire doctrinale et literaire du Moyen Ages.
- A. O. L . : Arshives de L'Orient latin.

A.P.S. : American Philosophical Society.

- B. I. A. C.C. : Bulletin of the Israeli Academic Center in Cairo.
- D. O. P. : Damberton Oaks Papers.
- E. H. S. : Egyptian Historical Society .
- E . R. E. : Encyclopedia of Religions and Ethics.
- J. A. : Journal Asiatique.

J. R. A. S. Journal of Royal Asiatic Society .

- M.W.: Muslim World .
- P.P.T.S. : Palestine pilgrims Text Society .
- R. E. A. : Revue d'Etudes Arabes.
- P. E. I.: Revue des Etudes Islamiques .
- R. O. L.: Revue de L'Orient Latin.
- R.H.C.: Recueil des Historiens des croisades.
- R.O.L.: Revue de l'Orient Latin .

S. : Speculum .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية والمعربة المخطوطة والمطبوعة

ابن أبى أصيبعه (أحمد بن القاسم الخزرجي ت ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا ط. بيروت ١٩٦٥م.

ابن أبى دينار (محمد بن أبى القاسم) المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ط. بيروت ١٩٩٣م.

ابن الأثير (عز الدين محمد ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية بالموصل ، تحقيق عبد القادر طليمات ط. القاهرة ١٩٦٣م .

الكامل فى التاريخ ، ط. بيروت ١٩٧٩م ، ط. بيروت ب-ت ، ط. القاهرة ١٢٩٠هـ .

ابن أيبك الدواداري (أبوبكر بن عبدالله ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية ، تحقيق أولرخ هارمان ، ط. القاهرة ١٩٧١م.

ابن البقال (ت ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م) المقترح فى المصطلح فى تعليم رمى البندق والصيد ألفه للخليفة العباسى الناصر لدين الله ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٥٠٦٣ج.

ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف ت ٨٧١هـ/ ١٤٦٩م) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ط. القاهرة .

المنهل الصافى المستوفى بعد الوافى ، تحقيق نجاتى ، ط. القاهرة ١٩٥٦م.

ابن تيمية (تقى الدين أحمد ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م) الجواب الصحيح فيمن بدل دين المسيح، ط. القاهرة ب-ت .

ابن جبير (محمد بن أحمد الكنانى ت حوالى ٦١٤هـ / ١٢١٧م) الرحلة ، تحقيق حسين نصار، ط. القاهرة ، ط. بيروت ١٩٦٤م، ١٩٨٠م ، ١٩٨٤م .

ابن حزم (أبو محمد على ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ط. القاهرة ب-ت .

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ط. القاهرة ١٩٤٨م.

ابن الساعى (تاج الدين أبوطالب ت ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م) الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير ج٩، ط. بغداد ١٩٣٤م.

ابن الشحنة (أبو الفضل محمد ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م) الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب، تحقيق سركيس ط. بيروت ١٩١٩م.

ابن شداد (القاضى بهاء الدين ت ٦٣٢هـ/ ١٢٢٤م) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ط. تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٦٤ م.

ابن شداد (عز الدين أبوعبدالله ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق سامى الدهان ، ط. دمشق ١٩٥٤م.

ابن الصابونى (أبوحامد محمد ت ٦٨٠هـ / ١٢٨١م) تكملة إكمال الإكمال، تحقيق مصطفى جواد ، ط. بغداد ١٩٥٧م.

ابن ظافر الأزدى (جمال الدين أبو الحسن ت ٦١٢هـ / ١٢١٦م) أخبار الدول المنقطعة تحقيق أندريه فريبه المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، ط. القاهرة ١٩٧٢م.

ابن عبد الظاهر (محى الدين ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٣م) تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور تحقيق مراد كامل ، ط. القاهرة ١٩٦١م.

الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط. الرياض ١٩٧٦م .

ابن العبرى (غريغوريوس الملطى ت ٦٧١هـ / ١٢٨٦م) تاريخ مختصر الدول ، ط. بيروت ١٩٩٢م. .

ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) زبدة الحلب من تاريخ الحلب ٣ أجزاء ، تحقيق سامى الدهان ، ط. دمشق ١٩٥٤-١٩٦٨م.

بغية الطلب فى تاريخ حلب ، نشر سوفاجيه فى مجلة الدراسات الإسلامية عام ١٩٣٣م.

Extrait de Buyyat Al- Talab d'Ubn Al Adim , R.E.I, Année 1933 .

وهناك قسم نشره برنارد لويس فى صورة ثلاثة تراجم من ابن العديم ضمن الكتاب التذكارى عن فؤاد كوبرولو الصادر فى استانبول عام ١٩٥٣م .

Three Biographies From Kamal Al- Din, Melanges Fuad Koprülü, Istanbul 1953 .

القسم الخاص بالأمراء السلاجقة ، تحقيق على سويم ، ط. أنقرة ١٩٧٦م .

ابن عمار الحنبلى (ت ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م) الفتوة، تحقيق مصطفى جواد والنجار والهلالى والعيسى ط. بغداد ١٩٥٨م.

ابن عنين (أبو المحاسن محمد ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) ديوان ابن عنين ، باعتناء خليل مردم، ط. بيروت ١٩٤٦م.

ابن الفرات (ناصر الدين محمد ت٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) تاريخ الدول والملوك، م٥ / جـ١ . تحقيق الشماع . والقسم الذى نشره مالكوم ليونز ، جـ١ ، ط. كمبردج ١٩٧١م تحت عنوان: Ayyubides, Mamlukes and Crusaders, Cambridge 1971 .

ابن قاضى شهبه (تقى الدين أحمد ت ٨٥١هـ / ١٤٤٨م) الكواكب الدرية فى السيرة النورية تحقيق محمود زايد، ط. بيروت ١٩٧١م.

ابن القلانسى (أبويعلى حمزه ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أميدروز، ط. بيروت ١٩٠٨م ، تحقيق سهيل زكار ط. دمشق ١٩٨٣م.

ابن القوطى (كمال الدين أبو الفضل ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م) تلخيص مجمع الآداب فى معجم الألقاب تحقيق مصطفى جواد جـ٤ / ق١ ط. بغداد ١٩٦٢م.

ابن القيم الجوزية (أبوعبدالله محمدت ٧٥٢هـ / ١٣٥١م) هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى، ط. القاهرة ب-ت .

ابن كثير (الحافظ عماد الدين اسماعيل ت ٧٤٤هـ / ١٣٧٣م) البداية والنهاية ، ط. القاهرة ب-ت .

ابن لقلق (كيرلس الثالث ت ٦٤٢هـ / ١٢٤٣م) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية (٤) ، ج١ ، نشر انطون خاطر وازولد بورمستر ، ط. القاهرة ١٩٧٤م.

ابن ميسر (تاج الدين محمد ت ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م) تاريخ مصر تحقيق هنرى ماسيه، ط. القاهرة ١٩١٩م.

ابن نظيف الحموى (أبو الفضائل محمد ت ق٧هـ / ١٣م) التاريخ المنصورى تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان، تحقيق أبوالعيد دودو ، ط. دمشق

١٩٨٢م.

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩١هـ / ١٢٩١م) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ج١ ، ج٢ ، تحقيق جمال الدين الشيال ط. القاهرة ١٩٥٣م ، ج٤ تحقيق حسنين ربيع ، ط. بيروت ب-ت .

أبو البقاء الجعفرى (صالح بن الحسين القرن ٧هـ / ١٣م) الرد على النصارى ، تحقيق محمد محمد حسانين ، ط. القاهرة ١٩٨٨م.

أبوشامه المقدسى (شهاب الدين أبومحمد ت ٦٥٥هـ ١٢٦٧م) .

الذيل على الروضتين، ط. القاهرة ١٣٦٦هـ ، ط. بيروت ١٩٧٤م.

أبوعبيده الخزرجى (ت ٥٨٢هـ / ١١٨٦م) بين الإسلام والمسيحية ، تحقيق محمد شامه ، ط. القاهرة ١٩٧٩م.

أبو الفداء (إسماعيل بن على ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) تقويم البلدان ، تحقيق رينو ودى سلان ط. باريس ١٨٤٠م.

المختصر فى أخبار البشر ، ط. استانبول ١٤٨٦هـ .

أبو الوليد الباجى (ق ٥ هـ/ ١١م) رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضى أبو الوليد الباجى عليها دراسة وتحقيق محمد عبدالله الشرقاوى، ط. القاهرة ١٩٨٦م.

الإدريسى (الشريف الإدريسى ت ق ٦هـ / ١٢م) .

نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . تحقيق ديلاڤيلا وجابريلى وآخرين، ط. نابولى ١٩٦٥ - ١٩٧٧م، ط. بيروت ١٩٨٩م.

أسامة بن منقذ(مؤيد الدولة ت ٥٨٤هـ / ١١٨٥م) ، الاعتبار تحقيق فيليب حتى، ط. برنستون ١٩٣٠م ، تحقيق قاسم السامرائى، ط. الرياض ١٩٨٧م.

إسحاق بن الحسين (ق ٤هـ / ١٠م) آكام المرجان فى ذكر المدائن المشهورة فى كل مكان باعتناء فهمى سعد، ط. بيروت ١٩٨٨م.

بنيامين التطيلى (ابن يونه التطيلى النبارى ق ٦هـ / ١٢م) الرحلة ، ت . عزرا حداد ، ط. بغداد ١٩٤٥م.

البوصيرى (شرف الدين محمد ت حوالى ٦٩٦هـ / ١٢٩٦-١٢٩٧م) ديوانه تحقيق محمد

سيد كيلانى ط. القاهرة ١٩٥٥م.

بيبرس الدوادارى (ركن الدين ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة ، تحقيق زبيدة عطا ، رسالة دكتوراه كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٢م ، مختار الأخبار . تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى ٧٠٢هـ ، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان ، ط. القاهرة ١٩٩٣م.

الجاحظ (أبوعثمان عمر بن بحر ت ٢٥٥هـ / ٨٥٨م) الرد على النصارى ، تحقيق محمد عبد الشرقاوى ، ط. القاهرة ١٩٨٤م.

الجوينى (إمام الحرمين ت ٤٧٨هـ / ١٠٨١م) شفاء الغليل فى بيان ما وقع فى التوراة والإنجيل من التبديل ، تحقيق أحمد حجازى السقا ، ط. القاهرة ١٩٧٩م.

الحسينى (صدر الدين ت ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م) أخبار الدولة السلجوقية ، تصحيح إقبال ، ط. لاهور ١٩٢٣م.

الحنبلى (أحمد بن ابراهيم ت ٨٧٦هـ / ١٤٧١م) شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، تحقيق مديحة الشرقاوى، ط. القاهرة ١٩٩٦م.

الذهبى (الحافظ الذهبى ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م) دول الإسلام ، تحقيق شلتوت ومصطفى ابراهيم ، ط. القاهرة ١٩٧٤م.

الراوندى (أحمد بن على بن سليمان ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م) راحة الصدور وآية السرور، ت. الشواربى وحسين والصياد ، ط. القاهرة ١٩٦٠م.

رايموند اجيل (القرن ١٢ م / ٦هـ) تاريخ الفرنجة غزاة القدس ، ت. حسين عطية ، ط. الإسكندرية ١٩٩٠م.

سبط بن الجوزى (أبو المظفر يوسف ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان)، جـ١ / ق١ ، ط. حيدر آباد الدكن ١٩٥٠م.

السجلات المستنصرية : تحقيق عبد المنعم ماجد ، ط. القاهرة ١٩٥٤م.

السلمى (على بن طاهر ت ٤٩٩هـ / ١١٠٦م) رسالة الجهاد مقتطفات منها نشرها كلود كاهن ضمن كتابه الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ت أحمد الشيخ ، ط. القاهرة ١٩٩٥م.

شافع بن على (شافع على الكاتب ت ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م) الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور ، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى ، ط. صيدا ١٩٩٨م.

شيخ الربوة الدمشقى : (أبوطالب الأنصارى ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م) نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، تحقيق مهرن ، ط. بطرسبرج ١٨٣٥م .

العدوى (القاضى العدوى ت ١٠٣٢هـ / ١٦٢٢م) الزيارات ، تحقيق صلاح الدين المنجد ط. دمشق ١٩٥٦م.

العظيمى (محمد بن على ت ٥٥٦هـ / ١١٦١م) تاريخه تحقيق كلود كاهن الجريدة الآسيوية عدد عام ١٩٣٨م.

La Chronique A Breyé d'Al- Azimi , J.A., Juillat - Septembre 1938 .

وتحقيق على سويم – الجمعية التاريخية التركية ط. أنقرة ١٩٨٨م .

Azimi Tarihi Selcuklularia Ilgili Bolumler (H. 430-538= 1038/ 39 - 1143 - 144) Turk Tarih Kurumu Basimevi- Ankara 1988 .

العدوى ، بيان الأديان تحقيق يحيى الخشاب مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة م (١٣) ، ج١ عام ١٩٥٧م.

العماد الأصفهانى (الكاتب) (محمد بن محمد ت ٥٩٨هـ / ١٢٠١م) الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق محمد صبيح ، ط. القاهرة ١٩٦٥م ط. القاهرة ١٣٢١هـ ط. القاهرة ب–ت.

العماد الأصفهانى (القاضى) (القاضى عماد الدين ت بعد عام ٥٩٣هـ / ١١٩٦م) البستان الجامع لجميع تواريخ الزمان، تحقيق كلود كاهن، مجلة الدراسات الشرقية ، العددان (٧)، (٨) عام ١٩٣٧-١٩٣٨م.

B. E.O., T.VII- VIII, Année 1937-1938 .

الغزالى (أبوحامد ت ٥٠٥هـ / ١١١١م) الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل ، تحقيق محمد عبدالله الشرقاوى ط. الرياض ١٤٠٣هـ .

الفتح البندارى (الفتح بن على ت ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م) سنا البرق الشامى ، تحقيق فتحيه النبراوى ، ط. القاهرة ١٩٧٩م.

القرافى (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة ، ط. القاهرة ب-ت.

القرطبى (شمس الدين ت ٦٧١هـ / ١٢٧٢م) الإعلام ، تحقيق محمد حجازى السقا، ط. القاهرة ١٩٨٠م.

الكتاب المقدس ، ط. القاهرة ب-ت .

القزوينى (زكريا بن محمد ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) آثار البلاد وأخبار العباد، ط. بيروت ١٩٦٠م، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تحقيق فاروق سعد ط. بيروت ١٩٧٣م .

ماركو بولو (القرن ١٣م / ٧هـ) رحلات ماركوبولو ، سلسلة الينابيع ، ت. عبد العزيز توفيق جاويد ط. القاهرة ١٩٧٧م.

مجهول تتمة تاريخ وليم الصورى لمؤلف مجهول والمنسوب خطأ إلى روتلان ١٢٢٩-١٢٦١م ، ترجمة وتحليل وتعليق أسامة زكى زيد ، ط. الاسكندرية ١٩٨٩م.

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م) السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، ط. القاهرة ١٩٥٦م.

المقرى (أحمد بن محمد ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م) نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب ، ط. القاهرة ١٩٤٩م.

نصر بن يحيى الهندى (ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) النصيحة الإيمانية ، تحقيق أحمد حجازى السقا ، ط. القاهرة ١٩٨٦م.

النعيمى (محى الدين أبو المفاخر ت ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م) الدارس فى تاريخ المدارس ، تحقيق جعفر الحسنى ، ط. دمشق ١٩٤٨م.

ياقوت الحموى (شهاب الدين ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) معجم البلدان ، تحقيق وستنفيلد، ط. ليزج ١٨٨٩م ، ط. بيروت ب-ت ، ط. بيروت ١٩٥٥م.

ثانيًا : المصادر اللاتينية واليونانية والسريانية

- Albert d'Aix , in R.H.C., Hist. Occ. , T. IV , Paris 1879 .

- Anonymous Syriac Chronicle, Trans. by Tritton , J.R.A.S., 1933.

- Anonymous, The deeds of The Franks and other pilgrims to Jerusalem, Trans. by R. Hill, London 1962 .

- Baldric of Bourgueil , The Account of Baldric of Bourqueil , in louise and Jonathan Riley- Smith , The Crusades Idea and Reality (1095-1274) , London 1981 .

- Benjamin of Tudela, The Travels of Benjamin of Tudela , in Wright , Early Travels in Palestine, London 1848 .

- Chronicle of the Third Crusade Atranslation of the Itinerarium peregrinorum et Gesta Regis Ricardi , Trans. by Helen Nicholson , London 1997 .

- Daniel, Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in the Holy Land , trans. by Wilson , P.P.T.S., vol . IV , London 1895 .

- Ernoul, Chronique d' Ernoul et Bernard le Tresorier , ed. Mas latirie , paris 1971 .

- Euphrosine, Euphrosine pelerinage en palestine , trans. by De khetroux. R.O.L., T.III, Anée 1895 .

- Fetellus, Description of The Holy land , Trans. by J.R. Machpherson, P.P.T.S., vol . V, London 1897 .

- Fulcher of Chartres, A History of the Expedition to Jerusalem , Trans, by Rita Rian , Tennesse 1969 .

- Guilbert of Nogent , The Account of Guilbert of Nogent in louise and Jonathan Riley - Smith , The Crusades Idea and Reality 1095-1274, London 1981 .

- Jacques de Vitry, History of Jerusalem , trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., vol IX, London 1896 .

- Jean de Joinville, The Life of Saint Louis, in Chronicles of the Crusades, Trans. by Shaw , London 1976 .

- Joannes Phocas, ABrief Description of The Holy land, Trans. by Aubrey Stewart , P.P.T.S., vol V, London 1896 .

- John Poloner, Description of the Holy Land, trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., vol. VI , London 1898 .

- John of Wurzburg , Description of the Holy land , Trans . by Aubrey Stewart , P.P.T.S., vol . V, London 1897 .

- Nicetas Choniates, O'city of Byzantium , Annales of Nicetas Choniates, Trans. by Harry Magolias, Wayne State University, Detriot 1984 .

- Odo of Deul, De Profectione Ludovici VII in Orientem, ed. by Virginia Gingerick Berry , New York MCMXLVIII.

- Oliver of Padembom , The Capture of Damietta, Trans. by Cavigon , Philadelphia 1948 .

- Ordric Vitalis , The Ecclesiastical History of Ordric vitalis , vol . IV , Books VII and VIII, ed. and Trans. by Maryorie Chibnall, Oxford 1973 .

- Peter Tudebode , Historia de Hierosolymitana Itinere , Trans. by John Hugh Hill and laurita L. Hill .

- Petachia de Ratisbonne , "Tour du Monde ou Voyages du Rabbin Petachia de Raticbonne dans le XII Siecle" , J. A., Année 1881 .

- Raymond d'Aguilers , Historia Francorum qui ceperuni Iherusalem, Trans. by John Hugh Hill and Launta L. Hill , philadelphia 1968 .

also, in peters , The First Crusade, The Chronicles of Fulcher of Chartres and other Source Materials , Pennsylvania 1971 .

- Robert of Rheims, The Account of Robert of Rheims , in Louis and Janathan Riley - smith , The Crusades Idea and Reality . 1095-1274 , London 1941 .

- Robert The Monk , in Peters, The First Crusade , The Chronicles of Fulch-

er of Chartres and other Source Materials, Philadelphia 1971 .

- Saewulf , Pilgrimage of Saewulf , Trans. by Bishop of Clifton , P.P.T.S., vol . IV , London 1896 .
- The City of Jerusalem , Trans . by C.R. Conder , P.P.T.S., vol . VI, London 1894 .
- The Jewish Chronicles of the Crusades, Trans. by Shlomo Eidelburg, Madison 1977 .
- Theoderich , Description of the Holy Places, Trans. by Aubrey Stewart , P.P.T.S., vol . V, london 1896 .
- The Old French Continuation of William of Tyre 1184-1197 , in The Conquest of Jerusalem and the Third Crusade Sources in Translation, ed. by P.W. Edbury, Hampshire 1996 .
- The Saga of Sigurd, in Wright, Early Travels in Palestine , London 1848 .
- William of Tyre , History of Deeds done beyond the Sea , 2 vols. , Trans. by Bebcock and Krey , New York 1943 .
- William Rutebeuf, in Masson , Medieval France From the Reign of Hugues Capet to the Beginning of the Sixteen Century , London 1888 .

ثالثًا : المراجع العربية والمعربة :

أبو الفرج العش ، آثارنا فى الإقليم السورى ط. القاهرة ١٩٦٠م.

أحمد أمين ، الصعلكة والفتوة فى الإسلام، ط. القاهرة ١٩٥٣م.

أحمد بدر (د.) ، «الأندلسيون والمغاربة فى القدس». مجلة أوراق- المعهد الإسبانى العربى، العدد (٤)، مدريد عام ١٩٨١م.

أحمد رمضان (د.) ، شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى ، ط. القاهرة ١٩٧٧م. الرحلة والرحالة المسلمون، ط. جدة، ب-ت .

المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٧٧م.

إدوارد براون ، تاريخ الأدب فى إيران ، ت. الشواربى ط. القاهرة ١٩٥٤م.

أسامه زكى زيد (د.) ، «ملكات بيت المقدس فى القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى» مجلة كلية الآداب- جامعة طنطا، العدد (٨) يناير عام ١٩٩٥م.

إسحق عبيد (د.) ، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين ، ط. القاهرة ١٩٧٠م.

الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغوس ط. بنى غازى ب-ت .

أسد رستم (د.) ، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى ، ج٢، ط. بيروت ١٩٨٨م.

أسمت غنيم (د.) ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ٣٢٤-١٤٥٣م ، ط. الإسكندرية ١٩٨٧م .

الكسندر خاتشاتريان (د.) ، أهل الفتوة والفتيان فى المجتمع الإسلامى ، ط. بيروت ١٩٩٨م.

الكسى جورافسكى ، الإسلام والمسيحية ، ت. خلف محمد الجراد، مراجعة محمود حمدى زقزوق ، سلسلة عالم المعرفة العدد رقم (٢١٥) الكويت ١٩٩٦م.

أمال هاشم (د.) ، المرقب وقلعتها ودورها فى الصراع الصليبى- الإسلامى فى عصر الحروب الصليبية (١٠٩٥-١٢٩١م / ٤٨٧-٦٩٠هـ) رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب- جامعة الإسكندرية عام ١٩٨٧م.

أنا مارى شيمل ، الإسلام دين الإنسانية ، ت. صلاح عبد العزيز محجوب ، دراسات إسلامية ، العدد (٦٠) رجب ١٤٢١هـ/ أكتوبر ٢٠٠٠م .

برنارد لويس : الدعوة الإسماعيلية الجديدة، ت. سهيل زكار ، ط. بيروت ١٩٧١م.

بسام إسخيطه ، «الفروسية سلاح الردع فى الحروب القديمة» الحرس الوطنى، عدد يناير ١٩٨٩م.

بسام العسلى ، فن الحرب الإسلامى أيام الحروب الصليبية ، م٤ ، ط. بيروت ١٩٨٨م.

بوريس راوشنباخ ، «تعميد كييف» رسالة اليونسكو العدد التذكارى بمناسبة مرور ألف عام على دخول المسيحية في روسيا القديمة ، عدد رقم (٣٢٥) ، يونيو ١٩٨٨م.

توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ت. حسن إبراهيم وآخران ط. القاهرة ١٩٧٠م.

جان سوفاجيه وكلود كاهن ، مصادر دراسة التاريخ الإسلامى، ت. عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب ، المجلس الأعلى للثقافة ، ط. القاهرة ١٩٩٨م.

جزيل الجومرد وناصر جاسم ، «سيرة صلاح الدين الأيوبى فى الدراسات الاستشراقية الناطقة بالإنجليزية » مؤته للبحوث والدراسات ، م (١٣) العدد (٧) عام ١٩٩٨م.

جمال حمدان (د.) ، شخصية مصر دراسة فى عبقرية المكان ، ط. القاهرة ٢٠٠٠م.

جمال الدين الشيال (د.) ، التاريخ الإسلامى وأثره فى الفكر التاريخى الأوربى فى عصر النهضة ، ط. بيروت ب-ت .

جمعه رجب طنطيش، المياه فى فلسطين دراسة فى الجغرافيا الاقتصادية والسياسية، ط. بنى غازى ١٩٨٩م.

جميل حرب محمود (د.) ، الحجاز واليمن فى العصر الأيوبى ، ط. جدة ١٩٨٥م.

جورج شحاته قنواتى (د.) ، المسيحية والحضارة العربية ، ط. بيروت ب-ت.

جوزيف نسيم يوسف (د.) ، «معركة حطين خلفياتها ودلالاتها» ، عالم الفكر ، م (٢٠)، الكويت ١٩٨٩م.

جيرارد زلنجر ، «الفتوة هل هي الفروسية الشرقية ؟ ضمن كتاب دراسات إسلامية ، ت. مجموعة الباحثين إشراف نقولا زيادة ، ط. بيروت ١٩٦٠م.

حاتم الطحاوى ، «الصليبيون يدخلون القدس» العربى، عدد (٤٩٥) فبراير ٢٠٠٠م.

حامد غنيم (د.) ، الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٧٢م.

حسن حبشى (د.) ، الشرق الأوسط بين شقى الرحى ط. القاهرة ١٩٤٩م. الحرب الصليبية الأولى ط. القاهرة ١٩٥٨م.

حسن حنفى (د.) ، الاستغراب ، ط. القاهرة ١٩٩٥م.

حسن عبد الوهاب (د.) ، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون فى الأراضى المقدسة حوالى ١١٩٠-١٢٩١م / ٥٨٦-٦٩٠هـ ، ط. الإسكندرية ١٩٨٩م ، المحاولات التبشيرية فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ، ط. الإسكندرية ب-ت .

حسين عطيه (د.) ، إمارة أنطاكية الصليبية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة الاسكندرية عام ١٩٨١م. إمارة أنطاكية والمسلمون، ط. الاسكندرية ١٩٨٩م «عشر صلاح الدين وأصوله التاريخية فى غرب أوربا ومملكة بيت المقدس الصليبية» ضمن كتاب دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية. ط. الاسكندرية ٢٠٠٠م.

«المسلمون فى الإمارات الصليبية فى بلاد الشام» ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام فى فترة الصراع الإسلامى الفرنجى، جامعة اليرموك ، ط. إربد ٢٠٠٠م.

حياة الحجى (د.)، السياسة الصليبية للملك الفرنسى لويس التاسع ، ط. الكويت ١٩٨٣م.

خيرية قاسمية (د.) ، «إعادة النظر فى كتابة التاريخ العربى لماذا ؟ وكيف؟ » شؤون عربية، العدد (١٠٣) سبتمبر ٢٠٠٠م) .

ديفيد چاكسون «معركة حطين والاستيلاء على القدس» ، ضمن كتاب حطين صلاح الدين والعمل العربى الموحد، ط. القاهرة ١٩٨٩م.

رأفت عبد الحميد (د.) ، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٨م.

روبار برونشفيك ، تاريخ أفريقيا فى العهد الحفصى من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م، ت. حمادى الساحلى ، ط. بيروت ١٩٨٨م.

زكى حسن ، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، ط. القاهرة ١٩٤٥م .

زكى نقاش (د.) ، الحشاشون وأثرهم فى المجتمع ، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب- جامعة القاهرة ١٩٥٥م.

سامر مخيمر وخالد حجازى (د.) ، أزمة المياه فى المنطقة العربية ، سلسلة عالم المعرفة ط. الكويت ١٩٩٦م.

سرور على عبد المنعم (د.) ، الدور السياسى لحصن شقيف أرنون فى عصر الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة طنطا عام ١٩٩٧م.

السياسة الداخلية والخارجية لملكة بيت المقدس فى عهد الملك فولك الأنجوى (١١٣١-١١٤٣م/ ٥٢٦-٥٣٨هـ) رسالة دكتوراة غير منشورة- كلية البنات جامعة عين شمس عام ٢٠٠١م.

سعد محمد المومنى (د.) ، القلاع الإسلامية فى الأردن الفترة الأيوبية والمملوكية ، ط. عمان ١٩٨٨م.

سعيد برجاوى ، الحروب الصليبية فى الشرق ، ط. بيروت ١٩٨٤م.

سعيد البيشاوى (د.) ، نابلس الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية عصر الحروب الصليبية (٤٩٢-٦٩٠هـ / ١٠٩٩-١٢٩١م) ، ط. عمان ١٩٩١م.

الممتلكات الكنسية فى مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م) ، ط. الإسكندرية ١٩٩٠م.

المقاومة الشعبية الفلسطينية ضد الفرنجة الصليبيين ٤٩٢- ٥٨٣هـ / ١٠٩٩-١١٨٧م، ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام فى فترة الصراع الإسلامى الفرنجى، جامعة اليرموك، ط. إربد ٢٠٠٠م.

سعيد الديوجى ، الموصل فى العهد الأتابكى ، ط. بغداد ١٩٥٨م.

سعيد عاشور (د.)، الحركة الصليبية ط. القاهرة ١٩٦٣م ، ط. القاهرة ١٩٨٢م.

أوربا العصور الوسطى ، ط. التاريخ السياسى ، ط. القاهرة ١٩٨١م.
«حطين وقائع وعبر» مجلة العربى، العدد (٣٤٤) الكويت يوليو ١٩٨٧م .
مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ، ط. بيروت ب-ت .

سليمان حزين (د.) ، «توسع العرب وانتشار الإسلام» ضمن كتاب إسلاميات ، ط. القاهرة ب-ت .

سليمان الخرابشة (د.) ، نيابة طرابلس فى العصر المملوكى ، ط. عمان ١٩٩٣م.

سمير صالحة، «مياه إسرائيل فى العلاقات المائية العربية- التركية»، مجلة مستقبل العالم الإسلامى ، مركز دراسات العالم الإسلامى فى مالطة، عدد (١٥) ، عام ١٩٩٥م.

سميل (ر.سى) (د.) ، الحروب الصليبية ت. سامى هاشم ، ط. بيروت ١٩٨١م.

سوسن محمد نصر (د.) ، «منطقة الجزيرة الفراتية والوحدة خلال القرن السادس الهجرى» مجلة الشرق الأوسط- مركز بحوث الشرق الأوسط - جامعة عين شمس ، العدد (٧) عام ١٩٩٠م.

سويترنون ، الأرض من تحتنا ، ت. محمد يوسف حسن وفتح الله معوض ، ط. القاهرة ب-ت.

سهيل زكار (د.) ، الحروب الصليبية ، ط. دمشق ١٩٨٣م.

السيد أحمد أبو الفضل (د.) ، «انتشار ترجمات معانى القرآن الكريم فى مشرق العالم ومغربه» مجلة البحوث الإسلامية، العدد (٣٠) ، ربيع الأول - ربيع الثانى- جمادى الأول ، ط. الرياض ١٤١١هـ .

السيد العزاوى (د.) ، فرقة النزارية ، تعاليمها ورجالها على ضوء المراجع الفارسية ، ط. القاهرة .

السيد عبد العزيز سالم (د.) ، طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى، ط. بيروت ب-ت .

سيمون لويد ، «حملتا القديس لويس الصليبيتان» ت. عادل زيتون، الثقافة العالمية العدد (٨٧) مارس - أبريل ١٩٩٨م.

صلاح الدين الشامى (د.) ومحمد الصقار (د.) ، جغرافية الوطن العربى الكبير، ط. الإسكندرية ١٩٧٥م.

صلاح الدين المنجد (د.) ، المشرق فى نظر المغاربة والأندلسيين ، ط. القاهرة ١٩٦٠م.

صلاح ضبيع ، دور الألمان فى الحروب الصليبية فى بلاد الشام ٥٤٠هـ / ١١٤٥م إلى ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩م، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب - جامعة أسيوط عام ١٩٩٣م.

صلاح عبد المنعم ، القلاع فى مملكة بيت المقدس الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية البنات جامعة عين شمس عام ٢٠٠٠م.

طارق الصوافى ، القلاع والحصون فى شمال فلسطين فى فترة الصراع الفرنجى الإسلامى، ٤٩٢-٦٩١هـ/ ١٠٩٩-١٢٩١م، ط. عكا ٢٠٠٠م.

طارق المجذوب ، «المياه العربية فى استراتيجية إسرائيل الشرق أوسطية»، مجلة مستقبل العالم الإسلامى، مركز دراسات العالم الإسلامى فى مالطة، عدد (١٥) ، عام ١٩٩٥م.

طارق منصور (د.)، الروس والمجتمع الدولى ٩٤٥-١٠٥٤م ، ط. القاهرة ٢٠٠١م.

طه شرف ، دولة النزارية أجداد أغاخان ، ط. القاهرة ١٩٥٠م.

عائشة بنت عبدالله ، البحر الأحمر فى العصر الأيوبى ، ط. مكة المكرمة ١٩٨٠م.

عائشة التهامى (د.) ، «المنشآت المعمارية للسلطانه شجر الدر بالقاهرة»، المؤرخ المصرى ، العدد (١٨) يوليو ١٩٩٧م.

عادل زيتون (د.) ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، ط. دمشق ١٩٨٠م.

عبد الحافظ عبد الخالق (د.) ، الأسواق فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام من ١٠٩٩ إلى ١٢٩١م ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة الزقازيق عام ١٩٨٩م.

عبد الحفيظ محمد على (د.) مشكلات الوراثة فى مملكة بيت المقدس الصليبية وأثرها

على تاريخ الحركة الصليبية (١١٣١-١١٨٧م) ط. القاهرة ١٩٨٤م.

عبد الحميد زايد (د.) ، القدس الخالدة ، ط. القاهرة ١٩٧٤م ط. القاهرة ٢٠٠٠م.

عبد الرحمن حميدة (د.) ، «طريق الحرير بين ابن بطوطة وماركو بولو» مجلة دراسات تاريخية جامعة دمشق ، السنة (١٢) العدوان (٣٩) ، (٤٠) كانون الأول ١٩٩١م.

عبد الرحمن زكى (د.) «القلاع فى الحروب الصليبية» المجلة التاريخية المصرية م(١٥)،عام ١٩٦٩م.

عبد الرحمن زكى ومحمود عيسى ، الحروب بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٤٧م.

عبد السلام زيدان ، الحملة الصليبية الثانية ١١٤٧-١١٤٩م ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب - جامعة أسيوط عام ٢٠٠٠م.

عبد العزيز سيد الأهل، أيام صلاح الدين ، ط. بيروت ١٩٦١م.

عبد الفتاح وهيبة (د.) ، جغرافية العرب فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٦٠م.

عبد القدوس الأنصارى ، مع ابن جبير فى رحلته ، ط. القاهرة ١٩٧٦م.

عبداللطيف حمزه (د.) ، حكم قراقوش ، ط. القاهرة ١٩٨٢م.

عبد اللطيف عبد الهادى (د.) ، السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس الصليبية فى عهد بلدوين الثالث (١١٤٦-١١٦٣م)، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٩٠م.

الحركة الصليبية خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى من خلال كتابات جاك دى فترى ، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب- جامعة الزقازيق عام ١٩٩٧م.

عبدالله الربيعى (د.) ، أثر الشرق الإسلامى فى الفكر الأوربى خلال الحروب الصليبية ط. الرياض ١٩٩٤م.

عبدالله الشرفى ، الفكر الإسلامى فى الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع / العاشر، ط. تونس ١٩٨٦م.

عبد المنعم ماجد (د.) ، صلاح الدين الأيوبى ، ط. القاهرة ١٩٩٩م.

عبد النعيم حسنين (د.) ، سلاجقة إيران والعراق ، ط. القاهرة ١٩٧٠م دولة السلاجقة ، ط. القاهرة ١٩٧٥م.

عبدالله الدروبى ، « المياه فى الاستراتيجية الإسرائيلية »، مجلة مستقبل العالم الإسلامى، مركز دراسات العالم الإسلامى فى مالطة، عدد (١٥) ، عام ١٩٩٥م.

عبد الهادى التازى (د.) ، «بلاد الشام فى الوثائق الدبلوماسية المغربية» المؤتمر الأول لتاريخ بلاد الشام عمان ١٩٧٤م.

عبد الواحد ذنون طه (د.) الفتح والاستقرار العربى الإسلامى فى شمال أفريقيا والأندلس، ط. بغداد ١٩٨٢م.

عزيز سوريال عطية (د.) ، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ط. القاهرة ١٩٩٠م.

عفاف شكرى (د.)، «حول ترجمة معانى القرآن الكريم»، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ، السنة (١٥) ، العدد (٤٢) الكويت ٢٠٠٠م.

على أبوعساف (د.) ، «طريق الحرير والطرق التجارية القديمة»، مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق ، السنة (١٢) ، العددان (٣٩) ، (٤٠) ، كانون الأول ١٩٩١م.

على أدهم ، الجمعيات السرية ، ط. القاهرة .

على السيد على (د.) ، القدس فى العصر المملوكى، ط. القاهرة ١٩٨٦م.

الإسهام العسكرى المصرى فى موقعة عين جالوت» ضمن كتاب أثر الإسلام فى مصر وأثر مصر فى الحضارة العربية الإسلامية ، إشراف قاسم عبده قاسم ، ط. القاهرة ١٩٩٩م.

على عوده الغامدى (د.) «حصن بغراس ودوره الحربى فى عصر الحروب الصليبية» ، ندوة الاطار التاريخى للحركة الصليبية، اتحاد المؤرخين العرب ، ط. القاهرة ١٩٩٥م. أنطاليه فى عصر الحروب الصليبية ، ط. مكة المكرمة ١٩٩٧م.

«الراهب الفرنسيسكان ريموند لول ومحاولاته نشر النصرانية فى شمال أفريقيا » المؤرخ العربى ، م (١) مارس ١٩٩٨م .

عليه الجنزورى (د.)، إمارة الرها الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٨٦م.

الحروب الصليبية المقدمات السياسية ط. القاهرة ١٩٩٩م.

عماد الدين خليل (د.) ، المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى عصر ولاة السلاجقة فى الموصل ٤٨٩ - ٥٢١هـ / ١٠٩٥-١١٢٧م) ، ط. الرياض ١٩٨١م .

عمر رضا كحالة، دراسات اجتماعية فى العصور الإسلامية، ط. دمشق ١٩٧٣م.

عمر كمال توفيق (د.) ، مملكة بيت المقدس الصليبية ، ط. الإسكندرية ١٩٥٨م.

غسان دمشقية ، أزمة المياه والصراع فى المنطقة العربية، ط. دمشق ١٩٩٤م.

فاروق جرار (د.) ، «أسطول صلاح الدين الأيوبى» مجلة الأبحاث - الجامعة الامريكية ببيروت ، السنة (١٣) ، ج(١١) ، عام ١٩٦٠م.

فايز نجيب اسكندر (د.) ، المقاومة الإسلامية فى مواجهة العدوان الصليبى على تونس ٦٦٨-٦٦٩هـ / ١٢٧٠م ط. القاهرة ١٩٨٦م.

فتحى أبوعيانة (د.) ، جغرافية أفريقيا دراسة إقليمية مع التطبيق على دول جنوب الصحراء ، ط. بيروت ١٩٨٢م.

فتحى عبد العزيز ، دور الكنيسة فى مملكة بيت المقدس اللاتينية حتى عام ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة الزقازيق عام ١٩٨٨م.

فتحى عبدالله فياض ، «فلسطين الموقع والموضع دراسة جيوبوليتيكية» ندوة فلسطين عبر عصور التاريخ ،ط. القاهرة ١٩٩٦م.

فرانز تيشنر ، «الفتوة والخليفة الناصر» ضمن كتاب المنتقى من دراسات الاستشراق ، ت. صلاح الدين المنجد ، ط. القاهرة ١٩٥٥م.

فيليب رفلة وأحمد مصطفى (د.) ، جغرافية الوطن العربى ، ط. القاهرة ١٩٧٠م.

قاسم عبده قاسم (د.) ، «الاضطهادات الصليبية ليهود أوربا من خلال حولية يهودية الظاهرة ومغزاها» ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، م(١) عام ١٩٨٢م.

الحروب الصليبية ، نصوص ووثائق ط. القاهرة ١٩٨٥م.

كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى، جـ٦، ت. عبد الحليم النجار، ط. القاهرة ١٩٧٧م.

كارول هيلنبراند ، «صلاح الدين تطور أسطورة غربية» ضمن كتاب حطين صلاح الدين والعمل العربى الموحد، ط. القاهرة ١٩٨٩م.

كارين آرمسترونج ، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ت. فاطمة نصر ومحمد عنانى، ط. القاهرة ١٩٩٨م.

كامل حسين (د.) ، طائفة الإسماعيلية ، ط. القاهرة ١٩٥٩م .

كامل زهيرى ، النيل فى خطر، ط. القاهرة ١٩٩٩م .

كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ت. صلاح الدين عثمان ط. القاهرة ١٩٦٣م.

كلود كاهن ، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ت. أحمد الشيخ ، ط. القاهرة ١٩٨٨م.

كمال بن مارس ، العلاقة بين الموصل وحلب وأثرها على الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٩١م.

كمال السامرائى (د.) ، مختصر تاريخ الطب العربى ، جـ٢ ، ط. بغداد ١٩٨٥م.

لويس شيخو ، «تاريخ دمشق لابن القلانسى» ، المشرق ، عدد (٨) عام ١٩٠٨م .

ليلى طرشوبى (د.) ، إقليم الجليل فترة الحروب الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٨٧م .

ليلى عبد الجواد ، تاريخ الروس من خلال المصادر العربية ، ط. القاهرة ١٩٩٠ م.

محسن صالح محيى الدين (د.)، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى الشرق فى عهد الناصر لدين الله ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة عام ١٩٧٤م.

محسن محمد حسين ، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين ، ط. بيروت ١٩٨٦م.

محمد الدعمى ، «تاريخ التاريخ الأوربى للإسلام والعرب من العصر الوسيط حتى عصر الثورة الصناعية» الكلمة ، العدد (١٦) ، السنة (٤) عام ١٩٩٧م.

محمد رجب النجار (د.) ، «القدس فى الفولكلور والأساطير العربية»، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد (٤) ، السنة (١٠) ، الكويت صيف ١٩٩٢م.

محمد سامى عسل (د.) ، الجغرافية الطبيعية ، ط. القاهرة ١٩٧٣م.

محمد صبرى سليم (د.) ، الظاهرات الجيمورفولوجية الرئيسية دراسة تحليلية ، ط. القاهرة ١٩٨٣م.

محمد عبد الحميد زقزوق (د.) ، «الرسالة المحمدية فى المؤلفات الغربية» ، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة، جامعة قطر ، العدد (٤) ، الدرجة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

محمد العروسى المطوى ، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها فى الغرب الإسلامى، ط. بيروت ١٩٨٦م.

محمد فتحى الشاعر (د.) ، أحوال المسلمين فى مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١١٨٧م) ، ط. القاهرة ١٩٩٠م .

محمد مؤنس أحمد عوض (د.) ، التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٨٤م.

«الأسواق التجارية فى عهد الدولة النورية» الدارة، السنة (١٦)، العدد (٣) ، عام ١٩٩١م.

الرحالة الأوربيون فى مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م ، ط. القاهرة ١٩٩٢م.

أضواء على الطب فى المناطق الصليبية ١٠٩٨-١١٧٤م، سلسلة دراسات شرق أوسطية ، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس عام ١٩٩٥م.

الجغرافيون والرحالة المسلمون فى بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٩٥م.

الزلازل فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٩٦م.

الحروب الصليبية بحوث تاريخية ونقدية ، ط. عمان ١٩٩٩م.

الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب فى القرنين ١٢ ، ١٣م ، ط. القاهرة ١٩٩٩-٢٠٠٠م .

محمد مصطفى زيادة (د.) حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ، ط. القاهرة ١٩٦١م.

محمود الحويرى (د.) ، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين ، ط. القاهرة ١٩٧٩م العادل الأيوبى صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية ط. القاهرة ١٩٨٠م.

محمود رزق محمود (د.) ، العلاقة بين ارناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبى حتى موقعة حطين ٥٨٣هـ / ١١٨٧م رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٧٧م.

مرفت محمد سالم ، حصن الأكراد ودوره فى الصراع الصليبى الإسلامى ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة الإسكندرية عام ١٩٩٢م.

مصطفى الكنانى (د.) ، حملة لويس التاسع الصليبية على تونس ١٢٧٠م / ٦٦٨-٦٦٩هـ ،ط. الإسكندرية ١٩٨٥م.

مصطفى طلاس ومحمد وليد الجلاد ، قلعة الحصن حصن الأكراد ، ط. دمشق ١٩٩٠م.

مكسيم رودنسون ، «الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية»، ضمن كتاب تراث الإسلام، جـ١، ت. السمهورى ، وحسين مؤنس ، وإحسان صدقى العمد، عالم المعرفة ، العدد (٢٣٣) الكويت ، ١٩٩٨م.

ممدوحه محمد سلامة ، «الكارزمية - القدرة على التأثير على الآخرين» ، مجلة علم النفس العدد (١٤) أبريل - مايو - يونية ١٩٩٠م.

منى رضوان (د.) الأسرة الجمالية ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة القاهرة عام ١٩٨٢م.

مهجه السيد عبد العال ، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام من خلال كتب الرحالة والجغرافيين العرب والأجانب المعاصرين للحركة الصليبية (٤٨٧-٦٩٠هـ / ١٠٩٥-١٢٩١م) ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٨٧م.

مولر ، القلاع أيام الحروب الصليبية ، ت. محمد وليد الجلاد، ط. دمشق ١٩٨٤م .

ميشيل جحا، الدراسات العربية والإسلامية فى أوربا، معهد الانماء العربى، ط. بيروت ١٩٨٢م.

نظير حسان سعداوى (د.) ، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ، ط. القاهرة ١٩٥٧م.

الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ، ط. القاهرة ١٩٦١م.

نعمان جبران ، «محاولات المغول السيطرة على طريق الحرير - أسباب ونتائج» ، مجلة الدراسات التاريخية ، السنة (١٢) العددان (٣٩)، (٤٠) ، كانون الأول ١٩٩١م ، «جوانب من صور الآخر (الغرب) فى التاريخ الإسلامى ، ط. اربد ب-ت .

نعيم زكى فهمى (د.) ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها أواخر العصور الوسطى ، ط. القاهرة ١٩٧٣م.

نقولا زيادة (د.) ، دمشق فى عصر المماليك ، ط. بيروت ١٩٦٦م.

هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ط. ت. محمد رضا ، ط. القاهرة ١٩٨٥م.

هنرى لامنس ، «بلاد سوريا فى القرن الثانى عشر وفقًا لرحلة ابن جبير»

المشرق ، العدد (٧) ، السنة (١٠) ، عام ١٩٠٧م.

هيثم الكيلانى (د.) ، «الجولان فى حاضره ومستقبله» شؤون عربية ، العدد (١٠٥) ، مارس ٢٠٠١مم.

واصف بطرس غالى ، تقاليد الفروسية عند العرب ت. أنور لوقا ، ط. القاهرة ١٩٦٠م.

ياسين سويد ، «صلاح الدين واستراتيجية التوحيد للتحرير» ، شؤون عربية، العدد (٨٣) سبتمبر ١٩٩٥م.

يسرى الجوهرى (د.) الوطن العربى دراسة فى الجغرافية التاريخية والإقليمية ، ط. الإسكندرية ١٩٧٩ م.

يوشع براور ، عالم الصليبيين ، ت . قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن، ط. القاهرة ١٩٨١م. الاستيطان الصليبى فى فلسطين مملكة بيت المقدس ، ت . عبد الحافظ البنا ، ط. القاهرة ٢٠٠١م.

رابعًا : المراجع الأجنبية

Al- Azhari (T.K.) , Daifa khatum , Ayyubid queen of Aleppo 634-640 A.H. / 1236-1242 A.D., Cairo 1998 .

Attwater (D.), The Penguin Dictionary of Saints, London 1978 .

Baldwin (M.) , " The latin States under Baldwin III and Amalric I (1143-1174), in Setton , AHistory of The Crusades , vol . I, Wisconson 1969 .

, " Mission to the East in the Thirteenth and Fourteenth Centuries", in Setton , A History of the Crusades, vol . V , Madison 1985 .

Barber (M.), " Suppling the Crusader States : The Role of the Templars ", in the Horns of Hattin ed. by B. Z. Kedar, Jerusalem 1992 .

Benvenisti (M.), The Crusader in the Holy land , Jerusalem 1992 .

Brooke (Z.N.), A History of Europe From 911 to 1198, London 1938 .

Brundage (J.), " Prostitution , Miscegenation and Sexual Purity in the First Crusade ", in Crusade and Settement , ed. by P.W. Edbury , Cardiff 1985.

Cahen (C.) , la Syrie du nord a' L'epoque des Croisades, Paris 1940 .

Constable , " The Financing of the Crusades in the Twelfth Century ", in Outremere Studies in the History of Crusading Kingdom of Jerusalem , Presented to Joshua Prawer, ed. by B. Z.Kedar , R. Smail , H.E. Mayer , Jerusalem 1982 .

D'Alverney (M.T.), "Deux Traductions latins du Coran au Moyen Age ", A.H.d.L.M.A., T. XXII - XXIII , Année 1947-1948 .

Daniel (N.) , " Crusade Propaganda" , in Setton, A History of the Crusades, vol . VI , Wisconson, 1989 .

Delaville le Roulex , " Troix Chartres de XII Siecle concernant L'Ordre de St. Jean de Jerusalem ", A.O.L., T.I, Année 1893 .

;" Inventaire de Pieces Terre Siant de L'Ordre de L'Hopital", R.O.L., T.II, Année 1895 .

Dobbie (L.E.N), The Knights Templars in the Holy Land 1118-1187, Master of Arts California University 1943 .

Duggan (A.), The Story of the Crusades, London 1963 .

Ebeid (I.), " Was Pope Innocent III an accomplice in the diversion of the Fourth Crusade 1204", E. H. S., vol . XV, Cairo 1969 .

Elisseeff (N.), la Description de Damas d'Ibn Asakir , Damas 1959 .

Nur Al- Din un Prince Musulman au. Temps des Croisades, T. III, Damas 1967 .

Evans (A . P.) , " The Albigensian Crusade", in Setton , A History of the Crusades , vol .II, Wisconson 1969 .

Fedden (R.), Crusader Castles, Beirut 1957 .

Forey (A.), " The Military Orders 1120-1312 ", in the Oxford illustrated History of the Crusades , Oxford 1995 .

Foulet (A.) "The Epic cycle of the Crusades". in Setton , A History of the Crusades vol . VI, Wisconson 1989 .

Finucane (R.C.), Soldiers of Faith, Crusaders and Moslems at war , New York 1983 .

Gibb (H.), The Damascus Chronicle of The Crusades, Extraits edited and Translated From The Chronicle of Ibn Al. qalanisi , by H.A. Gibb, London 1922 .

Hagenmeyer (H.), " Chronolagie de la Premiere Croisade ", R.O.L., T. VII, Année 1899 .

Hill (R.), "The Christian View of The Muslims at the Time of the First Crusade", in the Eastern Mediterrnean lands in The Period of the Crusades, ed. by Holt , London 1977 .

Irwin (R.), " Islam and the Crusades 1096-1699", in the Oxford illustrated History of the Crusades , ed . by Jonathan Riley Smith, Oxford 1995 .

Kedar (B.Z.) , Crusade and Mission European Approaches Toward The

Muslims, Princeton 1982 .

, " The Battle of Hattin revised ", in the Horns of Hattin ed. by B.Z. Kedar , Jerusalem 1992 .

Kleinclause (A.), Charlemagne , paris 1934 .

lawrence (T.E.), Crusader castles, london 1936 .

Leclerq (D.J.), Pirerre le Venerable , Paris 1946 .

Le Tourneau (R.), Damas de 1079 a' 1154 , troduction annote d'un Fragment de L'Histoire de damas d'Ibn Al qalanisi, Damas 1952 .

Lewis (B.), The Assassins, Aradical Sect in Islam, London .

Louise and Jonathan Riley - Smith, The Crusades Idea and Reality (1095-1274), London 1981 .

Luttrell (A.), "The Military Orders 1312-1798" , in The Oxford illustrated History of the Crusades, Oxford 1995 .

," The Earliest Hospitallers in Montjoie Studies in Crusade History in Honour of Hans mayer , Hampshire 1997 .

Marriot , The Eastern Question , Oxford 1958 .

Mayer (H.), " Studies in the History of queen Melisende of Jerusalem" D.O.P. , vol . XXVI , 1972 ,

The Crusades, Trans. John Gillingham , Oxford 1972 .

, " The Wheel of Fortune : Seignorial Vicissitudes under kings Fulk and Baldwin III of Jerusalem", S., vol . LXV, 1990, p. 860-877., " The Succession To Baldwin IIof Jerusalem : English impact on The East", D.O.P., vol . XXXIX , 1985 .

, " Angevins Versus Norans : The New Men of king Fulk of Jerusalem", A. P. S., vol . 133 , N.I, 1989.

Menache (S.), Rewriting the History of The Templars according to Mathew paris ", in Cross Cultural Converegences in the Crusader Period , Eassays Presented to Aryeh Grabois on his Sixty Fifth Birthday , ed. by Michael

Goodich , Sophia Menachie and Sylvia Schein , New York 1995 .

Meyendorff and Paynes , " The Byzantine Inheritence in Russia ", in paynes and Moss, Byzantium An Introduction to the Eastern Roman Civilsation , Oxford 1952 .

Munro (D.), " The Speech of Pope Urbanus II at Clermont ", A.H.R., vol . II, 1905 .

Nicholson (R.L.), Tancred : Astudy of his Career and Work in Their relation to The First Crusade and the Establishment of the latin States in Syria and Palestine, Chicago 1940 .

Ostrogorsky (G.), History of the Byzantine State, Trans. by Jean Hussey, oxford 1960 .

Painter (S.), History of the Middle Ages 284-1500, New York 1954 .

Parisse , " Godfrey de Bouillon , le Croisade Examplaire ", L'Histoire , T. XLVII, Année 1982 .

Peers (E.A.), Alife of Ramon lull, London 1927 .

Peters (E.) The First Crusade , The Chronicle of Fulcher of Chartres and other Source Materials Pennsylvania 1971 .

Philips (J.), " The latin East 1098- 1291", in the Oxford illustrated History of the Crusades, Oxford 1995 .

Prawer (J.), The Latin kingdom of Jerusalem , the Europeam Colonialism in the Middle Ages, London 1972 .

, " West Confronts East in the Middle Ages ", B. L A.C.C., vol . XII, Cairo 1989 .

Pringle (D.) "Magna Mahomeria (al-Bira) : The Archaeology of a Frankish New Town in Palestine , in Crusade and Settlement , ed. by P.W. Edbury , Cardiff 1985 .

, " Architecture of the latin East 1098-1271", in Oxford Illustrated History of The Crusades, ed. by J.R. Smith , Oxford 1995 .

Richard (J.), la Conte de Tripolis sous la Dynastie Toulousaine, Paris 1945.

, " Agricultural Conditions in The Crusader States , vol . V, Madison 1985 .

Ruhricht (R.), Regesta Regni Hierosolymitano , Oenipanti 1893 .

Runciman (S.) , A History of the Crusades, vol . I, London 1978 .

Salibi (K.), " The Maronites of lebanon under the Frankish rule", R.E.A., T. IV , Année 1957 .

Smail (R.) , The Crusaders in Syria and The Holy Land, London 1974 .

Southern (R.W.) , Western Views of Islam in the Middle Ages, Cambridge 1978 .

Stevenson (W.B.), The Crusaders in the east, Beirut 1968 .

Thorau , " The Battle of Ayn Jalut : a Re.examination ", in Crusade and Settlement , ed. by. P.W. Edbury, Cardiff 1985 .

Throop (P.) , Criticism of the Crusade: AStudy of public Opinion and Crusade Propaganda, Amesterdam 1940 .

Van Cleve (T.C.), " The Crusade of Freserick II", in Setton, A History of the Crusades, vol . II, Madison 1969 .

Vasiliev (A.), History of the Byzantine Empire, vol . II, Madison 1958 .

Yewdale (R.B.), Bohemond I , Prine of Antioch , Amesterdam 1970 .

Zwemer (S.) , Raymond Lull, First Missionary to the the Moslems, London 1902 .

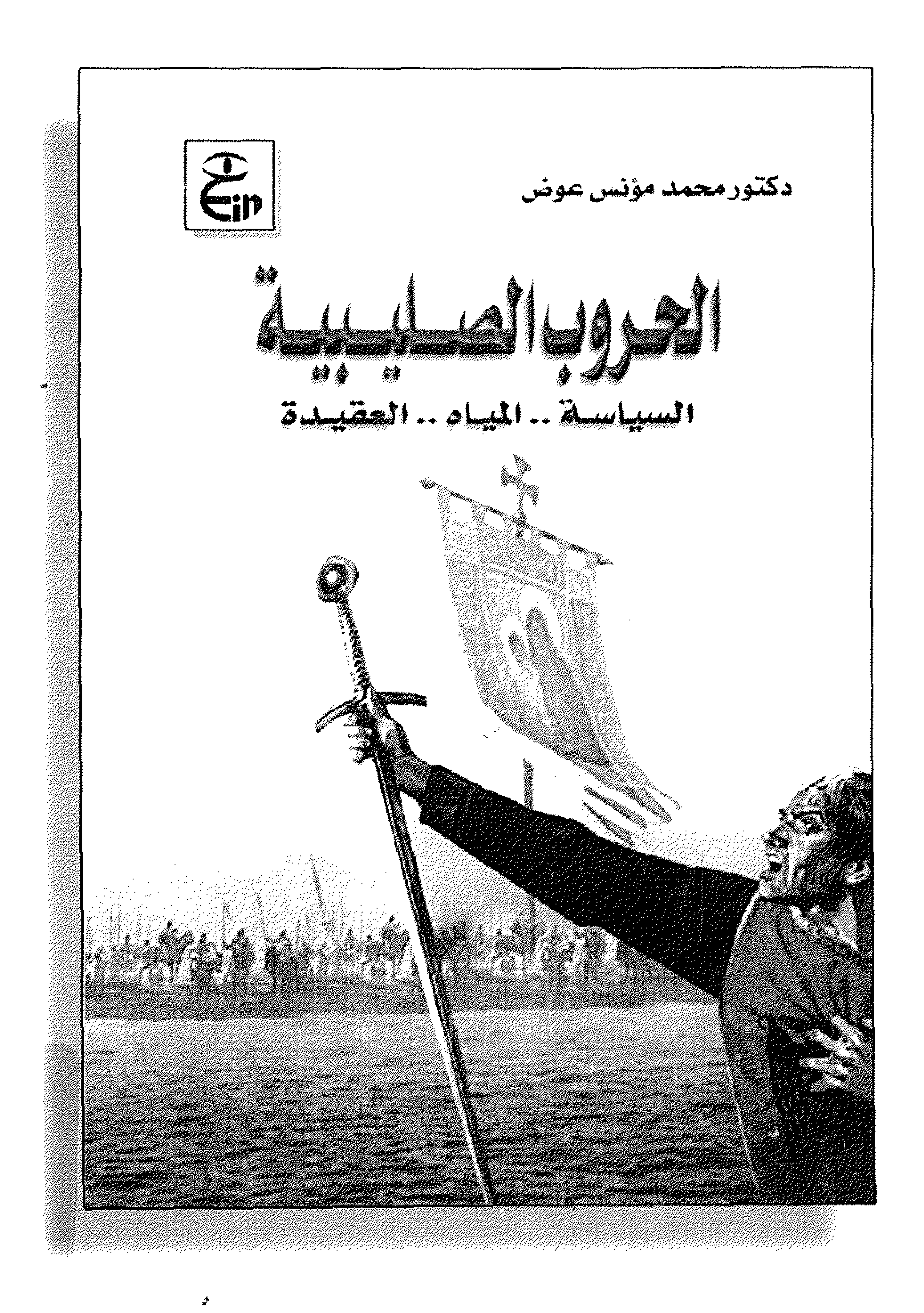
رقم الإيداع ١٤٤٧٤ / ٢٠٠١

I.S.B.N. 977 - 322 - 065 - 6 الترقيم الدولى

دار روتابرينت للطباعة ت : ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤

مهندس / يوسف عز

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق





للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES